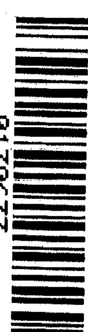
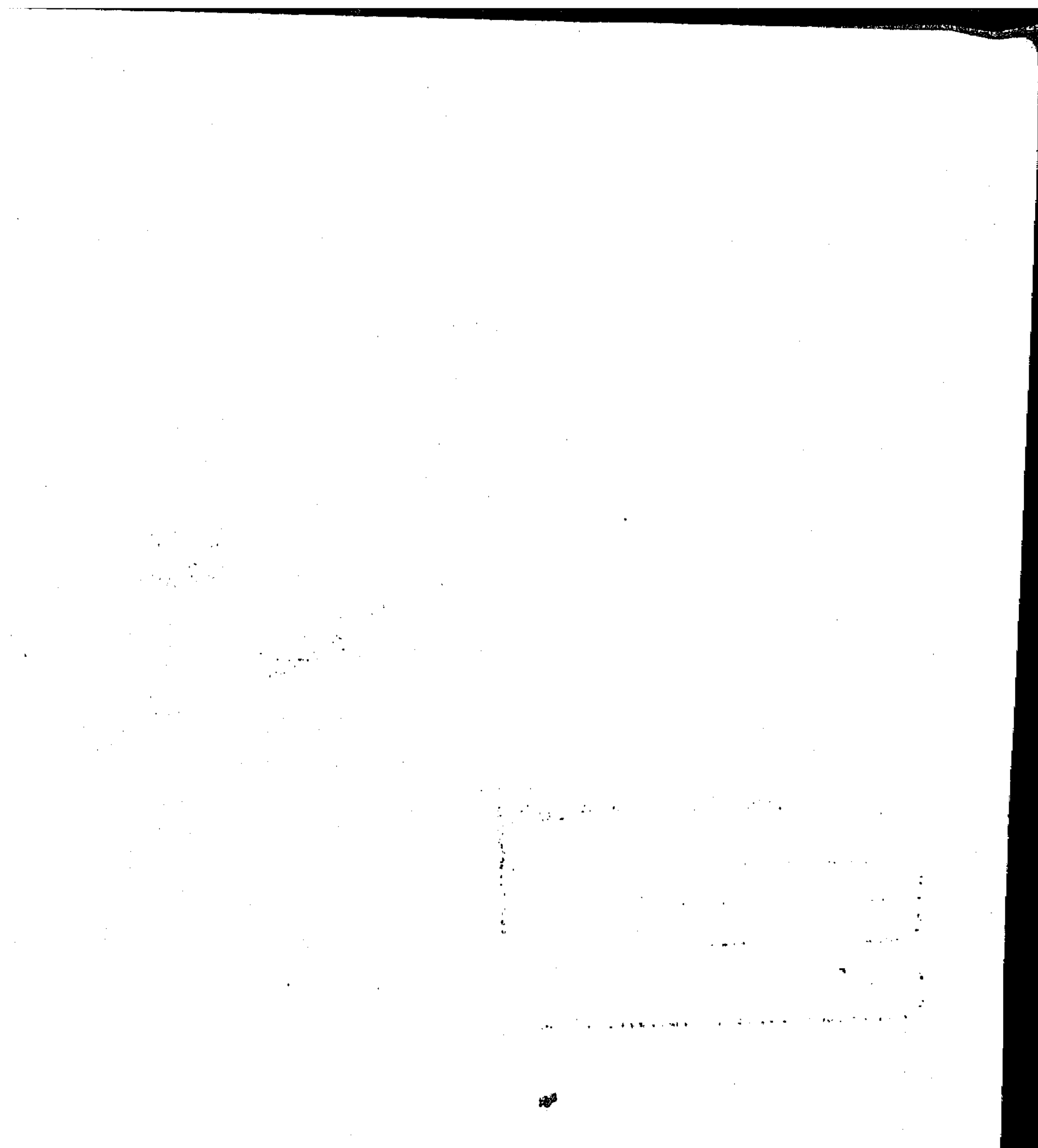
الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي

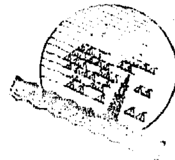
حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس
(١٦٠هـ - ٢٩٦هـ)

دكتور
محمد عيسى الحريري









الدَولَة الرُستِمَيَّة بالمَغرِبِ الإسلَامِي

(حضارتها وعلاقاتها الخارجية بالمغرب والأندلس)

(١٦٠ هـ - ٢٩٦ هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

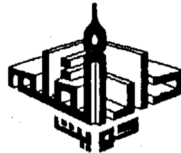
إهـــداء

إلى روح والدى : حباً ووفاء . . . .

الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي

حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس
(١٦٠هـ - ٢٩٦هـ)

دكتور
محمد عيسى الحريري
كلية الآداب - جامعة المنصورة



الطبعة الثالثة
(مزيدة ومنقحة)
١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م



دار القلم للنشر والتوزيع
ص.ب ٢٠١٤٦ الصفاة 13062 الكويت
شارع السور - عمارة السور - الطابق الأول
هاتف ٢٤٥٧٤٠٧١ - ٢٤٥٨٤٧٨ - برقيا توزيعكو

تقديم

بقلم
الأستاذ الدكتور / إبراهيم أحمد العدوى

نائب رئيس جامعة القاهرة

المغرب العربى هو الجناح الأيسر للإسلام ، على نحو ما جاء فى مؤلفات المؤرخين والجغرافيين المسلمين ، اعترافا منهم بأهمية الدور الذى قام به مع قرينه المشرق العربى ، وهو الجناح الأيمن للإسلام ، وذلك من أجل النهوض بعالم الإسلام ، والتحليق به عاليا فى آفاق السيادة العالمية والمجد والسلطان . وقد جاء هذا الارتباط الوثيق بين المغرب العربى وقرينه المشرق العربى وليد الفكر السياسى الذى نهل منه كل منهما ، وذلك منذ القرن الأول للهجرة بأحداثه الجسام فى بناء الدولة الإسلامية ، ودعم أجهزتها السياسية المبكرة .

ويوضح هذا الكتاب الذى يقدمه لنا الدكتور محمد عيسى الحريرى ، تلك الينابيع الثرة للفكر السياسى الإسلامى التى تزود منها المغرب العربى ، وهى نفس الينابيع التى تفجرت فى المشرق العربى ، ولا سيما تلك التى فجرها الخوارج بجماعاتهم العديدة التى انتشرت فى شتى أرجاء الدولة الإسلامية شرقا وغربا . ونال المغرب من تلك الفرق اثنتين : احداهما : هى الصفرية ، والأخرى هى الإباضية . ويتتبع هذا المؤلف القيم للدكتور الحريرى هاتين الفرقتين ، وكيف أن انتقال القيادة من الصفرية إلى الإباضية جاء خط تقسيم واضحا فى طلائع البناء السياسى للمغرب الإسلامى ، وما شاهده من سيادة على عهد « الدولة الرُّسْتَمِيَّة » . وهى الواجهة الأولى للإباضية وفكرهم السياسى الإسلامى .

وزاد من قوة هذا البناء السياسى الرائد فى المغرب الإسلامى اتخاذ

« الدولة الرستمية » لسياسة حسن الجوار منهاجا لها فى علاقاتها مع القوى الخارجية والداخلية أيضا ، وهو أمر لم يعرف له المغرب مثيلا فى تاريخه السابق على انتشار الإسلام . إذ كفلت تلك السياسة للمغرب العربى أن يكون مركز الدائرة للنشاط الإسلامى الواسع ، على شتى معالمه السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ليس فى الأرجاء الافريقية المجاورة للمغرب العربى فحسب ، ولكن فى الأرجاء القريبة منه أيضا فى غرب أوربا . واستطاع المغرب الإسلامى بذلك أن يسهم منذ فجر كيانه السياسى الإسلامى فى حمل لواء الوحدة بين أرجاء الدولة الإسلامية الفتية ، ويترك تراثا زاخرا للأجيال المتعاقبة من أبناء الأمة الإسلامية فى سبيل الحفاظ على سيادتهم السياسية وأمجادهم الحضارية .

وهذه المعالم الهامة وغيرها مما يتناوله كتاب « الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي » تؤكد القيمة العلمية الطيبة لهذا الجهد الصادق الذى بذله الدكتور محمد الحريرى فى ميدان الدراسات الإسلامية ، والمساهمة فى بعث الحياة من جديد فى الجناح الأيسر للإسلام ، وإعادة سالف أمجاده ورسالته الحضارية الإسلامية .

دكتور إبراهيم أحمد العدوى

القاهرة فى : ٢٥ محرم ١٤٠٠ هـ

١٥ ديسمبر ١٩٧٩ م

مقدمـة الطبعـة الأولـى

هذه دراسة حول « الدولة الرستمية » تلك الدولة التى يمثل قيامها فى بلاد المغرب ظاهرة لها أهميتها الحيوية فى تاريخ تلك المنطقة من العالم الإسلامى . فهذه الدولة قامت نتيجة للجهود المضنية التى قام بها الخوارج الإباضية ، بعد أن انتقلت إليهم مقاليد الصراع من فرقة أخرى من الخوارج وهى فرقة الصفرية .

وفى الحقيقة أن الخوارج – ممثلين فى هاتين الفرقتين – قفزوا إلى بلاد المغرب – فى أعقاب الفتح الإسلامى لبلاد المغرب – رغبة منهم فى الحصول على ميدان جديد ، ينشرون فيه تعاليمهم المناهضة لنظام الحكم الأموى القائم . وفى غمرة الصراع ، تتراجع جماعات الصفرية فى بلاد المغرب ، بعد أن أفسد عليها تشددها مع المخالفين لهم – كل أمل فى النجاح ، بينما تقدم الإباضية إلى البربر بمذهبهم ، الذى اقترب فى تعاليمه كثيرا من مذهب أهل السنة ، فلقى نجاحا كبيرا بينهم ، لما كانوا يعانونه من عسف الولاة الأمويين والعباسيين فى بلاد المغرب .

وعلى هذا الأساس ، يمكن القول بأن جهود « الخوارج الإباضية » هى المقدمات الحقيقية للبناء السياسى للمغرب الإسلامى ، لأن الإباضية فى سنة ١٦٠ هـ ، تمكنوا من الانتقال بمذهبهم ، من مرحلة الدعوة إلى مذهبهم ، إلى مرحلة التطبيق العملى لمبادئهم ، حيث أسس عبد الرحمن بن رستم – زعيم الإباضية – « الدولة الرستمية » فى المغرب الأوسط ، وأصبح هذا الزعيم الاباضى ممثلا لنظام حكم مثالى ، عملى لا نظرى ، ملتزم بقواعد الدين الإسلامى .

ولم يقف تأثير قيام الدولة الرستمية فى البناء السياسى للمغرب الإسلامى عند قيامها ، بل ظل قيام هذه الدولة – فى بلاد المغرب وفى المغرب الأوسط بصفة

خاصة – يحدث تأثيره المباشر فى هذا البناء السياسى حتى نهاية القرن الثالث الهجرى . إذ كانت « الدولة الرستمية » تمثل جدارا ضخما فى المغرب الأوسط ، يحمى الأجزاء التى خلفه من أراضى المغرب الأقصى والأندلس ، ومن ثم أتاح ذلك ، للأدارسة ، وبقايا الأمويين ، أن يقيم كل منهم دولته ، فى هدوء وأمن من بطش العباسيين . بل ان المتتبع للأحداث يجد أن قيام الدولة الرستمية كان سببا فى أن منحت الدولة العباسية ، لأسرة الأغالبة حق اقامة دولة لهم فى افريقية ، وكان هدف العباسيين من وراء ذلك ايجاد نوع من توازن القوى فى المنطقة ، يحفظ للخليفة العباسى هيبته وتأمين نفوذه على الأقل فى مصر ، وسيادته الاسمية على افريقية .

واقتضت طبيعة الدراسة أن أقسمها إلى تمهيد وخمسة فصول :

أما التمهيد فعالجت فيه الجغرافية الطبيعية والبشرية للمغرب الأوسط ، وفيه حاولت تحديد المغرب الأوسط ، ومدى ارتباط وضعه الجغرافى بقيام الدولة وتطورها وعلاقاتها مع جيرانها ، كما عالج التمهيد عناصر التكوين السكانى للمغرب الأوسط فى عهد الرستميين .

ويأتى بعد ذلك الفصل الأول وعنوانه « الأحوال السياسية للمغرب الأوسط قبيل قيام الدولة الرستمية » وقد تتبعت فى هذا الفصل أحداث الفتح الإسلامى لبلاد المغرب ، وأحداث عصر الولاة ، وكيف مهدت سياسة الولاة لانتشار الفكر الخارجى ، وما نتج عن ذلك من ثورة البربر . ثم بينت كيف أن انتقال قيادة الصراع فى بلاد المغرب من أيدى الصفرية إلى أيدى الاباضية كان ممهدا لقيام الدولة الرستمية الاباضية .

أما الفصل الثانى فعنوانه : « قيام الدولة »

وقد تناول هذا الفصل نسب الرستميين ، وطلائع صلتهم بالمغرب ، وانتقال عبد الرحمن بن رستم إلى بلاد المغرب ، ثم رحيله إلى البصرة مع حملة العلم ، وعودته من البصرة وظهوره على مسرح الأحداث فى المغرب ، وتحدثت عن التجائه إلى المغرب الأوسط بعد الضربات القوية التى تلقاها الاباضية

من العباسيين ، وكيف استطاع عبد الرحمن بن رستم بقوة شخصيته ، أن يجمع العناصر الاباضية من حوله ويعلن قيام الدولة الرستمية فى المغرب الأوسط سنة (١٦٠ هـ / ٧٧٦ م) .

وفى الفصل الثالث الذى عنوانه : « توطد الدولة الرستمية وازدهارها » .

تتبعت جهود عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم التى قام بها لتوطيد الدولة الرستمية ، وأعقب ذلك حديث عن أفلح بن عبد الوهاب وسياسته الداخلية ، وجهوده فى ردع بعض الثائرين عليه ، ثم دراسة عن ازدهار الدولة الرستمية فى عهده .

وفى الفصل الرابع الذى عنوانه « خلفاء أفلح بن عبد الوهاب » .

تناولت بالعرض والتحليل الحرب الأهلية التى حدثت فى عهد الإمام أبى بكر بن أفلح وجهود أخيه أبى اليقظان فى انهاء هذه الحروب التى انتهت بتوليه منصب الإمامة . وتحدث الفصل عن مكونات شخصية الإمام أبى اليقظان المغربية والمشرقية ، وأثرها فى استقرار الدولة ، وكيف وصل يعقوب بن أفلح إلى الامامة بصفة مؤقتة فى تاهرت . وتعرضت لتدهور الدولة الأمر الذى أدى إلى سقوطها سنة (٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م) .

وفى الفصل الخامس الذى عنوانه : « العلاقات الخارجية للرستميين » .

استعرضت هذه العلاقات على الترتيب مع العباسيين ، ومصر ، والأغالبة ، والأدارسة ، ودولة سجلماسة ، والسودان ، وأخيراً علاقة الرستميين بالأمويين فى الأندلس.

ثم يأتى بعد ذلك الفصل السادس : وهو عن حضارة الدولة وفيه تفصيل عن نظم الحكم والادارة والحياة الاقتصادية والفكرية .

وختاما : أحمد الله تعالى الذى وفقنى وأعاننى على انجاز هذا العمل خالصا لوجهه الكريم انه ولى التوفيق .

د . محمد الحريرى

القاهرة مدينة المهندسين فى : ٦ من صفر ١٤٠٠ هـ
٢٥ ديسمبر ١٩٧٩ م

مقدمـة الطبعـة الثالثـة

أسجدُ لله تعالى شاكراً على نعمه وتوفيقه ورعايته وعونه ، وأدعوه مخلصاً أن يوفقنا لخدمة تراثنا الإسلامى تاريخاً وحضارةً ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

وبعـد ..

أشكر كل من قرأ هذا الكتاب فى طبعته الأولى والثانية ، وزودنى بملاحظاته القيمة ، وأقدم هذه الطبعة الجديدة تحمل دراسة عن تاريخ الرستميين وعلاقاتهم الخارجية ببلدان العالم الإسلامى ، وكذلك دراسة عن حضارتهم فى بلاد المغرب ، وهذه الدراسات وغيرها مما يحتويه الكتاب هى المقدمات الحقيقية للبناء السياسى لبلاد المغرب الإسلامى .

والله ولى التوفيق ..

د. محمد عيسى الحريرى

القاهرة ــ المهندسين : ٢٣ من ذى الحجة ١٤٠٧هـ

١٧ أغسطس ١٩٨٧م

تمهيـــد

الجغرافيا الطبيعية والبشرية للمغرب الأوسط

ديار الرستميين :

قامت دولة الرستميين فى المغرب الأوسط الذى يمثل جزءا من كلمة عامة هى المغرب ، وقد أطلق العرب كلمة المغرب على تلك المساحات الواسعة التى تلى مصر غربا حتى المحيط الأطلسى [1] . ولم تكن بلاد المغرب معروفة بهذا الاسم عند الفاتحين المسلمين حينما زحفت جيوشهم على تلك البلاد [2] . بل أطلق العرب

(١) ابن خلدون : العبر ، دار الكتاب اللبنانى ، سبعة أجزاء ١٩٥٨ ، ج ٦ ، ص ٢٥١ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، ت .ج . س كولان ،ا . ليفى بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، ج ١ ، ص ٥ ، ابن أبى دينار : المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ، ت : محمد شمام المكتبة العتيقة بتونس ، ط . الثالثة ١٣٧٨ هـ ، ص ٢٠ ، اليعقوبى : كتاب البلدان ، مكتبة المثنى ببغداد عن ليدن ١٨٩١ ، ص ٣٤٢ (اتسع معنى لفظ المغرب عند بعض الجغرافيين من أمثال الاصطخرى والمقدسى فشمل المغربُ عندهما كل ما يلى مصر غرباً ابتداء من برقة حتى طنجة والسوس ويدخلان ضمنه بلاد الأندلس ، بل إن مفهوم المغرب اتسع أكثر من هذا عند ابن خرداذبه مثلاً فيسمى كل المناطق الواقعة فى غرب سرمن رأى والتى تقع فى مسير غروب الشمس مغرباً ، والمناطق التى تقع فى شرق سرمن رأى وتقع في مسير شروق الشمس مشرقاً . الإصطخرى : المسالك والممالك ، ت : د . محمد جابر عبد العال الحينى ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ١٩٦١ ، ص ٢٣ ، المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، مكتبة خياط ببيروت ، ص ٢١٦ ، ابن خرداذبه : المسالك والممالك مكتبة المثنى ببغداد ، ص ٤١ ، ٨٤ ، ١١٦) .

(٢) د. حسين مؤنس فتح العرب للمغرب ، مكتبة الآداب بالجماميز ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ١ ، ٢ .

على بلاد المغرب اسم إفريقية الذى كان سائدا إذ ذاك لدى البيزنطيين (٣) .

وبامتداد حركة الفتح الإسلامى إلى ساحل المحيط الأطلسى ومنها إلى بلاد الأندلس أصبح لفظ إفريقية غير كاف لتحديد هذا المجال العظيم الذى انطلق فيه المسلمون . ومن ثم بدأ لفظ إفريقية يتقلص شيئا فشيئا بينما أخذ لفظ المغرب فى الظهور (٤) ، وأصبح مدلول إفريقية قاصرا على الإقليم الذى تتوسطه القيروان (٥) ، والذى يمتد من طرابلس (إطرابلس) شرقا حتى بجاية أو مليانة غربا ، وصارت تعرف إفريقية فيما بعد (٦) .

كما ميز الجغرافيون العرب الأقاليم البعيدة من بلاد المغرب فأطلقوا عليها اسم المغرب أو « المغرب الأقصى » (٧) ، وفى نفس الوقت ظهر مصطلح المغرب الأوسط ، وذلك على نحو ما جاء عند البكرى (٨) ، وأصبح مجرى وادى ملوية

---

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب : ت : عبد المنعم عامر ، لجنة البيان العربى ١٩٦١ ، ص ٢٣٣ ، (إفريقية : بكسر الهمزة وهو اسم لبلاد واسعة ومملكة كبيرة قبالة جزيرة صقلية) ياقوت : معجم البلدان ، طبعة محمد أمين الخانجى ١٩٠٦ ، جـ ١ ، ص ٣٠٠) .

(٤) د . حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، ص ٢ .

(٥) ابن أبى دينار : المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ، ص ١٩ (القيروان : مدينة عظيمة بإفريقية) (ياقوت : معجم البلدان ، ط . الخانجى ، جـ ٧ ، ص ١٩٣) .

(٦) البغدادى : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، ت . على محمد البجاوى ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ط . الأولى ١٩٥٤ م : جـ ١ ، ص ١٠٠ ، ١٠١ .

طَرابُلُس : بفتح أوله وبعد الألف باء موحدة مضمومة ولام أيضاً مضمومة وسين مهملة ، (ياقوت : معجم البلدان ، ط . الخانجى ، جـ ٦ ، ص ٣٤) .

بِجاية : بالكسر وتخفيف الجيم وألف وياء وهاء : مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب (ياقوت : معجم البلدان : ط . الخانجى ، جـ ٢ ، ص ٩٢) .

مِلْيانة : بالكسر ثم السكون وياء تحتها نقطتان خفيفة وبعد الألف نون . مدينة فى آخر إفريقية بينها وبين تنس أربعة أيام) ياقوت : معجم البلدان ، ط . الخانجى ، جـ ٨ ، ص ١٥٥) .

(٧) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، دار المعارف ١٩٦٥ ، ص ١١ ، ١٢ ، أبو عبيد البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، مكتبة المثنى ببغداد ص ٧٦ .

(٨) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

يمثل خط التقسيم الذى يفصل بين المغربين الأوسط والأقصى [٩] . وعلى هذا فالحد الشمالى للمغرب الأوسط الذى صار دارا للرستميين يبدأ من بجاية شرقا إلى وادى ملوية وجبال تازة غربا ، وهذه الواجهة الشمالية للمغرب الأوسط تطل كلها على البحر المتوسط ، وتمتاز بساحلها الصخرى الصلب الذى تتدافع عليه الأمواج التى تزيد من حدتها الرياح الغربية ، بحيث يتعذر على السفن المعادية الاستقرار على الساحل ، وفى نفس الوقت توفرت فى هذا الساحل ظاهرة الخلجان التى أقام عليها الرستميون موانيهم التى ربطت بلادهم ببلاد المغرب والأندلس ، وتمتد هذه الخلجان على هيئة أنصاف دوائر مثل خليج وهران ومستغانم وتنس وشرشال [١٠] .

وتمثل الصحراء الكبرى الحدود الجنوبية للمغرب الأوسط ، وقد ضمت هذه الصحراء كثيرا من العوامل التى سهلت قيام علاقات تجارية وثقافية وطيدة بين الرستميين وجيرانهم فى جهات السودان الغربى إذ حفلت هذه الصحراء بكثير من منابع المياه والواحات التى انتشرت فى أنحائها فمكنت القوافل التجارية من القيام بمهامها الاقتصادية فجنى الرستميون من ورائها أرباحا طائلة ، دعمت أركان دولتهم . وأشهر هذه الواحات والقواعد الصحراوية فى صحراء المغرب الأوسط قاعدة ورجلان [١١] .

---

(٩) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ١٢ — ١٤ .

(١٠) د . إبراهيم العدوى : بلاد الجزائر تكوينها الإسلامى والعربى ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٠ ، ص ١٠ ، دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، ط . أولى ١٩٦٣ ، جـ ٣ ، ص ٥١٧ ، البكرى : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٦ ، ٨١ ، ٨٢ ، أحمد توفيق المدنى : كتاب الجزائر ، المطبعة العربية فى الجزائر ١٣٥٠ هـ ، ص ١٦١ : ٢٤٥ .

وَهْران : بفتح أوله وسكون ثانيه وآخره نون ، مدينة على البر الأعظم من المغرب ، (ياقوت : معجم البلدان ، ط . الخانجى ، جـ ٨ ، ص ٤٣٦) .

مستغانم : مدينة بالقرب من مصب نهر شلف ، البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٩ .

تنس : (ياقوت : معجم البلدان ، ط . الخانجى ، جـ ٨ ، ص ١٥٥) .

شرشال : (لكاتب مراكشى مجهول : الاستبصار فى عجائب الأمصار ، ت . د . سعد زغلول عبد الحميد ، مطبعة جامعة الاسكندرية ، ١٩٥٨ . ص ١٣٢) .

(١١) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ١٦ ، د . إبراهيم العدوى : بلاد =

أما الحدود الشرقية للمغرب الأوسط فتتميز بأنها حدود مفتوحة طبيعيا سهلت اتصال المغرب الأوسط بجهات إفريقية الجنوبية وإقليم طرابلس وجبل نفوسة حيث لا توجد هناك فواصل عرضية تعوق الانتقال بين المغرب الأوسط وبين هذه الجهات (١٢) . وقد منح هذا الوضع الجغرافى الفريد الحركة الإباضية التى انطلقت منها الدولة الرستمية كثيرا من فرص النجاح ، فالمعروف أن هذه الجهات كانت مهداً للدعوة الإباضية قبل قيام الدولة الرستمية ، وما أن فشل دعاة الإباضية فى إقامة دولة لهم هناك ، حتى انتقل كثير منهم إلى المغرب الأوسط ، مستفيدين من هذا الوضع الجغرافى وهناك نجحوا فى إقامة الدولة الرستمية الإباضية ، وكان من الطبيعى بعد قيام هذه الدولة وتأكيد سلطانها فى المغرب الأوسط أن تنضم هذه الجهات إليها وتصبح جزءا منها .

بجانب هذه الحدود الطبيعية التى تمتع بها المغرب الأوسط كانت هناك عناصر السطح المتنوعة التى بسط الرستميون نفوذهم عليها فتمتد فى أراضى المغرب الأوسط سلسلتا الجبال المعروفة باسم أطلس التل وأطلس الصحراء (١٣) . وتحاذى أطلس التل ساحل البحر ، فتقسّم شمال المغرب الأوسط إلى ثلاث مناطق تتباين بعضها عن بعض وهذه المناطق هى المنطقة الساحلية ، وهى منطقة سهول ضيقة غنية كثيرة السكان . ويلى هذه المنطقة : المنطقة التلية وهى الوجه الجبلى من جبال الأطلس الذى يلى البحر وهذه المنطقة أخصب جهات المغرب الأوسط وأغناها من حيث التربة والغابات ومن هاتين المنطقتين خرجت كثير من الحاصلات الزراعية وغيرها عن طريق الموانى الرستمية إلى بلاد الأندلس (١٤)

= الجزائر ، ص ٦١ ، البارونى : الأزهار الرياضية جـ ٢ ، ص ١٨٤ ، ابن خلدون . ط . دار الكتاب اللبنانى جـ ٦ ، ص ١٩٩ ، (وَرْجَلان : بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح الجيم وآخره نون كورة بين إفريقية وبلاد الجريد ضاربة فى البر (ياقوت : معجم البلدان ، ط . الخانجى ، جـ ٨ ، ص ١٤٤) .

(١٢) د . إبراهيم رزقانه : المغرب العربى ، معهد الدراسات الإسلامية . ص ٥ .

(١٣) د . إبراهيم العدوى : بلاد الجزائر . ص ١١ .

(١٤) ابن سعيد المغربى : كتاب الجغرافيا ، منشورات المكتب التجارى بيروت ، ط . أولى ١٩٧٠ ، ص ١٤٢ ، لكاتب مراكشى من كتاب القرن السادس الهجرى : الاستبصار فى عجائب الأمصار ، ت : د . سعد زغلول عبد الحميد ، ص ١٣٣ .

أما المنطقة الثالثة فهى منطقة النجود أو الشطوط وتقع بين سلسلتى جبال الأطلس التلى والصحراوى . وهى منطقة فقيرة التربة قليلة المياه ، لا تسمح للإنسان بدوام الاستقرار لذا فهى قليلة السكان ضعيفة العمران (١٥) .

وتمتد بعد ذلك سلاسل جبال الأطلس الصحراوى وهى تنحدر شديدا نحو الصحراء وتتميز بأنها منابع لبعض المجارى المائية القصيرة التى تغذى عددا من واحات الصحراء (١٦) . وقد ارتبط أهالى منطقة النجود أو الشطوط – التى تقع بين أطلس التل وأطلس الصحراء – ببدو الصحراء أكثر من ارتباطهم بأهل السهل الساحلى وهذا الإقليم ازدهرت فيه المراعى التى أمدت الدولة الرستمية بثروة رعوية لا بأس بها (١٧) كما ساهمت هذه المناطق الجبلية بدورها فى حماية الدولة الرستمية عندما قامت .

مصادر المياه فى المغرب الأوسط :

لم يحظ المغرب الأوسط بعدد كبير من الأنهار ، فأنهاره قليلة صغيرة ، وبعضها لا تكثر فيه المياه إلا فى فصل الشتاء عندما تهطل الأمطار (١٨) . وقد كان لهذه الأنهار أثرها فى ازدهار العمران فى المغرب الأوسط وفى الدولة الرستمية بصفة خاصة حيث أسس عبد الرحمن بن رستم عاصمة دولته على نهر مينة (١٩) .
أشهر أنهار المغرب الأوسط :

١ – **نهر الشلف** : وينبع هذا النهر من جبل وانشريش ويصب ماؤه

---

(١٥) د . إحسان حقى : الجزائر العربية ، منشورات المكتب التجارى ، ط . أولى ١٩٦١ ، ص ١٣ ، أحمد توفيق المدنى : كتاب الجزائر ، ص ١٦٦ .

(١٦) محمد أحمد حسونة : أثر العوامل الجغرافية فى الفتوح الإسلامية ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ، ط . ١٩٦٠ ، ص ٥٣ .

(١٧) نفس المرجع السابق ، ونفس الصفحة .

(١٨) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ١٤ .

(١٩) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ١٦ .

في البحر المتوسط إلى الشرق من مدينة مستغانم [20] .

٢ - نهر سيرات : ويجرى هذا النهر بالقرب من قلعة هوارة ويسقى هذا النهر فحص سيرات الذى يبلغ طوله أربعين ميلا [21] .

٣ - نهر مينة : وهذا النهر يأتى من جهة القبلة لمدينة تاهرت عاصمة الرستميين [22] .

وإلى جانب هذه الأنهار هناك وديان صغيرة يأتيها الماء من العيون أو من قمم الجبال [23] . ومن هذه الأنهار الصغيرة والوديان ذلك النهر الذى يتجمع من عيون تسمى تاتش وعليه يعتمد أهل تاهرت فى شربهم ورى بساتينهم ، ونهر تامسن وهو نهر يأتى من الجبال فى جنوب تنس وعليه تعتمد مزارع تنس التى اشتهرت بزراعة الحبوب كالقمح [24] . وقد ساهمت هذه الأنهار والوديان والعيون فى قيام حياة زراعية هيأت الاستقرار لكثير من المواطنين الرستميين بالإضافة إلى أنها شكلت مصدرا هاما من مصادر رخاء الدولة الرستمية وازدهارها اقتصاديا .

---

(٢٠) ابن سعيد المغربى : كتاب الجغرافيا ، ص ١١٤ ، البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٩ ، (انظر الخريطة) .

(٢١) نفس المصدر السابق ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٢٢) نفس المصدر السابق ، ص ٦٦ .

تاهَرْت : بفتح الهاء ، وسكون الراء ، وتاء فوقها نقطتان : اسم المدينتين متقابلتين بأقصى المغرب يُقال لإحداهما تاهرت القديمة والأخرى تاهرت المحدثة ، بين تلمسان وقلعة بنى حماد (البغدادى : مراصد الاطلاع ، جـ ١ ، ص ٢٥١) .

(٢٤) ابن سعيد المغربى : كتاب الجغرافيا ، ص ١٤٢ ، لكاتب مراكشى : الاستبصار فى عجائب الأمصار ، ت . د . سعد زغلول عبد الحميد ، ص ١٣٣ .

المناخ فى المغرب الأوسط :

ونتيجة لتنوع عناصر السطح فى المغرب الأوسط من سهول ساحلية إلى هضاب وجبال وصحارى ، فقد تنوعت عناصر المناخ المتمثلة فى درجات الحرارة ، وكميات الأمطار ، وكان لهذا النوع أثره الكبير فى تعدد النشاط البشرى لسكان المغرب الأوسط .

فالمنطقة الساحلية ذات طقس معتدل لطيف فى الشتاء خفيف فى الصيف كثير الرطوبة ، كما تشتد الحرارة فى السهول المرتفعة الداخلية (٢٥) ، وفى هاتين المنطقتين تغزر الأمطار فيشتغل السكان بالزراعة ويحيون حياة الاستقرار والتحضر(٢٦) .

أما الأنجاد أو الشطوط فجوها بارد لاذع فى الشتاء شديد الحرارة فى الصيف ويستمر ارتفاع الحرارة كلما تقدمنا نحو الصحراء ، وبالتالى تقل كمية الأمطار حتى تندر أو تكاد تنعدم لذا كان النشاط البشرى الذى يمارسه السكان فى هاتين المنطقتين هو حرفة الرعى التى تفرض عليهم أن يعيشوا حياة التنقل ، والترحال وراء العشب والمراعى (٢٧) .

السكان :

جاء تكوين السكان فى الدولة الرستمية صورة صادقة للتكوين الذى كان سائدا فى بلاد المغرب فى النصف الأول من القرن الثانى الهجرى وتتضح معالم

---

(٢٥) أحمد توفيق المدنى : كتاب الجزائر ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٢٦) يحيى بو عزيز : الموجز فى تاريخ الجزائر ، المطبوعات الوطنية الجزائرية ط . أولى ١٩٦٥ ، ص ٢٠ ، د . جمال الدين الدناصورى (وآخرين) : جغرافية العالم مكتبة الأنجلو المصرية ، جـ ٢ ، ص ١٣٨ .

(٢٧) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة ، د . إحسان حقى الجزائر العربية ، ص ١٣ ، أحمد توفيق المدنى : كتاب الجزائر ، ص ١٧٣ ، د . جمال الدين الدناصورى (وآخرين) جغرافية العالم ، جـ ٢ ، ص ١٣٧ .

هذا التكوين فى انقسام السكان فى الدولة إلى أربعة أقسام هى :

(ا) الأفارقة : وكانوا يشكلون بوجه عام سكان المدن والمراكز القريبة من المدن وهم مزيج من بقايا الأمم التى احتلت بلاد المغرب كالرومان والبيزنطيين ، وبقايا الشعب القرطاجنى القديم وهؤلاء لا يرجع أصلهم إلى البربر ، ولا تجمعهم أصول دموية واحدة ، ولا جد أعلى ينحدرون منه ، وإنما انصهروا فى الحياة الجديدة فى مدن المغرب ، واستقروا فيها وعاشوا مختلطين بمن تحضر من البربر ، وأصبحت تجمعهم هذه الحياة المشتركة من استقرار فى الأرض وارتباط بالمعيشة فهم تجمعهم حياة المدينة وما يتصل بها من أرباض ومزارع هى فى الأغلب جزء منها (٢٨) . وقد عاش أفارقة المغرب الأوسط فى المجتمع الرستمى حياة المواطن العادى من أبناء الدولة . بل إن بعض هؤلاء الأفارقة من المسيحيين كانت لهم منزلة خاصة لدى بعض أئمة الرستميين كأبى بكر بن أفلح (٢٩) .

(ب) العرب : وهم الجند الذين وفدوا إلى بلاد المغرب فى أثناء الفتح الإسلامى لهذه البلاد ، والعرب الذين انتقلوا إلى هذه البلاد بعد تمام الفتح واتخذوا منها موطنا لهم فاستقروا فيها وأقاموا بها ، ومنهم أيضا هؤلاء الذين أرسلهم الخلفاء لبث تعاليم الإسلام ونشره بين سكان البلاد ، يضاف إليهم أيضا هؤلاء الذين لجأوا إلى بلاد المغرب لنشر آرائهم ومبادئهم كالخوارج إذ وجدوا فى هذه الأرض مرتعا خصبا لأفكارهم وآرائهم ، كما أنهم فى هذه الأراضى البعيدة عن دمشق وبغداد يكونون فى أمن من ضربات الخلافة (٣٠) . وقد حظى المغرب الأوسط

---

(٢٨) د . حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، ص ٥ ، د . حسن على حسن : دولة الأدارسة بالمغرب : قيامها وتطورها حتى منتصف القرن الثالث الهجرى ، رسالة ماجستير بكلية دار العلوم ١٩٦٧ ، ص ١٠٠ ؛ د . شكرى فيصل : حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول ، دار العلم للملايين بيروت ، ص ١٨٠ .

(٢٩) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ت : موتلنسكى باريس ، ١٩٠٧ ، ص ٣٦ .

(٣٠) د . حسن على حسن : دولة الأدارسة بالمغرب ، ص ١٠ ، ١١ .

بأعداد كبيرة من هؤلاء الخوارج فكان مسرحا للدعوة الإباضية . ومن ثم كان المغرب الأوسط فى نظر عبد الرحمن بن رستم أنسب الأماكن لتأسيس دولة إباضية به . وقد ظل هؤلاء العرب فى مجتمع الدولة الرستمية على حالهم يمثلون طبقة معروفة لدى الجميع فكان يطلق عليهم العرب (٣١) .

(حـ) العجم : وهم الفرس الذين جاءوا إلى بلاد المغرب مع الجيوش الخلافية لإخماد ثورات البربر (٣٢) . وهؤلاء ظلوا متميزين عن غيرهم من العرب ، وكان يطلق عليهم اسم العجم ، وكان لهؤلاء العجم دور كبير فى أحداث الدولة الرستمية فى عهد الإمام أبى بكر بن أفلح وأخيه أبى اليقظان ، كذلك فى عهد الإمام أبى حاتم يوسف بن محمد ، وقد أطلق عليهم ابن الصغير الذى عاصر أحداث الدولة الرستمية وأرخ لها اسم العجم (٣٣) .

(د) البربر (٣٤) : وهم السكان الأصليون لبلاد المغرب وهم يمثلون الغالبية العظمى فى التكوين السكانى للمغرب الأوسط وقد رحب هؤلاء البربر بالمبادئ التى حملها إليهم عبد الرحمن بن رستم واعتنقوها . وكانوا العنصر الأساسى الذى

---

(٣١) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ .

(٣٢) النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، جـ ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ١٩ (فيذكر النويرى إن جيش محمد بن الأشعث الذى أوفده أبو جعفر المنصور تضمن ثلاثين ألف فارس من أهل خرسان ، نفس المصدر السابق ، ونفس الورقة) .

(٣٣) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٥٢ .

(٣٤) (البربر اسم أطلقه الرومان على سكان المغرب لأنهم كانوا ينظرون للبربر على أنهم أعاجم على حضارتهم ولذلك سموهم (البرابرة) . وجاء العرب فاستخدموا هذه التسمية بعد أن عربوها إلى (بربر أو برابر) . وما أن جاء القرن الرابع الهجرى حتى دونت أنساب البربر بالعربية ، وأصبحت هذه الأنساب علماً مثل أنساب العرب ، بل إن نسابة البربر اتخذوا من شجرة الأنساب العربية التى تقسم العرب شعبين كبيرين ينحدران من عدنان وقحطان – نموذجاً يحتذى فى تقسيم قبائل البربر إلى مجموعتين كبيرتين هما : البتر والبرانس وإن اختلفوا فيما بينهم حول انتماء المجموعتين (البتر والبرانس) إلى جد واحد أم لا ، د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٤ ، ٢٥ ، د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ط . ١٩٦٦ ، ص ١٣٣ (العصر الإسلامى) .
Julien, Hist. de L'Afrique du Nord (DE LA CONQUETE ARABE A 1830) P. 10)

اعتمد عليه عبد الرحمن بن رستم فأقام دولته بينهم .

ويتقسم البربر من الوجهة الاجتماعية إلى مجموعتين مختلفتين : البربر الحضر وهؤلاء يسكنون السهول الخصبة والمدن والهضاب المزروعة ، وكانوا يتصلون اتصالا قويا بالحضارة القرطاجنية واللاتينية ويعتمدون فى معيشتهم على الزراعة والصناعة ، والبربر الرحل وهؤلاء يعيشون على الرعى ويميلون إلى الإغارة على السهول وما يجاورهم من جهات العمران (٣٥) .

وقد تحدث ابن خلدون عن هاتين المجموعتين فقال : « هذا الجيل من الآدميين هم سكان المغرب القديم ملأوا البسائط والجبال من تلوله وأريافه وضواحيه وأمصاره ، ويتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ومن الشعر والوبر . يظعن أهل العز منهم والغلبة لانتجاع المراعى فيما قرب من الرحلة ، لا يجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفر الأملس ومكاسبهم الشاء والبقر والخيل للركوب والنتاج وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب ومعاش المستضعفين منهم بالفلح ودواجن السائمة . ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والإظعان فى نتاج الإبل وظلال الرماح وقطع السابلة ولباسهم وأكثر أثاثهم من الصوف يشتملون الصماء بالأكسية المعلمة ، ويفرغون عليها البرانس الكحل ورءوسهم فى الغالب حاسرة وربما يتعهدونها بالحلق ولغتهم من الرطانة الأعجمية متميزة بنوعيها ، وهى التى اختصوا من أجلها بهذا الاسم (البربر) » (٣٦) .

وابن خلدون فى هذا النص يفرق بين أسلوب البربر الحضر وهؤلاء أطلق عليهم المؤرخون اسم البرانس ، أما البربر الرحل فأطلقوا عليهم اسم البتر (٣٧) .

---

(٣٥) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ١٣٥ ، د . حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٦ .

(٣٦) ابن خلدون : العبر ، ط . دار الكتاب اللبنانى ، جـ ٦ ، ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٣٧) نفس المصدر السابق ، ص ١٧٦ ، السلاوى : الاستقصا ، جـ ١ ، ص ٣١ .

وقد حاول النسابة إرجاع هذه التسمية إلى الأصول الأولى التى ينتمى إليها البربر ، فقالوا : « إن البربر ، يجمعهم جذمان عظيمان وهما برنس ومادغيس ويلقب بالأبتر فلذلك يقال لشعوبه البتر ويقال لشعوب برنس البرانس »(٣٨) .

ورغم هذا الانقسام إلى بتر وبرانس فقد كان لكل من الفريقين دوره فى الدولة الرستمية وفق ما هيأته طبيعة حياته التى يمارسها للقيام به . وأهم قبائل البتر التى ساهمت فى قيام الدولة ودعمت أركانها .

١ — نفوسة من بنى مادغيس أبو البتر (٣٩) .

٢ — لواتة وهى بطن من بطون لوا الأكبر من مادغيس الأبتر ومن لواتة كانت مزاتة وسدراتة (٤٠) .

٣ — لماية وهى من ولد تمصيت بن ضرى بن زحيك بن مادغيس الأبتر (٤١) .

أما البرانس فكانت قبائل هوارة الوحيدة من بين قبائل هذا الفرع من البربر التى شاركت فى تأسيس الدولة الرستمية ودعمت أركانها .

---

(٣٨) ابن خلدون : العبر ، ط . دار الكتاب اللبنانى ، جـ ٦ ص ١٧٦ .

(٣٩) ابن خلدون : العبر ، ط . دار الكتاب اللبنانى ، جـ ٦ ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ .
(**نَفُوسة** : بالفتح ، ثم بالضم ، والسكون ، وسين مهملة) للبغدادى : مراصد الإطلاع جـ ٣ ، ص ١٣٨ .

(٤٠) نفس المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ .
(**لَواتة** : بالفتح والتاء مثناة : قبيلة من البربر) البغدادى : مراصد الإطلاع ، جـ ٣ ، ص ١٢١) .
مزاتة : (ابن خرداذبة . المسالك والممالك ، مكتبة المثنى ببغداد ، ص ٩٠) .
سدراتة : مواطنها بالمغرب الأدنى فى شمال الأوراس وجنوبه ، (**دبوز** : تاريخ المغرب الكبير جـ ٣ ، ص ٧٩) .

(٤١) د . سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربى ، ص ٣٩ ، ٣٠ ، ابن خلدون . العبر ، ط . دار الكتاب اللبنانى ، جـ ٦ ، ص ١٨٠، ١٨١ . ،
لَمَاية : (تاريخ المغرب الكبير ، جـ ٣ ، ص ٢٥٧) .

الفصل الأول

الأحـوال السياسية للمغرب الأوسـط
قبيل قيام الدولة الرستمية

الفصل الأول

الأحـوال السياسية للمغرب الأوسط قبيل قيام الدولة الرستميـة

(ا) الفتح الإسلامى لبلاد المغرب :

تركزت المحاولات الأولى للفتح العربى فى بلاد المغرب – منذ خلافة عمر بن الخطاب وحتى قيام الدولة الأموية – فى منطقتى برقة وإفريقية فقط . ولم تكن هذه المحاولات سوى غارات سريعة لم يحظ المغرب الأوسط بشئ منها ولذا لم تحقق هذه الغارات للمسلمين استقرارا يتمكنون عن طريقه تعريف أهل البلاد بالإسلام وما يحمله من مبادئ سامية ونظم متكاملة ، كما أن هذه الغارات لم تقض على مقاومة الروم (البيزنطيين) التى تعتبر عقبة كبيرة فى سبيل انتشار الإسلام وتثبيت دعائم الفتح .

لذلك فقد كان على الخلافة الأموية – بعد أن استتبت الأمور فى يد معاوية بن أبى سفيان بسنة (٤١ هـ / ٦٦١ م) أن تتبنى سياسة جديدة تستهدف الفتح المنظم لبلاد المغرب(١) .

وكانت البادرة الأولى فى هذه السياسة الأموية أن ولى معاوية بن أبى سفيان عقبة بن نافع قيادة عمليات الفتح فى بلاد المغرب سنة

---

(١) د . محمد حلمى محمد أحمد . الخلافة والدولة فى العصر الأموى . القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٢٥٧ .

(٥٠ هـ / ٦٧٠ م) وأمده بعشرة آلاف فارس [٢] ، فكان ذلك بداية مرحلة جديدة هى مرحلة الفتح المنظم لبلاد المغرب ، وامتداد تلك الفتوح خاصة إلى بلاد المغرب الأوسط .

حملة عقبة بن نافع الأولى (٥٠ هـ / ٦٧٠ م) .

رأى عقبة – فى أثناء حملاته على بلاد المغرب – أن فتح تلك البلاد ، ينبغى أن يتم فى إطار خطة عامة تقوم على تأسيس قاعدة ثابتة يستقر فيها المسلمون ، ثم يتابعون منها الغزو ونشر الإسلام [٣] . ووقع اختيار عقبة على مكان لهذه القاعدة التى سماها القيروان ، وشرع فى بنائها بعد أن فرغ من فتح إفريقية وقضى على مقاومة الروم (البيزنطيين) والبربر بها سنة (٥٠ هـ / ٦٧٠ م) [٤] .

وتجلت عبقرية عقبة الحربية فى اختيار موضع القيروان . فموقعها على عتبة إقليم نوميديا يجعلها مفتاحا لبلاد المغرب الأوسط وما يليها من أراضى المغرب الأقصى [٥] . ثم إن بعدها عن الساحل يجعلها فى مأمن من غارات الروم المفاجئة . وأخيرا فإن قربها من السبخة يتيح لإبل المسلمين أن تكون آمنة

---

(٢) النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط جـ ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ٥ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ط . دار صادر ودار بيروت ١٩٦٥ ، جـ ٣ ، ص ٤٦٥ .

(٣) (ظهر عقبة بن نافع على مسرح أحداث الفتح الإسلامى لبلاد المغرب . حين عهد إليه عمرو ابن العاص بحملة لفتح فزان ، كما أصبح عقبة أميراً على إفريقية من قبل عمرو بن العاص وذلك سنة ٢٣ هـ . وفى سنة ٤١ هـ استعمله عمرو بن العاص على إفريقية فغزا لواته ومزاته وافتتح غدامس سنة ٤٢ هـ وفى سنة ٤٣ هـ غزا عقبة بعض كور السودان وودان ، وظل عقبة مقيماً فى برقة وزويلة حتى استعمله معاوية ابن أبى سفيان ، د . حسين مؤنس . فتح العرب للمغرب ص ١٣٠ ، ١٣١) .

(٤) الدباغ : معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان ، ت . إبراهيم شبوح . مكتبة الخانجى . ١٩٦٨ ، جـ ١ ، ص ٨ .

(٥) د . إبراهيم العدوى : بلاد الجزائر . ص ٨٩ ، ص ٩٠ .

فى مراعيها من اعتدات البربر والنصارى عليها (٦) وقد أوضح عقبة هدفه لجنوده من تأسيس القيروان حين قال لجنوده :

« فإذا فرغنا منها لم يكن لنا بد من الغزو والجهاد حتى يفتح الله لنا منها (أى بلاد المغرب) الأول فالأول » (٧) .

وانشغل عقبة بتأسيس القيروان أربع سنوات ، أو تزيد قليلا (٨) . تغيرت خلالها الأمور فى بلاد المغرب ، وأصبحت الأوضاع تقتضى تغييرا فى القيادة العليا الإسلامية هناك وكان مسلمة بن مخلد – والى مصر – أول من أحس – لقربه من بلاد المغرب – أن الأمور تتغير فى تلك البلاد لغير صالح المسلمين نتيجة للسياسة الجديدة التى اتبعها فى تلك البلاد الإمبراطور قسطنطين الرابع ، إذ أصدر هذا الإمبراطور أوامره بمنع الاضطهاد الدينى بأهالى المغرب أملا فى تكوين جبهة داخلية قوية لمقاومة المسلمين ، تضم الروم مع بربر المغرب الأوسط ، وبخاصة قبيلة أوربة ، والقبائل البدوية الخاضعة لها (٩) . وأمام هذه التطورات سعى مسلمة بن مخلد فى عزل عقبة عن القيادة العليا فى المغرب ، وتولية دينار أبى المهاجر سنة (٥٥ هـ / ٦٧٦ م) (١٠) .

دينار أبو المهاجر (٥٥ هـ / ٦٧٦ م) .

قدم دينار أبو المهاجر إلى إفريقية فى هذه الظروف الجديدة من تحالف

---

(٦) الدباغ : معالم الإيمان ، جـ ١ ، ص ٩ ، ابن عذارى : البيان المغرب . جـ ١ ص ١٩ ، ٢٠ .

(٧) المصدر السابق ، نفس الصفحات .

(٨) د . محمد حلمى محمد أحمد : الخلافة والدولة فى العصر الأموى ، ص ٢٥٩ .

(٩) د . السيد عبد العزيز سالم . المغرب الكبير ، ص ٢٠٩ . (العصر الإسلامى) .

Diehl, ch. L'Afrique Byzantine (1896), p. 576 .

(أوْرَبة : بالفتح ثم السكون وفتح الراء والباء موحدة وهاء . قبيلة من البربر مساكنهم قرب فاس (ياقوت : معجم البلدان . طبعة الخانجى ، جـ ١ ، ص ٣٧١) .

(١٠) د . إبراهيم العدوى . بلاد الجزائر ، ص ٩١ ، ٩٢ .

البيزنطيين مع البربر وأجمعت معظم المصادر على أنه عزل عقبة وأخرجه إلى المشرق فى حراسة مشددة (١١) ثم انتهج دينار أبو المهاجر لنفسه سياسة جديدة قوامها التقرب إلى البربر لضرب تحالفهم مع البيزنطيين فأمر الناس بإخلاء القيروان والاتجاه إلى عمارة بلدة اسمها تيكروان (١٢) ، وأراد بذلك أن يظهر تقربه إلى البربر ليفند على الروم (البيزنطيين) مخططاتهم التى تقوم على غرس العداوة والسخط فى نفوس البربر تجاه المسلمين ، ونجح أبو المهاجر بعد ذلك فى نقل مسرح عملياته العسكرية إلى المغرب الأوسط ، فقد رأى أن المنطقة الواقعة بين تاهرت ووهران والتى تتوسطها تلمسان أصبحت مقر نشاط التحالف البيزنطى البربرى الجديد (١٣) ، وبات الهجوم عليها أمرا ضروريا ، فخرج بجيشه حتى وصل إلى تلمسان ، وهناك اصطدم بالبربر وهزمهم وظفر بكسيلة زعيم أوربة ، وبكياسة دينار وحسن سياسته استطاع اجتذاب كسيلة إلى الدخول فى الإسلام (١٤) ، هو وعدد كبير من البربر فكانت هذه صفحة جديدة فى تاريخ انتشار الإسلام فى المغرب الأوسط..

وفى سنة (٥٩ هـ / ٦٧٨ م) اتجه أبو المهاجر دينار إلى قرطاجنة التى

---

(١١) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٢١ - ٢٢ .

(١٢) ابن أبى دينار : المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ، ت . محمد شمام ، ص ٢٩ .

(١٣) د . إبراهيم العدوى : الأمويون والبيزنطيون ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٢٤٠ ، د . حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١٦٦ .

(تِلِمْسان : بكسرتين وسكون الميم وسين مهملة ، (ياقوت : معجم البلدان ، طبعة الخانجى جـ ٢ ، ص ٤٠٨) .

(١٤) ابن خلدون : العبر ، ط . دار الكتاب اللبنانى ببيروت ، جـ ٤ ، ص ٣٩٩ . ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

Mercier, F., Histoire de L'Frique Septerionale (1888), p. 204 .

تمثل أقوى معاقل الروم فى الشمال الإفريقي وحاصرها حصارا شديدا ، ولم يرفع الحصار عنها إلا بعد أن تنازل الروم عن جزيرة شريك ، التى اتخذها أبو المهاجر مركزا لمراقبة الروم ومعرفة تجمعاتهم وتحركاتهم (١٥) .

بعد ذلك اتجه أبو المهاجر إلى ميلة وافتتحها وأقام بها سنتين : عاد بعدهما إلى مقره فى تيكروان بعد أن حقق أهدافه فى المغرب الأوسط (١٦) .

ولاية عقبة بن نافع الثانية (٦٢ هـ / ٦٨٢ م) .

أثمرت جهود أبى المهاجر دينار فى المغرب الأوسط ، فقد عرف كثير من أهله الإسلام ودخلوا فيه ، ولكن عقبة بن نافع كان قد استطاع فى ذلك الوقت إقناع السلطات المركزية فى دمشق بالعودة إلى القيادة العليا فى بلاد المغرب بدلا من دينار أبى المهاجر وحضر عقبة إلى القيروان سنة (٦٢ هـ / ٦٨١ م) (١٧) مؤمنا بسياسته القديمة ، ورفض تماما سياسة أبى المهاجر التى كانت تقوم على استمالة البربر وتحبيبهم فى الإسلام ، فلم يكد عقبة يتسلم زمام الأمور حتى أعد العدة لغزو بلاد المغرب بكاملها . فاستخلف زهير ابن قيس البلوى على القيروان وحمل معه أبا المهاجر دينار مكبلا بالحديد انتقاما

---

(١٥) د . محمد حلمى محمد أحمد : الخلافة والدولة فى العصر الأموى ، ص ٢٦٢ .

(**قرْطاجَنّة** : بالفتح ثم السكون وطاء مهملة وجيم ونون مشددة ، ياقوت : معجم البلدان ، ط . الخانجى ، جـ ٧ ، ص ٥٢) .

جزيرة شريك : بفتح الشين المعجمة وكسر الراء وياء ساكنة وكاف ، كورة بإفريقية بين سوسة وتونس ، ياقوت : معجم البلدان ط . الخانجى : جـ ٣ ، ص ٩٩ .

(١٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومى ١٩٦٣ ، جـ ١ ، ص ١٥٢ .

مِيْلة : بالكسر ثم السكون ولام ، مدينة صغيرة بأقصى إفريقية (ياقوت : معجم البلدان ، طبعة الخانجى ، جـ ٨ ، ص ٢٢٦) .

(١٧) د . حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، ص ١٧٨ - ١٧٩ .

منه (١٨) . واندفع بقواته يحرز النصر تلو النصر حتى وصل إلى السوس الأقصى بعد أن خاض معارك ضارية فى باغاية ، ولميس والزاب ، وتاهرت (١٩) وقد أظهرت هذه المعارك أن البيزنطيين عادوا إلى التحالف مع جماعات البربر المعروفة باسم (البرانس) ، لتكوين جبهة للمقاومة فى المغرب الأوسط (٢٠) .

ذلك أن عقبة لم يبدأ من حيث انتهى أبو المهاجر دينار ، وبذلك فقد عنصرا هاما من عناصر النجاح حيث أعطى تشدده مع البربر وخاصة كسيلة فرصة للروم (البيزنطيين) ليجددوا ما كان بينهم وبين البربر من تحالف ليصبحوا جبهة مقاومة واحدة ضد المسلمين تضرب ضربتها فى الوقت المناسب وفضلا عن ذلك فإن عقبة وقع فى تأثير الإغراء الجغرافى لامتداد المغربين الأوسط والأقصى فتقدم بقواته دون أن يوفر لها حماية بحرية (٢١) ، ودون أن يضع لنفسه خطة مرسومة محددة الأهداف تؤمن ظهر قواته فى تقدمها ورجوعها ، وترك جيوبا كثيرة للأعداء

---

(١٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٢٣ ، ابن أبى دينار : المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ، ت : محمد شمام ص ٣٠ .

(١٩) الدباغ : معالم الإيمان : إبراهيم شبوح ، جـ ١ ، ص ٤٨ - ٤٩ .
النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط ، جـ ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ٦ ،
السلاوى : الاستقصا ، جـ ١ ، ص ٣٨ ، مع اختلاف طفيف بين الروايات ،
(السوس الأقصى : كورة مدينتها طرقلة) ، (ياقوت : معجم البلدان ، ط . الخانجى ، جـ ٥ ، ص ١٧١ - ١٧٢) .
باغاية : الغين معجمة وألف وياء مدينة كبيرة فى أقصى إفريقية بين مجانة وقسنطينة الهواء (ياقوت : معجم البلدان ، ط . الخانجى ، جـ ٢ ، ص ٤١) .
لميس : موضع بينه وبين مطماطة أمسكور على وادى ملوية مرحلة (البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب - ١٤٧) .
الزاب : بعد الألف باء موحدة (ياقوت : معجم البلدان : ط . الخانجى ، جـ د ، ص ٣٦٣) .

(٢٠) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٢٤ - ٢٥ ،
د . حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب . ص ١٨٢ - ١٨٣ ، ١٨٩ .

(٢١) د . إبراهيم العدوى : موسى بن نصير مؤسس المغرب العربى . أعلام العرب العدد ٦٨ ، ص ٣٦ .

يتحصنون بها خلف ظهره ، تجمعت هذه الجيوب بعد ذلك وقضت عليه فى يسر وسهولة (٢٢) .

اعتقد عقبة عندما وصل إلى شاطئ المحيط أن عملياته الحربية قد انتهت فارتد بسرعة إلى إفريقية حتى إذا وصل إلى مدينة طبنة أحس بتواطؤ الروم مع البربر ، حيث طمروا آبار المياه فى طريق عودته ولذا أمر جنوده أن يتقدموا فوجا بعد فوج إلى القيروان ، وسار هو إلى تهوذة لحراسة مؤخرة جنده (٢٣) . فلما توسط البلاد بعث الروم إلى كسيلة الأوربى الذى كان ضمن قوات عقبة ، وكان قد ضاق ذرعا بسوء معاملة عقبة له ، يقول ابن خلدون : « وكان كسيلة ملك أوربة والبرانس مع البربر قد اضطغن عليه (عقبة بن نافع) بما كان يعامله به من الاحتصار يقال إنه كان يحاصره كل يوم ويأمره بسلخ الغنم إذا ذبحت لمطبخه » (٢٤) . وكانت هذه فرصة عظيمة لكسيلة لينتقم من عقبة وها هو ذا يجد الروم يراسلونه ، بعد أن وصلتهم إمدادات كثيرة عن طريق البحر ، فاتفق كسيلة معهم ، واعترضوا عقبة فى تهوذة وقتلوه هو وثلاثمائة من أصحابه من بينهم دينار

(٢٢) د . حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ ، (وعبارة المؤرخين القدامى توضح هذا الإهمال من جانب عقبة فقد كره أن يقيم على حصار الروم فى حصونهم التى كانوا يهربون إليها . فكان يترك هذه الحصون ممتلئة بالعباد والفرسان ويتقدم إلى غيرها دون تطهيرها . انظر الدباغ : معالم الإيمان ، ت . إبراهيم شبوح ، جـ ١ ، ص ٤٨ ، ٤٩ ، النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط ، جـ ٢٢ ، القسم الأول . ورقة ٦ . ابن عذارى : البيان المغرب . جـ ١ . ص ٢٤) .

(٢٣) النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط ، جـ ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ٧ . ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ، ص ١٠٦ .

(**طُبْنَة** : بضم أوله ثم السكون ونون مفتوحة ، بلدة فى طرف إفريقية على ضفة الزاب (ياقوت : معجم البلدان . ط . الخانجى ، جـ ٦ ، ص ٢٨) .

تُهُوذة : بالفتح ثم الضم وسكون الواو والذال معجمة اسم لقبيلة من البربر بناحية إفريقية لهم أرض تُعرف باسم تهوذة) (ياقوت : معجم البلدان . ط . الخانجى جـ ٢ ، ص ٤٣٨) .

(٢٤) ابن خلدون : العبر ، طبعة دار الكتاب اللبنانى بيروت ، جـ ٦ ، ص ٣٩٩ .

أبى المهاجر سنة (٦٤ هـ / ٦٨٤ م) [٢٥] .

وتطورت الأمور فى القيروان بسرعة فقد وصلتها أنباء مذبحة تهوذة فكان لها وقع سيئ على المسلمين وعظم البلاء عليهم ، وكان الجند العائدون قد نالهم التعب والإرهاق ولذلك فضلوا العودة إلى المشرق وترك القيروان ، وكان على رأسهم حنش الصنعانى قائد حامية جزيرة [٢٦] شريك . وينقل ابن عذارى الحوار الذى دار بين زهير بن قيس وحنش الصنعانى حين قام زهير خطيبا فى الناس يدعوهم إلى القتال دفاعا عن القيروان : « فقام زهير بن قيس خطيبا فى الناس فقال : يا معشر المسلمين : إن أصحابكم قد دخلوا الجنة وقد من الله عليهم بالشهادة فاسلكوا سبيلهم : ويفتح الله لكم دون ذلك ! فقال حنش الصنعانى : لا ! والله ما نقبل قولك ، ولا لك علينا ولاية ! ولا عمل أفضل من النجاة بهذه العصابة من المسلمين إلى مشرقهم ! ثم قال يا معشر المسلمين ! من أراد منكم القفول إلى مشرقه فليتبعنى فاتبعه الناس ولم يبق مع زهير إلا أهل بيته [٢٧] .

ووجد زهير نفسه فى موقف بالغ الحرج ، ففضل الانسحاب بعد أن رأى أن ما معه من الرجال لا يكفى للوقوف فى وجه كسيلة ، ومضى زهير حتى وصل إلى برقة ، بينما واصل كسيلة المنتصر زحفه إلى القيروان فاستولى عليها « وبها أصحاب الأثقال والذرارى من المسلمين فطلبوا الأمان من كسيلة فأمنهم » [٢٨] وظل كسيلة يحكم القيروان حتى سنة (٦٩ هـ / ٦٨٨ م) .

---

(٢٥) نفس المصدر السابق ، ص ٤٠٠ ، د . إبراهيم العدوى : بلاد الجزائر ، ص ٩٨ ، أرشيبا لدلويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، مكتبة النهضة المصرية ، ص ٩٨ .

(٢٦) د . حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، ص ٢٠٥ .

(٢٧) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٣١ ، السلاوى : الاستقصا جـ ١ ، ص ٣٩ .

(٢٨) النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط ، جـ ٢٧ ، القسم الأول ورقة ٧ .

(٢٩) د . سعد زغلول عبد الحميد . تاريخ المغرب العربى . ص ١٧٠ - ١٧٢ .

وعلى الرغم من فشل حملة عقبة فى تحقيق أهداف سياسية (٣٠) إلا أنها كانت موجة من موجات المد الإسلامى حملت الإسلام إلى آفاق جديدة بدأت تدخل الإسلام شيئاً فشيئاً ، ولا شك أنها تركت آثارها فى المغرب الأوسط فقد ظهرت فيه عناصر إسلامية جديدة وبخاصة بين القبائل البدوية (البتر) التى أعلنت العصيان على كسيلة ورفضت الانصياع له . ولذلك آثر كسيلة ألا يتعرض لهذه القبائل لينعم بشئ من الاستقرار فى القيروان (٣١) .

زهير بن قيس البلوى (٦٩ هـ / ٦٨٨ م) .

أقام كسيلة بالقيروان خمس سنوات ، كانت الخلافة الأموية خلالها مثقلة بمشاكلها الكثيرة ، وخاصة ثورة عبد الله بن الزبير فى الحجاز ، وحركة المختار بن أبى عبيد الثقفى بالعراق (٣٢) .

ولكن ما أن ولى الخلافة عبد الملك بن مروان سنة (٦٥ هـ / ٦٨٤ م) حتى كتب إليه زهير بن قيس البلوى يستنهضه لتخليص إفريقة وتحرير من بها من المسلمين من يد كسيلة (٣٣) . ورأى عبد الملك بن مروان بثاقب فكره أن استرداد إفريقية أمر حيوى يعيد للجيوش الإسلامية هيبتها فى الجناح الغربى للدولة ، فاستشار وزراءه ، واستقر رأى الجميع على اختيار زهير بن قيس نفسه نظرا لما يتمتع به من خبرة فى الميدان الإفريقى وشئونه ، وأمده عبد الملك بن مروان بجيش كثيف وأمره بالتوجه إلى إفريقية ، فتقدم إليها زهير بقواته سنة ٦٩ هـ (٣٤) . وبلغ كسيلة خبر تقدمه ، فخشى البقاء فى القيروان لأن بها

---

(٣٠) د . حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٣١) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٢٧ ، د . إبراهيم العدوى : بلاد الجزائر ، ص ٩٩ .

(٣٢) المرجع السابق ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٣٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٣١ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ١٠٨ .

(٣٤) الدباغ : معالم الإيمان ، ت : إبراهيم شبوح ، جـ ١ ، ص ٥٧ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٣١ .

خلقا كثيرا من المسلمين ، كما أنها محاطة بطوائف البربر الموالين للعرب وهؤلاء ولا شك سينقلبون عليه ، فيكون قد أوقع نفسه بين شقى الرحى لذلك فضل أن تكون أرض المعركة فى « ممس » (٣٥) التى تقع بحصنها على هضبة تتصل بجبال الأوراس ، وهذا يسهل عليه الحصول على العتاد والمؤن والماء ولأن طبيعة المنطقة الجبلية تمكنه من الهرب إلى موطنه إذا هزم أمام زهير (٣٦) .

وصل زهير إلى القيروان ، وأقام بظاهرها ثلاثة أيام ، فأراح جنده واستراح وفى اليوم الرابع تقدم للقاء كسيلة ، ودارت بينهما معركة عنيفة ، أحكم فيها زهير حصار كسيلة . حتى أصبح فراره شيئاً مستحيلا فهزم ولقى مصرعه ، وأمعنت قوات زهير فى طلب الفارين من أتباع كسيلة ومطاردتهم حتى وادى ملوية (٣٧) . ويذكر المالكى وابن أبى دينار أن زهيرا اتجه بعد قضائه على كسيلة إلى الشمال ففتح شقبنارية ، وباجة وبعض القلاع الأخرى (٣٨) .

وهكذا كان لجهود زهير نتائج خطيرة أثرت فى مجريات الأحداث بعد ذلك ، فقد نجح العرب فى استرداد المغرب الأوسط وضمه إلى حوزتهم ، وكسروا شوكة أوربة البرانس حليفة الروم ، فتركت أوربة المغرب الأوسط لتستقر حول مدينة وليلى بالمغرب الأقصى (٣٩) فكان ذلك إيذانا بخروج بربر البرانس من حلبة الصراع القائم فى المغرب .

---

(٣٥) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ١٠٩ (يذكر ابن الأثير أن اسمها ممش) .

(٣٦) د . حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، ص ٢٢١ .

(٣٧) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٣٢ ، السلاوى : الاستقصا ، ج ١ ، ص ٤٢ .

(٣٨) المالكي : رياض النفوس ، ت . د . حسين مؤنس ، ص ٣٠ ، ابن أبى دينار : المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ، ت . محمد شمام ، ص ٣٣ .

(شقبنارية : بعد القاف باء موحدة وبعد الألف نون وبعد الألف الأخرى راء أماكن بإفريقية) ، (ياقوت : معجم البلدان ، طبعة الخانجى ، جـ ٢ ، ص ٢٥) .

(٣٩) السلاوى : الاستقصا ، جـ ١ ، ص ٤٢ .

ولم يهدأ الروم منذ وصلت أنباء انتصارات زهير بن قيس فى إفريقية والمغرب الأوسط إلى مسامعهم فى القسطنطينية ، وأخذوا يدبرون شيئاً فى الخفاء ، فأبحرت مراكبهم بأعداد كثيرة من قواعدها فى صقلية وشنت سلسلة من الاغارات البحرية شملت المناطق الشرقية المتاخمة لبرقة ورأى زهير ضرورة مطاردة هذه الغارات والقضاء عليها وعلى نشاطها وأن ذلك خير له من الإقامة فى القيروان ، وعند وصوله إلى برقة استطاع الروم إيقاعه هو ونفر قليل من جنده فى كمين أعدوه له على الساحل وتكاثروا عليه فاستشهد هو ومن معه فى ساحة النضال ، وسجل الروم على أنفسهم غدراً لا يقل شراسة عما فعلوه مع عقبة فى تهوذة (٤٠) .

ولم تستطع الخلافة الأموية فى هذه الآونة أن تواصل اهتمامها بشئون المغرب لأن جيوشها كانت تخوض المعارك الفاصلة مع عبد الله بن الزبير فى العراق والحجاز ، ومع الخوارج فى فارس واليمامة (٤١) وكان ذلك سبباً فى فترة من الشغور الحربى فى المغرب امتدت من سنة (٧١ هـ / ٦٩٠ م) إلى سنة (٧٦ هـ / ٦٩٦ م) انتهت حين استطاع عبد الملك بن مروان التغلب على ابن الزبير سنة (٧٣ هـ / ٦٩٢ م) ، فأرسل حسان بن النعمان على رأس قوات ضخمة لإقرار الأوضاع بالمغرب واستكمال فتحه .

حسان بن النعمان (٧٦ هـ / ٦٩٦ م) .

حمل حسان بن النعمان عبء المرحلة الجديدة فى فتح بلاد المغرب ، وقد عمل عبد الملك بن مروان على تجهيزه بجيش كبير يذكر المؤرخون أن المسلمين لم يدخلوا إفريقية بمثله ، فقد بلغ عدده أربعين ألفاً تحملت خزانة مصر تكاليف

---

(٤٠) النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط ، جـ ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ٨ ، ابن خلدون : العبر ، ط . دار الكتاب اللبنانى ، جـ ٤ ، ص ٤٠٠ ، د . إبراهيم العدوى بلاد الجزائر ، ص ١٠٥ .
Fournel, H., Etude Sur Ia Gonquéte de L'Afrique par les Arabes, p. 28, 29.

(٤١) د . ضياء الدين الريس : عبد الملك بن مروان موحد الدولة العربية ، أعلام العرب العدد ١٠ ، ص ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٥٣ .

إعدادهم وتجهيزهم بأنواع الأسلحة والمعدات (٤٢) . تقدم حسان بهذا الجيش ، فاخترق برقة وطرابلس ووصل إلى القيروان دون أية مقاومة ، وتمكن حسان أن يحرز نصراً كبيراً على الروم فهزمهم فى قرطاجنة وصطفوزة وبنزرت ، وفرت بقاياهم إلى صقلية والأندلس (٤٣) .

وبعد أن أحرز حسان بن النعمان هذه الانتصارات اضطر إلى خوض غمار معركة مع قبيلة جراوة التى قادتها امرأة تدعى (الكاهنة) تجمع بعض البربر حولها بعد مقتل كسيلة ، وقد منى جيش حسان بالهزيمة عندما التقى بها عند نهر نينى (٤٤) ، وطاردته قوات الكاهنة حتى خرج من حدود قابس منسحباً إلى برقة (٤٥) . وفى تلك الأثناء تمكن أسطول الروم بقيادة البطريق يوحنا من استعادة قرطاجنة مرة ثانية ، ويظهر من هذا أن موجة الفتح انحسرت من جديد لتعود

---

(٤٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٣٤ ، النويرى ، نهاية الأرب ، مخطوط ، جـ ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ٨ ، ابن أبى دينار ، المؤنس ، ت . محمد شمام ، ص ٣٣
Fournel, op cit, 38.

(٤٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ونقل عنه النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط ، جـ ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ٨ ، ابن خلدون : العبر ، ط . دار الكتاب اللبنانى ، جـ ٤ ، ص ٤٠١ .
بَرقَة : بفتح أوله والقاف ، اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية (ياقوت : معجم البلدان ، ط . الخانجى ، جـ ٢ ، ص ١٣٣)
بنزرْت : بفتح الزاى وسكون الراء وتاء فوقها نقطتان مدينة بإفريقية بينها وبين تونس يومان (ياقوت : معجم البلدان ، ط . الخانجى ، جـ ٢ ، ص ٢٩٢)
صَطْفورة : بالفتح ثم السكون والفاء وبعده واو ساكنة وراء مهملة وهاء ، بلدة من نواحي إفريقية (ياقوت : معجم البلدان ، ط . الخانجى ، جـ ٥ ، ص ٣٥٦)

(٤٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ٣٧٠ .

(٤٥) د . سعد زغلول عبد الحميد تاريخ المغرب العربى ، ص ١٨٥ .
قابس : مدينة جليلة مسورة بالصخر ، من بنيان الأول ، وساحلها مرفأ للسفن من كل مكان ، وحولها قبائل من البربر لواته ولماية ونفوسة ومزاتة وزواغة وزواوة (البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ١٧ ، ١٨) .

المناطق الساحلية إلى سيطرة الروم والمناطق الداخلية إلى سيطرة البربر [٤٦] ، واتبعت الكاهنة سياسة تدل على عدم فهمها لمجريات الأحداث ، والآثار الطيبة التى تركتها موجات الفتح الإسلامى المتعاقبة فى نفوس الأهالى ، ذلك أنها أخذت فى تخريب المدن وقطع الأشجار وتبديد العمران ، ظناً منها أن ذلك يقطع أطماع العرب عن هذه البلاد . ولكن الذى حدث غير ذلك ، فقد ثار البربر عليها ورفضوا الانصياع لها أو البقاء تحت سيطرتها ، وقد استفاد حسان من هذا الوضع كثيراً عندما استأنف الزحف على إفريقية وبلاد المغرب سنة ٨١ هـ [٤٧] ، فاستطاع بمساعدة البربر – الذين ضاقوا ذرعاً بأعمال الكاهنة – أن يحرز نصراً نهائياً عليها ويقتلها سنة (٨٢ هـ / ٧٠١ م) عند بئر الكاهنة فى جبال الأوراس [٤٨] . وطلب أصحابها الأمان فلم يقبل حسان أمانهم حتى أعطوه اثنى عشر فارسا من جميع قبائلهم ، دخلوا بعد ذلك فى الإسلام فقسمهم حسان إلى فرقتين جعل على كل فرقة منهما ولداً من ولدى الكاهنة اللذين دخلا فى الإسلام واستأمنا لحسان على يد يزيد بن خالد الذى كان أسيراً عند الكاهنة [٤٩] . وكانت هذه خطوة ضخمة فى مجال الاتصال الاجتماعى بين العرب والبربر لتحقيق الهدف الأسمى من الفتح وهو نشر الإسلام .

لم يبق أمام حسان سوى قرطاجنة فزحف إليها مستعيناً بأسطول إسلامى ، كان أول قوة بحرية إسلامية ظهرت فى الساحل الإفريقى . ودارت فى البر والبحر

---

(٤٦) د . شكرى فيصل : حركة الفتح الإسلامى ، ص ١٧٤ .

(٤٧) د . إبراهيم العدوى : الأمويون والبيزنطيون ، ص ٢٥٦ .

(٤٨) د . عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٢٤٨ .

(٤٩) المالكى : رياض النفوس ، ت : حسين مؤنس ، جـ ١ ، ص ٣٦ . ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٣٨

رحى معركة كبيرة أسفرت عن تدمير قرطاجنة وهزيمة الروم وخروجهم نهائياً من إفريقية (٥٠) .

استقامت الأمور لحسان فى المغرب فعكف على تنظيمه وصبغه بالصبغة العربية الإسلامية مثله فى ذلك مثل كل الأقاليم التى فتحها العرب واستقروا بها ، ولا شك أن المغرب الأوسط تأثر كثيراً بهذه السياسة التى تهدف إلى إدماج العرب والبربر لخلق حالة من الاستقرار الدائم تستند إلى قاعدة شعبية من البربر كما سعى حسان إلى ضم البربر إلى الجيش العربى وأخرجهم كما يقول المالكى : « مع العرب يفتحون إفريقية ويقتلون الروم ومن كفر من البربر » (٥١) . وجعل لهم نصيبا فى الخطط فلكل قبيلة خطة تؤدى عنها المال ، وقسم بينهم الفيئ والأرض (٥٢) . وعندما شرع حسان فى بناء قاعدة ترشيش (تونس) البحرية جعل البربر يسهمون بنصيب كبير فى تأسيسها فكان عليهم جر الخشب اللازم لبناء السفن (٥٣) . وسوف يكون لدخول عنصر البربر فى الجيش العربى أثره فى امتداد الفتوحات الإسلامية إلى بلاد الأندلس بعد ذلك بقليل .

إلى جانب ذلك اتخذ حسان بعض التنظيمات الإدارية ، فدون الدواوين ونظم الخراج (٥٤) ، وجدد بناء المسجد الجامع فى القيروان (٥٥) وبعث العمال إلى سائر الجهات كما وزع الفقهاء ينشرون الإسلام واللغة العربية بين البربر (٥٦) .

---

(٥٠) د . إبراهيم العدوى : الأمويون والبيزنطيون ، ص ٢٥٨ ، د . حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، ص ٢٦٠ .

(٥١) المالكى : رياض النفوس ، ت : د . حسين مؤنس ، جـ ١ ، ص ٣٦ .

(٥٢) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(٥٣) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٣٨ .

(٥٤) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٣٨ ، السلاوى : الاستقصا ، جـ ١ ، ص ٤٣ .

(٥٥) المالكى : رياض النفوس ، ت : د . حسين مؤنس ، جـ ١ ، ص ٣٧ .

(٥٦) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٢٥٠ .

شعر البربر إزاء هذه السياسة أن انضمامهم إلى العرب الفاتحين يعلى من شأنهم ويساويهم بهم فى الحقوق والواجبات ، فأقبلوا على الإسلام وبنوا المساجد واستعملوا المنابر فيها ولم تقف هذه الظاهرة عند حدود إفريقية والمغرب الأوسط بل امتدت لتشمل أجزاء من المغرب الأقصى (٥٧) .

وهكذا استطاع حسان أن يخلق فى المغرب وضعا جديدا يمكن أن نسميه مرحلة الاختلاط والاندماج بين العرب والبربر ، ولكن والى مصر عبد العزيز بن مروان – الذى كان يتطلع إلى فتح شامل للمغرب – رأى أن حسانا لم يحقق هذا الهدف ، فبادر إلى عزله ، ودفع إلى المغرب بقائد جديد هو موسى بن نصير .

موسى بن نصير (٨٦ هـ / ٧٠٥ م) .

كان موسى بن نصير هو الرجل الذى أعده عبد العزيز بن مروان ليضع حداً لمسألة فتح العرب للمغرب التى طال عليها الأمد ، والتى كان يرى عبد العزيز بن مروان أنها تمثل عبئا ليس بالقليل على خزانة مصر ، وقد وفق عبد العزيز بن مروان أكبر التوفيق فى تولية القيادة فى المغرب لموسى بن نصير ، وهو رجل من أقدر وأذكى رجال الدولة الأموية (٥٨) .

قدم موسى بن نصير إلى المغرب فى أواخر سنة (٨٥ هـ / ٧٠٤ م) (٥٩) . وفى رأسه دراسة شاملة لكل تجارب قواد الفتح السابقين وخططهم والعقبات التى صادفتهم ، مضافا إليها خبراته الخاصة التى مارسها وعاش فيها ، لذلك رأى أن

---

(٥٧) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ١٩٨ – ١٩٩ .

(٥٨) د . حسين مؤنس : فجر الأندلس ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ١٩٥٩ ، ص ٤٦ .

(٥٩) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٢٥١ .

يقوم أولا بتطهير إفريقية وإقليم الزاب من الروم وعملائهم من البربر (٦٠) . وقد أكد موسى بن نصير ذلك فى خطبته حين قال : « ... فإن كل من كان قبلى يعمد إلى العدو الأقصى ويترك عدوا منه أدنى ينتهز منه الفرصة ، ويدل منه على العورة ويكون عونا عليه عند النكبة » (٦١) .

اتبع موسى بن نصير خطة ترمى إلى ضرب هذه العناصر (الروم وعملائهم من البربر) فى وقت واحد وبشدة تقضى على كل مقاومة لهم ، فأرسل حملة بقيادة عبد الملك الخشينى إلى قلعة زغوان ، وفى نفس الوقت بعث ابنه عبد الرحمن إلى بعض نواحى القيروان ووجه ابنه الثانى مروان إلى منطقة أخرى من إفريقية (٦٢) . وبلغ الخمس من سبى المعارك التى خاضوها يومئذ ستين ألف رأس من السبى (٦٣) .

وهكذا نجح هؤلاء القواد فى تأمين إفريقية وتنظيفها من دسائس الروم وحلفائهم من البربر وكفلوا بذلك حماية تامة لظهر القوات المتقدمة لفتح المغربين الأوسط والأقصى ، وقد حظى المغرب الأوسط بأكثر أعمال موسى بن نصير

---

(٦٠) د . إبراهيم العدوى : بلاد الجزائر ، ص ١١٥ .

(يرى الدكتور حسين مؤنس أن الفتح العربى للمغرب قد تم فى عهد حسان بن النعمان وأنه لا يسمى أعمال موسى بن نصير فى المغرب فتوحاً . وكيف يمكن القول بذلك ، وولاية حسان بن النعمان انتهت وأقليم طنجة لم يفتح بعد ، ومناطق كثيرة من المغرب الأقصى . كما أن خطر الروم ما زال قائماً فى الجزر القريبة من سواحل الشمال الإفريقى كما أن كثيراً من القبائل خرجت بعد عودة حسان إلى المشرق واستهوتها دعاوى الروم ، ولكن يمكن أن يُقال : إن موسى أتم الحلقة الأخيرة من فتح المغرب ، ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ت : عبد المنعم عامر ، ص ٢٧٦ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ١ ص ٤٢ ، لمؤلف مجهول : الأخبار المجموعة ، ص ٤ ، د . حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، ص ٢٦٠ ، د . حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ٤٨) .

(٦١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، مكتبة مصطفى البابى الحلبى ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٣ ، جـ ٢ ، ص ٦٣ .

(٦٢) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

(٦٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٤٠ .

الحربية نظرا لأن ميدانه كان محورا للتحالف البيزنطى البربرى الذى كان سببا فى إخفاق كثير من الجهود الحربية للمسلمين فى المغرب ، وأوصى موسى بن نصير قائده عياش بن أخيل الذى أرسله لإخضاع بعض قبائل المغرب الأوسط ، بانتهاج سياسة الاسترضاء مع القبائل الراغبة فى الصلح ، وأن يعاملها معاملة كريمة ويترك تدبير أمورها بيد أناس من أهلها ، مع إصراره على ضرورة أخذ الرهائن منهم ضمانا لاحترامهم للعهود والمواثيق (٦٤) .

وتمكن عياش بن أخيل من إرغام قبائل هوارة وزناتة على الصلح بعد أن أغار عليهم وأسر أميرهم (كامون) (٦٥) . ولما رأت كتامة ذلك أسرعت فقدمت على موسى بن نصير برهائنها فولى عليهم رجلا منهم (٦٦) ، وفى نفس الوقت خرج موسى بنفسه لتطهير بعض مناطق المغرب الأوسط التى رأى أنها ما تزال موضع نشاط الروم وأعوانهم من البربر فزحف بقواته إلى منطقة « سجوما » وتعقب عملاء الروم حتى وصل إلى نهر ملوية وهزمهم هناك هزيمة فادحة عاد بعدها إلى القيروان (٦٧) ، بعد أن دانت له قبائل المغرب الأوسط تماما بالخضوع والولاء .

أما حملات موسى بن نصير فى المغرب الأقصى فقد كانت أشبه ما تكون بنزهات عسكرية قام بها ابناه عبد الله ومروان والقائد زرعة بن أبى مدرك (٦٨) ، وقام موسى بن نصير بفتح طنجة بنفسه ، فكان أول من نزلها واختط فيها

---

(٦٤) د . إبراهيم العدوى : موسى بن نصير مؤسس المغرب العربى ، ص ٤٠ .

(٦٥) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٢٥٤ ، (يذكر ابن عذارى أن اسمه طامون وأن موسى أرسله إلى عبد العزيز بن مروان فقتله ، البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٤١) .

(٦٦) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(٦٧) د . إبراهيم العدوى : بلاد الجزائر ، ص ١١٩ .

(٦٨) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٢١٠ .

للمسلمين (٦٩) . ولم يبق أمامه غير سبتة التى استعصت عليه فتركها لعدم خطورتها ولأنها نافذة تمكن المسلمين من مراقبة الأحوال فى بلاد الأندلس التى كان موسى يتطلع إلى فتحها والتغلب عليها .

عاد موسى إلى القيروان بعد أن ترك طارق بن زياد واليا على طنجة ، وجعل مقر عمله فى تلمسان (٧٠) ، وكانت هذه الخطوة تتويجا لسياسة موسى بن نصير الرامية إلى استرضاء البربر وتحبيبهم فى الإسلام والفاتحين وسيضرب طارق بن زياد ومن معه من مسلمى البربر أروع الأمثلة لتضافر القوى الجديدة مع العرب فى فتح الأندلس ، بل إن الخلافة سوف لا تتحمل شيئاً من أعباء الفتح فى هذا الميدان (٧١) .

تأمين الفتوح الإسلامية فى بلاد المغرب :

تأكد لموسى بن نصير أن سلامة الفتوح الإسلامية فى بلاد المغرب تتطلب تعزيز النشاط البحرى فى غرب البحر المتوسط ، وأن حماية خطوط المواصلات البرية التى تحمل الإمدادات والتموين ، تقتضى القيام بعمليات بحرية واسعة (٧٢) ، ضد القواعد الحصينة للروم فى الجزر القريبة من الساحل المغربى ، ولذا اهتم موسى بن نصير بعمران تونس وتوسيع دار صناعتها ، وشق القناة التى توصل ميناءها بالمدينة واستطاعت هذه القاعدة أن تبنى مائة سفينة حربية انضمت

---

(٦٩) البلاذرى : فتوح البلدان ، ت : . د . صلاح الدين المنجد ، مكتبة النهضة المصرية ، جـ ١ ، ص ٢٧٢ .

(طنجة : بالفتح ثم السكون والجيم وزيادة هاء : مدينة على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء من البر الأعظم وبلاد البربر ، (البغدادى : مراصد الاطلاع ، ص ٨٩٣ - ٨٩٤) .

(٧٠) د . إبراهيم العدوى : بلاد الجزائر ، ص ١٢١ - ١٢٣ .

(سبتة : بلفظ الفعلة المرة الواحدة من السبت ، بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب) ، (البغدادى : مراصد الاطلاع ، جـ ٢ ، ص ٦٨٨) .

(٧١) د . حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ١٢٢ .

(٧٢) د . إبراهيم العدوى : بلاد الجزائر ، ص ١٢٣ .

إلى الأسطول (٧٣) ، فأصبح شمال أفريقيا مركزا بحريا نجح فى شل تهديدات أسطول الروم وأصبح فى يد المسلمين جزيرة قوصرة التى سيطر عليها المسلمون منها على المضيق الفاصل بين الشاطئ وجزيرة صقلية (٧٤) ، كما سيطروا على جزيرتى ميورقة ومنورقة التابعتين لملك إسبانيا القوطى (٧٥) .

وبهذا تأكد سلطان المسلمين وسيادتهم على الشمال الإفريقى وساد تلك البلاد الهدوء والأمن بعد أن أمضى المسلمون قرابة السبعين عاما فى فتح المغرب وهو ما يعتبر شيئا فريدا بين سائر الفتوحات الإسلامية . ولم تكن طبيعة المغرب الجغرافية والسياسية والاجتماعية هى السبب الوحيد فى طول مدة الفتح وإنما ينضم إليها أسباب أخرى تتصل بالأحوال الداخلية للخلافة الأموية من حيث انشغالها بإخماد الفتن والثورات التى واجهتها فى المشرق .

سياسة موسى بن نصير وأثرها فى المغرب الأوسط :

استهدفت سياسة موسى بن نصير تثبيت سلطان الإدارة الإسلامية فى بلاد المغرب والقضاء على كل مظاهر الفوضى الباقية من العصر الرومانى ، فقرب البربر إليه وحببهم فى الحكومة الجديدة وأشركهم فى الأعمال وفى إدارة البلاد مع

---

(٧٣) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ١١٥ .

(٧٤) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .
(**قَوْصرة** : بالفتح ثم السكون ، والصاد مهملة : جزيرة فى بحر الروم بين المهدية ، وجزيرة صقلية ، (البغدادى : مراصد الاطلاع ، جـ ٣ ، ص ١١٣٣) .
صِقِلِّية : بثلاث كسرات ، وتشديد اللام ، وبعض يقوله : بالسين وأكثر أهلها يفتحون الصاد واللام : من جزائر بحر المغرب ، مقابلة إفريقية مثلثة الشكل (البغدادى : مراصد الاطلاع ، جـ ٢ ، ص ٨٤٧) .

(٧٥) محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٣ ، ص ٢٢.
(**مَيُوْرقة** : بالفتح ثم الضم ، وسكون الواو ، والراء يلتقى فيها ساكنان وقاف : جزيرة فى شرق الأندلس ، (البغدادى : مراصد الاطلاع ، جـ ٣ ، ص ١٣٤٦)
(**مَنُوْرَقة** : بالفتح ثم الضم ، وسكون الواو ، وفتح الراء : جزيرة عامرة فى شرق الأندلس قرب ميورقة (البغدادى : مراصد الاطلاع ، جـ ٣ ، ص ١٣٢٥) .

العرب [٧٦] ، وبطبيعة الحال فقد تأثر المغرب الأوسط بهذه السياسة الرامية إلى كسب ثقة البربر ورضاهم . وزاد من نجاح هذه السياسة أن الإدارة الجديدة اعتبرت أرض الروم مفتوحة عنوة ، واعتبرت من تبقى من الروم موالى تتصرف فى شئونهم كما تشاء ، بينما اعتبرت الأراضى التابعة للبربر مفتوحة صلحا ، وتركتها فى يد أصحابها على أن يؤدوا المال عنها للدولة ، واعتبرت البربر المسلمين أحرارا كالعرب فيما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات [٧٧] ، كما أتاحت الإدارة الجديدة أمام البربر كل الفرص للاشتراك فى الجيوش العربية والانضمام إليها بل إن طارق بن زياد وهو من البربر تولى منصب القيادة فى ولاية طنجة ومعه اثنا عشر ألفا من البربر [٧٨] يرافقهم عدد من فقهاء المسلمين يعلمونهم القرآن والفرائض ، وهذا يظهر لنا جانبا آخر اهتمت به الإدارة الجديدة وهو نشر الإسلام والثقافة العربية بين البربر الذين ظهرت بينهم همة عالية لنشر هذا الدين بين قبائلهم فبنوا المساجد ، وحولوا الكنائس التى بناها المشركون قبل ذلك إلى القبلة ، ولم يقف نشاطهم الدينى هذا عند حدود إفريقية والمغرب الأوسط بل تعداه ليشمل المغرب الأقصى أيضا [٧٩] .

وينبغى أن نشير هنا إلى سياسة موسى بن نصير فى أخذ الرهائن والسبايا والغنائم والإفراط فى جمعها ، تلك السياسة التى أفاض المؤرخون القدماء فى الحديث عنها ، يذكر القيروانى : أن سبى قلعة زغوان وحدها كان عشرة آلاف ، وأن سبى السوس الأقصى بلغ أربعين ألفا ، وهناك رواية لابن قتيبة فيها وصف دقيق لما حمله موسى بن نصير معه عندما قفل عائدا من المغرب إلى دمشق

---

(٧٦) د . حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى إفريقية ، دار النهضة المصرية ، الطبعة الثانية ، جـ ١ ، ص ٩٨ .

(٧٧) د . إبراهيم العدوى : موسى بن نصير مؤسس المغرب العربى ، العدد ٦٨ ، ص ٥٤ .

(٧٨) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ت : عبد المنعم عامر ، ص ٢٧٦ ، السلاوى : الاستقصا ، ص ٤٤ ، وقارن النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط ، جـ ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ١٠ (الذى يذكر أن عددهم كان تسعة عشر ألفاً) .

(٧٩) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، جـ ٢ ، ص ٦٣ ، ٧١ .

يقول : « وأخرج معه من وجوه البربر مائة رجل فيهم بنو كسيلة وبنو قصدر ، وبنو ملوك البربر وملك السوس مزدانة ملك قلعة أرساف وملك ميورتق ، وخرج بعشرين ملكا من ملوك جزائر الروم وخرج معه مائة من ملوك الأندلس ومن الأفرنجيين ومن القرطبيين وغيرهم ، وخرج معه أيضاً بأصناف ما فى كل بلد من بزها ودوابها ورقيقها وطرائفها وما لا يحصى ، فأقبل يجر الدينا وراءه جرا لم يسمع بمثله ولا بمثل ما قدم به » (٨٠) .

ويبدو أن أرقام السبى التى ذكرها المؤرخون مبالغ فيها كثيرا بدليل التناقض الذى نجده فى روايات المؤرخين حول هذه الأرقام فبينما يذكر ابن خلدون : أن خمس السبى فى المعارك الأولى التى خاضها موسى بن نصير قبل فتح طنجة والمغرب كان سبعين ألفا (٨١) . نجد النويرى يقول : أن الخمس منها كان ستين ألفا (٨٢) . بينما نرى ابن عذارى يقول : بأن الخمس من معارك إفريقية – مستبعدا المغرب الأوسط – كان ستين ألفا (٨٣) ، وحتى ابن عذارى نفسه يضطرب فى هذه الرواية الأخيرة حول سبى إفريقية ، فإذا كان السبى من قلعة زغوان عشرة آلاف ، والسبى الذى قدم به عبد الله من نواحى إفريقية مائة ألف ، والذى جاء به مروان من النواحى الأخرى بإفريقية كان مائة ألف فكيف يكون خمس هذا المجموع كما يذكر ابن عذارى ستين ألفا (٨٤) . ثم يذكر ابن عبد الحكم رواية تزيد الأمر تناقضا وهى أن هذا الخمس كان عشرين ألفا (٨٥) .

على أية حال لا يمكننا أن ننكر كثرة السبى الذى جمعه موسى فقد أجمع المؤرخون على كثرته ولكن ليس إلى هذا الحد الذى ذكروه إذ كيف يمكن لجيوش

---

(٨٠) نفس المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٨ .

(٨١) ابن خلدون : العبر ، ط . دار الكتاب اللبنانى ، جـ ٤ ، ص ٤٠٢ .

(٨٢) النويرى : نهاية الأرب : مخطوط ، جـ ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ١٠ .

(٨٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٤٠ .

(٨٤) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(٨٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ت : عبد المنعم عامر ، ص ٢٧٥ .

تقاتل فى كل نواحى المغرب أن تسيطر على هذه الأعداد الضخمة من الأسرى ، كما أن الاحتفاظ بهم شئ باهظ التكاليف ، ويبدو أن المؤرخين خلطوا بين أعداد البربر الذين استأمنوا وانضموا إلى الإسلام – عندما رأوا سطوة الإدارة الجديدة وبين الذين أخذوا على أنهم أسرى أو رهائن .

وطبيعى أن جزءا كبيرا من هذا السبى بقى فى المغرب فكان له دور كبير فى حركة التعريب اللغوى (٨٦) ، وانتشار الإسلام لأنهم خالطوا المسلمين وتعاملوا معهم . أما الأعداد التى انتقلت من هذا السبى إلى المشرق فأثرها لا يجحد فقد أعطى هذا السبى من البربر سكان المشرق صورة واضحة للحياة فى المغرب فأصبح المغرب بأقاليمه المختلفة ملاذا لأى مسلم تطارده الخلافة ، وأصبح من السهل عليه أن يجد فى المغرب أمنه وبغيته (٨٧) .

وإذا كانت سياسة أخذ الرهائن والسبى والغنائم التى ابتدعها حسان بن النعمان وتوسع فيها موسى بن نصير قد أدت إلى نمو حركة التعريب وانتشار الإسلام وأقرت الأوضاع نهائيا فى المغرب لصالح المسلمين ، فقد كان لها آثار بالغة السوء فى نفوس البربر فأوغرت صدورهم وملأتها حقداً على العرب وغرست فى نفوسهم بذور الثورة التى تعهدها كثير من الولاة بعد موسى من حيث لا يشعرون حين حرصوا على إرهاق البربر وابتزاز أموالهم وخيراتهم وقدموها للخلفاء طمعا فى رضائهم (٨٨) ، فكان ذلك مهيئا لانتشار المبادئ الخارجية فى المغرب تلك المبادئ التى يمثل أصحابها حزب المعارضة للبيت الأموى . وسنرى عندما نستعرض عصر الولاة مدى ما لحق الإدارة الأموية ببلاد المغرب من اضطراب بسبب هذه السياسة ، وأن نتيجتها الحتمية كانت انفجار الثورة فى طنجة ، وامتدادها إلى المغرب الأوسط ممهدة لانفصاله عن الخلافة الأموية .

---

(٨٦) د . شكرى فيصل : المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ١٨٦ .

(٨٧) د . حسن على حسن : دولة الأدارسة بالمغرب ، ص ٣٩ .

(٨٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٥٢ .

(ب) عصر الولاة واضطراب أحوال المغرب

فترة هدوء فى مطلع عصر الولاة :

يطلق عصر الولاة فى بلاد المغرب على الفترة الزمنية التى أعقبت استدعاء الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك لموسى بن نصير من الأندلس والمغرب سنة (٩٦ هـ / ٧١٤ م) (٨٩) ، وحتى قيام الدول المستقلة بتلك الأرجاء . ولم يكن سليمان بن عبد الملك الذى تولى الخلافة بعد الوليد راضيا عن موسى بن نصير وسياسته فى المغرب ، فعزله وولى مكانه محمد بن يزيد القرشى سنة (٩٧ هـ / ٧١٥ م) (٩٠) .

ولم يتوان محمد بن يزيد – والى المغرب الجديد – فى تنفيذ تعليمات سليمان بن عبد الملك الصارمة بتتبع آل موسى بن نصير ، واستئصال أموالهم التى احتجزوها من البربر ، حتى إنه قبض على عبد الله بن موسى بن نصير وسجنه ، وعهد إلى خالد بن أبى حبيب بقتله والتخلص منه (٩١) .

---

(٨٩) د . إبراهيم العدوى : بلاد الجزائر ، ص ١٦٤ .

(٩٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٨٧ ، (وليس موسى بن نصير وحده هو الذى لاقى هذا المصير من بين قادة الدولة الأموية بل لقيه أيضاً آل الحجاج ، ومحمد بن القاسم ، وقتيبة بن مسلم ، وكان ذلك تمشياً مع السياسة العامة التى اتبعها سليمان بن عبد الملك فى مطلع خلافته ، وهى سياسة الانتقام والتنكيل بالعديد من القادة وأهليهم الذين كانت بينهم وبين سليمان خصومات قديمة قبل توليه الخلافة ، د . أحمد شلبى : التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثالثة ١٩٦٩ ، جـ ٢ ، ص ٧٦) .

(٩١) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٤٧ ، النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط ، جـ ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ١٤ ، (اتفق ابن عذارى والنويرى على أن عبد الله بن موسى بن نصير قتل فى عهد محمد ابن يزيد بينما نرى ابن عبد الحكم والبلاذرى يجعلان قتله على يد بشر بن صفوان ، ويرى الدكتور سعد زغلول عبد الحميد أن الأمر اختلط على ابن عبد الحكم فوضع نهاية عبد الله موضع نهاية أخيه عبد الملك ، والخلط بين الاسمين ممكن لتشابه رسمهما ، ويبدو أن ذلك صحيح ، لأن عبد الله كان نائباً عن والده موسى ابن نصير فى المغرب ، والأحرى أن تمتد إليه يد البطش أولاً ، لأن بيده أشياء كثيرة ، وهو أكثر اتساقاً =

ولعل هذه الخطوة من جانب محمد بن يزيد – الذى كان يتصف بالعدل وحسن السيرة – قد خلقت ارتياحا عاما لدى البربر ونعموا بالهدوء والأمن والعدل وحسن السياسة . ويذكر ابن عذارى : أن محمد بن يزيد كان يبعث السرية إلى ثغور إفريقية [٩٢] ، يقسم ما تعود به من غنائم على جنوده دون أن يحتجز لنفسه شيئا منها ، ولابد أن ذلك أدى إلى كسب أفواج جديدة من البربر إلى الإسلام [٩٣] .

ولكن ولاية محمد بن يزيد لم تدم طويلا فبوفاة سليمان بن عبد الملك استعمل الخليفة عمر بن عبد العزيز تابعيا جليلا هو إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر دينار سنة (١٠٠ هـ / ٧١٨ م)[٩٤]. وقد شهد المغرب جهودا عظيمة لهذا الوالى الجديد ، فقام بتطبيق سياسة عمر بن عبد العزيز المالية التى كان هدفها تخفيف الأعباء المالية عن المسلمين من أهل البلاد ، فميز أرض الصلح عن أرض العنوة ، وألغى ما كان متبعا من بيع أبناء لواتة من البربر فى خراجهم تحقيقا لمبدأ المساواة بين المسلمين [٩٥] . وإلى جانب ذلك حرص إسماعيل بن عبد الله على دعوة البربر إلى الإسلام حتى أسلم على يديه عامة البربر [٩٦] ، وعاونه فى ذلك عشرة فقهاء من التابعين منهم عبد الرحمن بن نافع ، وسعد بن مسعود

= مع سياسة سليمان بن عبد الملك بن مروان التى اتبعها فى أول عهده ، ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٩١ ، د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، هامش ص ٢٣٠ ، ص ٢٣١ ، البلاذرى : فتوح البلدان ، جـ ١ ، ص ٢٧٤ .

(٩٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٤٧ .

(٩٣) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٨٩ .

(٩٤) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(٩٥) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص٣٣٦ .

(٩٦) الدباغ : معالم الايمان ، ت : إبراهيم شبوح ، جـ ١ ، ص ٢٠٣ ، ابن الأبار : الحلة السيراء ، ت : د . حسين مؤنس ، ط . أولى ١٩٦٣ ، جـ ٢ ، ص ٣٣٦ .

التجيبى وغيرهما (٩٧) . وقد أخذ هؤلاء على عاتقهم تعليم البربر وتثقيفهم بالثقافة العربية الإسلامية ، واستطاعوا بفضل جهودهم أن ينقلوا البربر جميعهم إلى الإسلام . ولكن فترة السلم والهدوء لم تدم طويلا ، فما لبثت الأوضاع أن تبدلت عندما آلت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك سنة (١٠١ هـ / ٧١٩ م) وكان يزيد هذا لا يقر إصلاحات عمر بن عبد العزيز ويرى أن انتقال البربر إلى الإسلام قد أدى إلى ضياع مورد هام من موارد الدولة وهو الجزية التى كانت تفرض على المعاهدين من النصارى وأهل الذمة (٩٧) ، لذا بادر بعزل إسماعيل بن عبد الله وولى على المغرب يزيد بن أبى مسلم الذى قدم إلى المغرب سنة (١٠٢ هـ / ٧٢٠ م) (٩٨) .

سوء الإدارة العربية فى بلاد المغرب :

اتخذ يزيد بن أبى مسلم فى المغرب خطوات جريئة تشبه تلك الخطوات التى اتخذها الحجاج بن يوسف الثقفى فى العراق ولا عجب فى ذلك فقد كان ابن أبى مسلم مولى للحجاج وصاحبا لشرطته بل إن ابن الأبار يذكر : أنه كان أخا للحجاج من الرضاعة (٩٩) . لذا فقد تشبه به فى سياسته ، فأساء السيرة فى البربر ، ووضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة منهم (١٠٠) ، ولم يكتف بذلك بل : « أخذ موالى موسى بن نصير من البربر فوشم أيديهم وجعلهم

---

(٩٧) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٤٨ ، المالكى : رياض النفوس ، ت : حسين مؤنس ، جـ ١ ، ص ٦٤ - ٧٥ ،

د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

(٩٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٤٨ ، ابن الأبار : الحلة السيراء ، ت : د . حسين مؤنس ، جـ ٢ ، ص ٣٣٦ .

(٩٩) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة ، د . حسين مؤنس : ثورات البربر فى إفريقية والأندلس ، مجلة كلية الآداب ، المجلد العاشر ، الجزء الأول ، مايو ١٩٤٨ ، ص ١٥١ .

(١٠٠) ابن خلدون : العبر ، ط . دار الكتاب اللبنانى ، جـ ٤ ، ص ٤٠٣ ، أحمد بك النائب الأنصارى الطرابلسى : المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب ، مكتبة الفرجانى ، ص ٥٧ .

أخماسا ، وأحصى أموالهم وأولادهم ، ثم جعلهم حرسه وبطانته ، وأخذ محمد بن يزيد القرشى فعذبه وجلده جلدا وجيعا » (١٠١) .

وقع ظلم يزيد بن أبى مسلم على البربر كالصاعقة ، ومن ثم فكروا فى وضع حد لأعمال الطاغية الظالم ، ولم يجدوا أمامهم سبيلا غير الثورة للقضاء عليه ، ويروى لنا ابن عذارى نهايته فيقول : « فقام على المنبر خطيبا فقال (يزيد بن أبى مسلم) : إنى رأيت أن أرسم حرسى فى أيديهم كما تصنع ملوك الروم بحرسها فأرسم فى يمين الرجل اسمه ، وفى يساره حرسى ليعرفوا بذلك من بين سائر الناس ، فإذا وقفوا على أحد ، أسرع لما أمرت به فلما سمعوا ذلك منه أعنى حرسه اتفقوا على قتله ، وقالوا : جعلنا بمنزلة النصارى ، فلما خرج من داره إلى المسجد لصلاة المغرب قتلوه فى مصلاه » (١٠٢) .

وحاول البربر – الذين كانوا يتوقون إلى المساواة والعدل – أن يخففوا من وقع الحادث على الخلافة فولوا عليهم محمد بن أوس الأنصارى (١٠٣) وكتبوا إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك يحدثونه عن دوافع ثورتهم وعن التزامهم بالطاعة قالوا : « إنا لم نخلع يدا من الطاعة ولكن يزيد بن أبى مسلم سامنا ما لا يرضى الله ورسوله فقتلناه وأعدنا عاملك ، فكتب إليهم يزيد : إنى لم أرض ما صنع ابن أبى مسلم وأقر محمد بن يزيد على المغرب » (١٠٤) ، ويبدو أن هذه الحادثة كانت سببا فى وضع حد لحالة القلق التى كان البربر يشعرون بها ، فأصبحوا يشعرون بعدها أن بإمكانهم فرض رأيهم على الخلافة ولو أدى هذا بهم إلى استعمال القوة ، ولعل هذا كان سببا فى أن بشر بن صفوان – الذى أقامه يزيد بن عبد الملك واليا

---

(١٠١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ت : عبد المنعم عامر ، ص ٢٨٨ .

(١٠٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٤٨ – ٤٩ .

(١٠٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٨٩ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٤٩ ، وقارن ابن خلدون الذى يذكر أن البربر ولوا عليهم محمد بن يزيد الوالى السابق ، ابن خلدون : العبر ، ط . دار الكتاب اللبنانى ، جـ ٤ ، ص ٤٠٣ .

(١٠٤) السلاوى : الاستقصا ، جـ ١ ، ص ٤٧ .

على المغرب بعد ذلك سنة (١٠٣ هـ / ٧٢١ م) – اصطنع مع البربر سياسة تقوم على المساواة بينهم وبين العرب تهدئة لخواطرهم ، وقام بمصادرة ما تبقى من أموال موسى بن نصير وعذب مواليه (١٠٥) ونجح فى تهدئة المغرب ، فسادته فترة من الهدوء لم يقطعها غير وفاته سنة (١٠٩ هـ / ٧٢٧ م) عند عودته من غزو صقلية (١٠٦) .

وقد عاصر سوء الإدارة فى بلاد المغرب فى أواخر العصر الأموى انتشار التنافس البغيض بين سكانه العرب من اليمنية والقيسية وكان غلبة أى منهما على الآخر تتوقف على ميول الخلفاء أنفسهم ولما كان أكثر عرب المغرب من أصل يكاد يكون يمنيا خالصا . فقد جرت عادتهم على التزام الهدوء حين يكون ولاتهم من اليمنيين ، أما إذا كان الولاة من القيسية فان المغرب يصبح مسرحا لاضطرابات عنيفة مفزعة (١٠٧) . وذلك ما حدث بعد وفاة بشر بن صفوان إذ صادف ذلك تحول ميول الخليفة هشام بن عبد الملك عن اليمنية إلى القيسية ، ومن ثم ولى على المغرب عبيدة بن عبد الرحمن السلمى (١٠٨) – وكان من غلاة القيسية – فقدم إلى المغرب فى ربيع الأول سنة (١١٠ هـ / ٧٢٨ م) (١٠٩) . وما أن صارت الأمور إليه حتى اشتد فى معاملة اليمنيين شدة لا مثيل لها ، فزج بهم فى السجون واغتصب منهم أموالا كثيرة (١١٠) ، ولقى البربر نفس المعاملة

---

(١٠٥) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

(١٠٦) نفس المرجع السابق ، ص ٢٩٦ .

(١٠٧) رينهرت دوزى : تاريخ مسلمى أسبانيا ، ترجمة د . حسن حبشى ، الجزء الأول ، الحروب الأهلية ، دار المعارف ١٩٦٣ ، ص ١٣٤ ، د . حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ١٦٣ .

(١٠٨) نفس المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

(١٠٩) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٥٠ .

(١١٠) دوزى : تاريخ مسلمى أسبانيا : جـ ١ ، ص ١٣٥ (ومن هؤلاء اليمنية الذين عُذبوا ، ونكل بهم أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى الذى يذكر ابن عذارى أنه كتب أبياتاً بعث بها إلى هشام بن عبد الملك فأمر هشام بعزل عبيدة من إفريقية والمغرب ، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٥٠ – ٥١) .

السيئة ، فسبى نساءهم ، وأسرف فى غزو قبائلهم . وكان لهذه السياسة الغاشمة أثرها فى اعتناق البربر لمبادئ الخوارج وانتشارها بينهم (١١١) . بيد أن هذا الوالى غادر المغرب فى شوال سنة (١١٤ هـ / ٧٣٢ م) (١١٢) ، متوجها إلى دمشق يحمل ما جمعه من أموال وهدايا ليقدمها إلى هشام بن عبد الملك « وكان فيما خرج به من العبيد والإماء ومن الجوارى المتخيرة سبعمائة جارية ، وغير ذلك من الخصيان والخيل والدواب والذهب والفضة والآنية » (١١٣) وهناك طلب من هشام أن يعفيه من ولاية المغرب فأعفاه (١١٤) .

عبيد الله بن الحبحاب (١١٦ هـ / ٧٣٤ م) .

أسند هشام ولاية المغرب إلى عبيد الله بن الحبحاب مولى بنى سلول بن قيس (١١٥) ، والذى كان واليا على مصر . فمضى إلى بلاد المغرب بعد أن استخلف على مصر ابنه القاسم (١١٦) . وقد تمتع هذا الوالى بثقافة عالية أشار إليها كثير من المؤرخين أمثال ابن عذارى الذى وصفه بقوله : « هو مولى بنى سلول وكان رئيسا نبيلا وأميرا جليلا بارعا فى الفصاحة والخطابة ، حافظا لأيام العرب وأشعارها ووقائعها » (١١٧) .وما أن تسلم ابن الحبحاب ولايته حتى قسمها بين

---

(١١١) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٢٩٧ .

(١١٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٥١ .

(١١٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٩٢ .

(١١٤) نفس المرجع السابق ، ص ٢٩٣ .

(١١٥) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، ت : عبد الله أنيس الطباع ، دار النشر للجامعيين ، بيروت ١٩٥٧ ، ص ٤٠ ، لمؤلف مجهول : أخبار مجموعة ، مكتبة المثنى ببغداد ، ص ٣٥ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٥ .

(١١٦) نفس المصدر والصفحة ، ابن خلدون يذكر أن اسمه (أبا القاسم) ابن خلدون : العبر ، انظر ط . دار الكتاب اللبنانى ، جـ ٤ ، ص ٤٠٤ .

(١١٧) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٥١ ، (ويقول النويرى : « وكان رئيساً كاتباً بليغاً حافظاً لأيام العرب وأشعارها ووقائعها » ، النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط ؛ جـ ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ١٥) .

بنيه وأنصاره فاستعمل على الأندلس « عقبة بن الحجاج السلولى ، واستعمل على طنجة وما والاها من المغرب الأقصى ابنه إسماعيل ثم عمر بن عبد الله المرادى » (١١٨) . واتبع عبيد الله في المغرب سياسة قوية متشددة مع البربر ولم يكن هدف هذه السياسة بسط سلطان العرب وتقوية شأنهم فى بلاد المغرب بقدر ما كان هدفها الرغبة فى إرسال الأموال والهدايا والطرف إلى الخلافة التى كانت تواجه ارتباكا ماليا خطيرا فى ميزانيتها وقد أدت هذه السياسة بعبيد الله إلى منزلق خطير حيث استباح لنفسه هو وعماله جمع الأموال من البربر بطرق غير مشروعة ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إن والى طنجة عمر بن عبد الله المرادى كما يروى المؤرخون « أساء السيرة وتعدى فى الصدقات والعشر ، وأراد تخميس البربر وزعم أنهم فيئ للمسلمين وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله ، وإنما كان الولاة يخمسون من لم يجب للإسلام » (١١٩) .

وكان ذلك تطورا خطيرا فى سياسة الإدارة العربية فى بلاد المغرب الأمر الذى دفع البربر إلى إرسال لجنة من شيوخ القبائل المغربية لتقصى الحقائق عند الخليفة الأموى فى دمشق واستطلاع رأيه قبل أن يندفعوا فى أى عمل من أعمال العنف التى طالما زينها لهم الخوارج الذين نشروا مبادئهم آنذاك فى أنحاء المغرب وألحوا فى إقناع البربر بأن ظلم العمال لهم إنما هو بأمر من الخليفة نفسه وأن الخليفة هو الذى يكرههم على امتصاص دم الرعايا (١٢٠) . وقد شرح الطبرى هذه الحقيقة الهامة شرحا وافيا . حيث قال : « فما زال أهل المغرب من أسمح أهل البلدان وأطوعهم إلى زمان هشام بن عبد الملك . فلما دب إليهم أهل العراق (أى الخوارج) واستثاروهم ، قالوا : إنا لا نخالف الأئمة بما تجني العمال ،

---

(١١٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٥١ .

(١١٩) نفس المصدر السابق ، ص ٥١ ، ٥٢ ، د . حسين مؤنس : ثورات البربر فى إفريقية والأندلس ، ص ١٦٦ .

(١٢٠) يوليوس فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ، ترجمة : د . محمد عبد الهادى أبو ريدة ، الألف كتاب رقم ١٣٦ ، ص ٣٣١ ، ١٦٨ ، ١٦٩ .

ولا نحمل ذلك عليهم فقالوا : إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك فقالوا : لا نقبل هذا حتى نخبرهم . فخرج ميسرة المضغرى فى بضعة عشر إنسانا حتى قدم على هشام . فطلبوا الاذن ، فصعب عليهم فأتوا الأبرش (وزير هشام بن عبد الملك) فقالوا : أبلغ أمير المؤمنين بأن أميرنا يغزو بنا وبجنده ، فإذا أصبنا نفلهم دوننا ، وقال : هم أحق به ، فقلنا : هو أخلص لجهادنا . وإذا حاصرنا مدينة قال تقدموا ، وأخر جنده فقلنا : تقدموا فإنه ازدياد للجهاد ، ومثلكم كفى إخوانه ، فوقيناهم بأنفسنا وكفيناهم ... ثم إنهم (أى الولاة) عمدوا إلى ماشيتنا ، فجعلوا يبقرونها عن السخال يطلبون الفراء الأبيض لأمير المؤمنين ، فيقتلون ألف شاة فى جلد ! فقلنا : ما أيسر هذا لأمير المؤمنين فاحتملنا ذلك وخليناهم وذلك . ثم إنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا ، فقلنا : لم نجد هذا فى كتاب ولا سنة فنحن مسلمون . فأحببنا أن نعلم ، أعن رأى أمير المؤمنين ذلك أم لا . قال الأبرش : فقعل . فلما طال عليهم ، ونفدت نفقاتهم ، كتبوا أسماءهم فى رقاع ، ورفعوها إلى الوزراء ، وقالوا : هذه أسماؤنا وأنسابنا ، فإن سألكم أمير المؤمنين عنا فأخبروه » [١٢١] . وعلى إثر عودة الوفد اندلعت نيران الثورة فى بلاد المغرب حيث كان يدعو لها إذ ذاك جماعات الخوارج فى تلك البلاد .

---

(١٢١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، ت : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ١٩٧٠ ، (ذخائر العرب) (٣٠) ، جـ ٤ ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(ج) انتشار المذاهب الخارجية بين البربر

واندلاع الثورات المحلية ضد الخلافة العباسية

فر كثير من دعاة الخوارج إلى المغرب الأوسط وسائر أرجاء المغرب هربا من بطش الأمويين وضرباتهم ، ووجدوا فى هذه البلاد مسرحا بكرا لنشاطهم وتربة صالحة لنشر مبادئهم وغرس تعاليمهم القائمة على المساواة بين المسلمين ، والثورة على الظلم ، فى جميع أشكاله ، وحاول هؤلاء الدعاة تغيير أفكار البربر واتجاهاتهم السياسية والدينية . وكانت فرق الخوارج التى لجأت إلى المغرب من جماعات الصفرية والإباضية ، حيث كانت فرق الخوارج الأخرى المعروفة بالتشدد مثل الأزارقة قد تهاوت فى المشرق تحت ضربات الأمويين العنيفة .

وقد اختلف البربر فى مدى تقبلهم لهذه التعاليم فانتشرت الصفرية بين بربر القسم الجنوبى من المغرب الأقصى فى المناطق الجبلية الممتدة من السوس الأدنى إلى جبال درن بينما اعتنق بربر المغرب الأوسط والقسم الشمالى من المغرب الأقصى تعاليم الإباضية (١٢٢) . وإلى جانب الصفرية والإباضية كان هناك المتطرفون الغلاة من البربر الذين يدعون إلى إقامة حكومة بربرية دينها الإسلام ولغتها البربرية ، وظهرت هذه النزعة فى برغواطة عند أتباع صالح بن طريف الذى تسمى بصالح المؤمنين (١٢٣) .

ومما ساعد على انتشار دعوة الخوارج على هذا النطاق الواسع أن دعاة الخوارج من إباضية وصفرية عندما نشروا دعوتهم ببلاد المغرب حرصوا على عدم ذكر مذهب من المذاهب وإنما نشروها تحت شعارالمناداة باسم الاصلاح والعمل بالكتاب والسنة (١٢٤) .

---

(١٢٢) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٣١٠ .

(١٢٣) نفس المرجع السابق ، ونفس الصفحة .

(١٢٤) د . إبراهيم العدوى : بلاد الجزائر ، ص ١٦٧ .

ونجح هؤلاء الدعاة فى تفجير الوضع فى بلاد المغرب فى صورة ثورات متتالية عمت أرجاء المغرب وأنحائه ، وكانت أولى هذه الثورات ثورة ميسرة .

ثورة ميسرة :

اشتهرت هذه الثورة فى التاريخ باسم قائدها ميسرة المدغرى نسبة إلى قبيلة مدغرة التى ينتمى إليها (١٢٥) . وبعض المصادر تلقبه بالفقير (١٢٦) أو الحقير (١٢٧) ، وبعضها يلقبه بالسقاء لأنه امتهن بيع الماء بسوق القيروان (١٢٨) ولكن ابن خلدون يذكر أنه كان شيخا لقبيلة مضغرة (١٢٩) ، وهذا هو الأرجح لأنه نجح فى ضم كثير من القبائل إلى جانبه حين قام بالثورة ، ويؤيد ذلك أيضا أنه ترأس وفد شيوخ القبائل المغربية إلى الخليفة هشام بن عبد الملك (١٣٠) . ولما لم يجد وفد المغرب من الخلافة اهتماما ببحث مشاكل البربر ومتاعبهم ، وكانوا قد تدارسوا فى دمشق المنهاج الذى يسير عليه خوارج المشرق وطريقتهم لذا فقد قرروا الخروج من المعارضة السلمية الصامتة إلى الثورة والصراع المسلح مع الخلافة وممثليها من العمال (١٣١) .

وجاء إعلان الثورة فى أنسب الظروف حين خرج جيش الوالى فى حملة بحرية لغزو صقلية بقيادة حبيب بن أبى عبيدة الفهرى سنة

---

(١٢٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ت : عبد المنعم عامر ، ص ٢٩٣ .

(١٢٦) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(١٢٧) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٥٢ .

(١٢٨) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ١٤ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٩١ .

(١٢٩) ابن خلدون : العبر ، ط . مؤسسة الأعلمى ببيروت ، جـ ٦ ، ص ١١٨ .

(١٣٠) ابن خلدون : العبر ، ط . مؤسسة الأعلمى ببيروت ، جـ ٦ ، ص ١١٩ ، د . حسين مؤنس : ثورات البربر فى إفريقية والأندلس : ص ١٥٦ ، د . حسن على حسن : دولة الأدارسة بالمغرب ، ص ٥٠ .

(١٣١) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٥٦ .

(١٢٢ هـ / ٧٤٠ م) (١٣٢) . وعندها قامت الثورة وادعى ميسرة الخلافة وتسمى بها وبايعه الثوار عليها (١٣٣) ، وانضم إلى ميسرة فى هذه الثورة « بربر مكناسة وبرغواطة بزعامة صالح بن طريف كما انضم إليه الأفارقة فى طنجة بزعامة عبد الأعلى بن جريج » (١٣٤) وانضمت إليه أيضاً أقوى قبائل المغرب الأوسط وهى زناتة (١٣٥) ، وقد روى المؤرخون ضراوة هذه الثورة فيقول ابن عذارى : « فخرج ميسرة المدغرى وقام على عمر بن عبد الله المرادى بطنجة فقتله (١٣٦) « ويذكر صاحب الأخبار المجموعة أن الثوار دخلوا مدينة طنجة فقتلوا أهلها ويقال إنهم قتلوا (١٣٧) الصبيان » . وبعد أن سيطر ميسرة على الأمور فى طنجة ترك عليها أحد أعوانه وهو عبد الأعلى بن جريج الإفريقى واتجه إلى السوس وهناك التقى بإسماعيل بن عبيد الله فهزمه وقتله (١٣٨) . وأمام هذه الانتصارات تأجج لهيب الثورة فعمت أنحاء المغرب حيث وثب كل قوم من البربر على من يليهم فقتلوا وطردوا .

وأمام مفاجأة الثورة لعبيد الله بن الحبحاب حاول تجميع قواه لضرب هذه الثورة ، فأرسل إلى عقبة بن الحجاج السلولى عامله على الأندلس يطلب إليه مهاجمة مواقع الثوار فى طنجة ، ولكن عقبة لم يستطع إتمام هذه المهمة وعاد أدراجه (١٣٩) . فأرسل ابن الحبحاب جيشا بقيادة خالد بن حبيب الفهرى ، وفى نفس الوقت أرسل فى استدعاء حبيب بن أبى عبيدة من صقلية وبعثه فى إثر

---

(١٣٢) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(١٣٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ت . عبد المنعم عامر ، ص ٢٩٣ .

(١٣٤) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٣٠٤ .

(١٣٥) د . إبراهيم العدوى : بلاد الجزائر ، ص ١٧٠ .

(١٣٦) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٥٢ .

(١٣٧) لمؤلف مجهول : أخبار مجموعة ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

(١٣٨) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ت . عبد المنعم عامر ، ص ٢٩٣ .

(١٣٩) د . حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ١٦٧

خالد (١٤٠) ، ولقى ميسرة خالدا بناحية طنجة فاقتتلا قتالا شديداً ثم تحاجزوا ورجع ميسرة إلى طنجة فكره البربر سوء سيرته فقتلوه ، وولوا أمرهم خالد بن حميد الزناتى (١٤١) الذى التقى بخالد بن حبيب ما بين وادى شلف إلى قرب طنجة (١٤٢) ، وأنزل بالعرب هزيمة فادحة راح فيها كما يقول ابن عذارى : « حماة العرب وفرسانها وكماتها وأبطالها » (١٤٣) لذا سميت هذه المعركة « غزوة الأشراف » (١٤٤) وقد تأثر هشام بن عبد الملك لتدهور الأمور فى المغرب على هذا النحو وقال : « والله لأغضبن لهم غضبة عربية ولأبعثن لهم جيشا أوله عندهم وآخره عندى » (١٤٥) .

نجحت ثورة ميسرة فى فصل المغرب الأقصى عن الخلافة الأموية وأخذ سكانه من البربر يعتمدون على أنفسهم فى حل مشاكلهم بحسب ما هم فيه من أوضاع سياسية واجتماعية ودينية ، وبذا وضحت شخصية المغرب وضوحا تاما (١٤٦) .

أما المغرب الأوسط فقد ظل مسرحا للصراع الدامى بين قوات الخلافة التى تحاول استرداد نفوذها على أرضه بكل الوسائل ، وبين ثوار البربر على اختلاف مذاهبهم .

---

(١٤٠) ابن خلدون : العبر ، ط . دار الكتاب اللبنانى ، جـ ٤ ، ص ٤٠٥ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٥٣ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٩٢ .

(١٤١) ابن خلدون : العبر ، ط . دار الكتاب اللبنانى ، جـ ٤ ، ص ٤٠٥ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٩٢ .

(١٤٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٥٣ .

(١٤٣) نفس المصدر السابق ، ص ٥٤ .

(١٤٤) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة ، ابن أبى دينار : المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ، ت . محمد شمام ، ص ٤٠ .

(١٤٥) ابن أبى دينار : المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ، ت . محمد شمام ، ص ٤٠ .

(١٤٦) د . حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧ ، ص ٦٧ .

جهود الخلافة لاسترجاع نفوذها فى المغرب :

تولى أمر المغرب كلثوم بن عياض القشيرى وقدم إلى المغرب سنة (١٢٣ هـ / ٧٤١ م) (١٤٧) فى جيش جرار تضخم تضخما عظيما بمن انضم إليه من جند الشام ومصر وبرقة وطرابلس حتى بلغ عدده ٧٠ (سبعين) ألف رجل (١٤٨) . ولكن العصبية لعبت دورها التعس فى تحطيم صفوف هذا الجيش القوى ، فالظاهر أن أهل الشام أتوا يزهون بعددهم وعديدهم على المناكيد من أهل إفريقة والمغرب الذين حطمهم البربر فى أكثر من موقعة (١٤٩) ، علاوة على ذلك فإن قائد الجيش الإفريقى حبيب بن أبى عبيدة لقى الكثير من الإهانة من بلج بن بشر القيسى ، ومن كلثوم بن عياض نفسه يقول ابن عبد الحكم : « قدم كلثوم فتلقاه حبيب فتهاون به أيضا ثم خطب كلثوم الناس على ديدبان له ، فطعن فى حبيب وشتمه وأهل بيته » (١٥٠) وإلى جانب هذه المعاملة السيئة التى لقيها العرب المقيمون فى البلاد فإن كلثوما استهان بقوة البربر ولم يستفد بخبرة من سبقوه بالقتال فى هذا الميدان الوعر فقد أشار حبيب بن أبى عبيدة على كلثوم أن يقاتل البربر الرجالة بالرجالة ، والخيل بالخيل (١٥١) فقال له كلثوم : « ما أغنانا عن رأيك يا ابن أم حبيب »(١٥٢). وهكذا أصبح جيش الخلافة على هذه الحالة من التمزق والانشقاق فما أن دارت المعركة بينه وبين البربر عند وادى سبو (١٥٣) ،

---

(١٤٧) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٦٢ .

(١٤٨) المرجع السابق ، ص ٢٦٢ .

(١٤٩) نفس المرجع السابق ، ص ٢٦٣ .

(١٥٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ت . عبد المنعم عامر ، ص ٢٩٥ .

(١٥١) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(١٥٢) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(١٥٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٥٥ .

حتى منى بالهزيمة الفادحة ويصف ابن عذارى هذه المعركة وصفا دقيقا رائعا فيقول : « ثم نشب القتال ، وقعدت البربر تحت الدرق ، وناشبت الخيل وكشفت خيل العرب خيل البربر ، ثم انكشفت خيل العرب ، والتقت الرجالة بالرجالة فكان صبر وقتال ، وخالطت خيل البربر ورجالتهم كلثوما وأصحابه فقتل كلثوم ، وحبيب بن أبى عبيدة وسليمان بن أبى المهاجر ، ووجوه العرب ، فكانت هزيمة أهل الشام إلى الأندلس وهزيمة أهل مصر وإفريقية إلى إفريقية » (١٥٤) . ويذكر ابن القوطية أن خسائر العرب فى هذه المعركة كانت عشرة آلاف كان من بينها كلثوم بن عياض (١٥٥) .

ورغم الهزيمة التى منى بها جيش الخلافة عند وادى سبو (بقدورة) فقد تابعت الخلافة الأموية جهودها لوضع حد لثورة البربر الصفرية ، فأرسلت حنظلة ابن صفوان (والى مصر) لمباشرة هذه المهمة سنة (١٢٤ هـ / ٧٤٢ م) (١٥٦) وكان قد ظهر فى هذه الآونة زعيمان من البربر هما أبو يوسف الهوارى ، وعكاشة بن أيوب الفزارى الصفرى ، استطاع هذان الزعيمان أن ينقلا منطقة الصراع إلى بلاد المغرب الأوسط وبخاصة إقليم الزاب فى شرق تلك البلاد ، وكان كل منهما يتأهب للزحف على القيروان (١٥٧) . فسار إليها عكاشة عن طريق مجانة ، بينما اتجه عبد الواحد إليها عن طريق جبل باجة وتوقف عبد الواحد على بعد مرحلة من القيروان عند موضع يعرف بالأصنام بينما عسكر عكاشة على بعد ستة أميال من القيروان عند موضع يعرف بالقرن (١٥٨) . وأمام تكتل جهود الصفرية لاقتلاع القيروان من قبضة العرب رأى حنظلة أن يلقى كلا منهما على حدة لذا

---

(١٥٤) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(١٥٥) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٤١ .

(١٥٦) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٧٢ .

(١٥٧) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٣١٢ .

(١٥٨) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٧٤ .

أرسل إلى عكاشة وأخذ يرغبه ويمنيه (١٥٩) ، حتى يكسب مزيدا من الوقت يهاجم فيه عبد الواحد الذى يقف قريبا منه عند الأصنام وزحف حنظلة إلى عبد الواحد ومن معه « فلقيهم بالأصنام ، فهزم الله عبد الواحد وجمعه ، وقتل ومن معه قتلا ما يدرى ما هو ، وهرب من هرب منهم » (١٦٠) .

سار حنظلة بعد ذلك برجاله المظفرين نحو موضع القرن قبل أن يبلغ عكاشة الفزاوى نبأ مصرع حليفه عبد الواحد ، وانقض القيروانيون بكل ما عندهم من حماس النصر والقوة على عكاشة الذى أخذ من هول المفاجأة فانهزم وأصحابه (١٦١) . ويقول ابن عبد الحكم : « وهرب عكاشة حتى انتهى إلى بعض نواحى إفريقية فأخذه قوم من البربر أسيراً حتى أتوا به إلى حنظلة فقتله » (١٦٢) .

وكانت الخلافة الأموية آنذاك قد دب فيها الضعف وأصابها الوهن وبدأت تلفظ أنفاسها الأخيرة حيث كانت الدعوة إلى آل البيت على أشدها فى المشرق ، وانشغل الأمويون فى الصراع مع هذه الدعوة وكان لذلك صداه فى بلاد المغرب التى أصبحت مرتعا للمتغلبين عليها من الخوارج والمغامرين من ذوى النفوذ والسلطان (١٦٣) .

وكان عبد الرحمن بن حبيب أحد هؤلاء المغامرين من القادة العسكريين الذين عملوا فى ميدان المغرب (١٦٤) ، وقد هرب إلى الأندلس بعد أن هزم فى بقدورة وهناك حاول أن يصل إلى الإمارة ولكنه فشل فى مسعاه فركب سفينة حملته إلى تونس وهناك قام بالدعوة لنفسه وعاونه فى ذلك العرب والأفارقة ،

---

(١٥٩) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ت . عبد المنعم عامر ، ص ٢٩٩ .

(١٦٠) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(١٦١) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٧٦ .

(١٦٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ت . عبد المنعم عامر ، ص ٢٩٩ .

(١٦٣) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٧٨ .

(١٦٤) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٦٠ .

والبربر الزناتيين ويبدو أن الذى دفعه إلى ذلك أنه كان يشعر أنه زعيم العرب الأفارقة فهو ينتمى إلى أقدم بيوت العرب الفاتحين فجده عقبة بن نافع هو الذى أسس القيروان كما ساهم أبوه حبيب وجده أبو عبيدة بن عقبة بنصيب كبير فى الفتح الإسلامى للمغرب (١٦٥) .

وأراد حنظلة أن يخرج لقتال عبد الرحمن بن حبيب ولكنه كره قتال المسلمين وكان رجلا ذا ورع ودين (١٦٦) . ولعله رأى أن الخلافة الأموية قد تدهورت أحوالها وأنها من الضعف بمكان يصعب معه أن تقوم بمساعدة حنظلة إن هو دخل فى صراع جديد فى المغرب ، لذا قرر حنظلة أن يتنازل عن الإمارة ورحل عن القيروان إلى دمشق فى جمادى الأولى سنة (١٢٧ هـ / ٧٤٤ م) (١٦٧) . وما أن صارت الأمور لمروان بن محمد واستقرت له الخلافة حتى أمَّر عبد الرحمن بن حبيب واليا على المغرب تفاديا للانقسامات والفتن (١٦٨) . وأصبح عبد الرحمن بن حبيب أول أمير استيلاء على ولاية المغرب .

واستطاع عبد الرحمن بن حبيب أن يظل واليا على بلاد المغرب برغم سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ وقيام الدولة العباسية إذا اضطرت الخلافة العباسية إلى الاعتراف بهذا الوالى جريا على قاعدة إمارة الاستيلاء لأنها كانت

---

(١٦٥) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٣٢٠ ، ٣٢١ .

(١٦٦) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٦٠ .

(١٦٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ت : عبد المنعم عامر ، ص ٣٠١ .

(١٦٨) د . إحسان عباس : تاريخ ليبيا ، دار ليبيا للنشر والتوزيع ببنغازى ، الطبعة الأولى ١٩٦٧ ، ص ٤٢ . رفعت فوزى عبد المطلب : الخلافة والخوارج فى المغرب العربى ، الطبعة الأولى ١٩٧٣ ، ص ١١٧ .

فى المراحل الأولى لدعم كيانها فى المشرق [169] .

---

(١٦٩) د . إبراهيم العدوى : بلاد الجزائر ، ص ١٧٤ ، (بقيام العباسيين على عرش الخلافة الإسلامية حدث تطور هام فى الإدارة فى المغرب الأوسط وسائر أرجاء المغرب ، وجاء هذا التطور وليد الأحداث السيئة التى سادت أواخر العصر الأموى ، وقد ظهرت دلائل هذا التطور الجديد فى تطلع نفر من قادة الجيوش إلى السيطرة على مقاليد الحكم رغبة منهم فى تحقيق مطامعهم الشخصية والأسرية ، وانقسم أولئك القادة إلى قسمين : أحدهما جنح إلى الانفراد بالأمور دون رضاء الخلافة وهو النوع الذى أطلق عليه فقهاء المسلمين اسم « أمراء الاستيلاء » والآخر انفرد بإدارة البلاد بتفويض من الخلافة ، وهو ما سماه فقهاء المسلمين باسم « أمراء الاستكفاء » ، نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة) .

(د) انتقال مقاليد الصراع فى المغرب

من الصفرية إلى الإباضية

دخلت ظاهرة الثورات فى بلاد المغرب فى دور جديد من تاريخها عندما أخذت تنتقل مقاليد القيادة فيها من أيدى الصفرية من الخوارج إلى أيدى الإباضية من نفس فرقة الخوارج ، ويعزى السبب فى ذلك إلى أن أهل المغرب ضاقوا ذرعا بعنف الصفرية .

وظهرت بوادر ذلك التطور عندما عين عبد الرحمن بن حبيب أخاه إلياس بن حبيب واليا على طرابلس إحساسا منه بخطر الإباضية عليه بعد أن بايعوا عبد الله بن مسعود التجيبى رئيس الإباضية فى طرابلس إماما لهم (١٧٠) . فما كان من إلياس إلا أن قتل عبد الله بن مسعود التجيبى (١٧١) . وكان لهذا التصرف الأخرق من جانب إلياس عواقبه الوخيمة إذ ثار الإباضية وأخذوا يحتشدون للثورة ، وحاول عبد الرحمن بن حبيب تهدئة الأمور فعزل إلياس عن طرابلس ، ولكن هذا الإجراء من جانب عبد الرحمن لم يحل دون ثورة الإباضية بقيادة إمامهم الجديد الحارث بن تليد الحضرمى وقاضيه ووزيره عبد الجبار بن قيس المرادى (١٧٢) . واستطاع هذان الزعيمان الإباضيان أن يحرزا النصر تلو النصر على قوات عبد الرحمن بن حبيب (١٧٣) . إلا أن عبد الرحمن تمكن فى النهاية من قتلهما ، ويروى ابن عبد الحكم أن خلافا حدث بين الزعيمين الإباضيين

---

(١٧٠) محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، جـ ٢ ، ص ٤١٠ .

(١٧١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ت . عبد المنعم عامر ، ص ٣٠١ .

(١٧٢) د . إحسان عباس : تاريخ ليبيا . ص ٤٣ ، محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، جـ ٢ ، ص ٤١١ .

(١٧٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب . ت . عبد المنعم عامر ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ .

وأنهما اقتتلا فقتل كل منهما الآخر(١٧٤) . وتولى إمامة الإباضية إسماعيل بن زيادة النفوسى ، واستطاع عبد الرحمن بن حبيب القضاء عليه هو الآخر قبل أن يستفحل أمره وفى ذلك يقول ابن عبد الحكم : « فخرج إليه عبد الرحمن بن حبيب حتى إذا كان بقابس قدم ابن عمه شعيب بن عثمان فى خيل فلقيه إسماعيل فقتل إسماعيل وأصحابه ، وأسر من البربر أسارى كثير » (١٧٥) . ولم تهدأ الأحوال لعبد الرحمن إذ واجه ثورات عديدة كان أكثر القائمين بها من بقايا الصفرية وقد أجمل ابن عذارى هذه الثورات فى قوله : « ولما ولى عبد الرحمن ، ثار عليه جماعة من العرب والبربر ، ثم ثار عليه عروة بن الوليد الصدفى فاستولى على تونس ، وثار عليه عرب الساحل وقام عليه ابن عطاف الأزدى وثارت البربر فى الجبال ، وثار ثابت الصنهاجى بباجة فأخذها » (١٧٦) .

وتمكن عبد الرحمن بن حبيب بعد جهود مضنية من إخماد هذه الثورات ، وساعده فى ذلك أخوه إلياس بن حبيب ، وبمرور الوقت ازدادت أقدام عبد الرحمن بن حبيب رسوخا فى إفريقية ، فما أن جاءت سنة (١٣٥ هـ / ٥٢ – ٧٥٣ م) حتى وجه أنظاره نحو المغرب الأوسط (١٧٧) ، إدراكاً منه أن المغرب الأوسط عصب الحياة لأية قوة سياسية تريد البقاء فى بلاد المغرب لذا جهد عبد الرحمن فى أن يجعل هذا الإقليم الهام ضمن ولايته (١٧٨) ، فغزا أرض زنانة بنواحى تلمسان (١٧٩) . وقام بعد ذلك بتأمين سواحل إمارته

---

(١٧٤) نفس المصدر السابق ، ص ٣٠٢ ، (يذكر دبوز أن عبد الرحمن بن حبيب دس إليهما من قتلهما ثم أدخلوا فى كل واحد منهما سيفاً وجعلوا مقبضه إلى جهة الآخر ليتوهم الناس أنهما تنازعا فاقتتلا فقتل كل منهما صاحبه وقد ثار بين الإباضية خلاف شديد حول البراءة منهما أو الشك فى مقتلهما ، محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، جـ ٢ ، ص ٤١٣) .

(١٧٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ت . عبد المنعم عامر ، ص ٣٠٢ .

(١٧٦) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٦١ .

(١٧٧) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٩٣ .

(١٧٨) د . إبراهيم العدوى : بلاد الجزائر ، ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

(١٧٩) ابن خلدون : العبر ، ط . دار الكتاب اللبنانى ، جـ ٤ ، ص ٤٠٧ .

بغزو بحرى لكل من صقلية وسردانية (١٨٠) .

ولكن أحفاد إلياس بن حبيب دفعته إلى قتل أخيه عبد الرحمن سنة (١٣٧ هـ / ٧٥٤ م) ، وسطا على الولاية فأخذها لنفسه (١٨١) من حبيب بن عبد الرحمن صاحب الحق الشرعى فى هذه الولاية ، وترددت الأسرة الفهرية فى صراع دموى قتل فيه إلياس بن حبيب سنة (١٣٨ هـ / ٧٥٥ م) (١٨٢) .

ومضت الأمور فى البلاد من سيئ إلى أسوأ حيث لاذ إخوة إلياس ببطن من بطون بربر نفزة يقال لهم ورفجومة ، وكانوا من غلاة الصفرية ، وهناك طلبوا من أميرها عاصم بن جميل مساعدتهم ضد منافسهم حبيب بن عبد الرحمن وكانت هذه فرصة عظيمة للصفرية لتحقيق أهدافهم السياسية بالاستيلاء على القيروان ، وقد تم لهم ذلك فعلا فاستولوا على القيروان سنة (١٣٨ هـ / ٧٥٥ م) (١٨٣) . وتمكن عبد الملك بن أبى الجعد من قتل حبيب بن عبد الرحمن فى المحرم من سنة (١٤٠ هـ / ٧٥٧ م) (١٨٤) .

وقد استفاد دعاة الإباضية من هذه الأحوال المضطربة ، فنشروا مذهبهم على نطاق واسع وساعدهم على ذلك أن كثيراً من عامة البربر رفضوا سلوك الصفرية ولم يرضوا عن التطرف الشديد الذى ترددوا فيه فقد كانت ثورات الصفرية شراً مستطيراً على البربر ومصالحهم وقد بلغ هذا الشر مداه عندما استولت ورفجومه على القيروان بقيادة أميرها عاصم بن جميل ، وكان قد ادعى النبوة والكهانة . فبدل الدين وزاد فى الصلاة ، وأسقط ذكر النبى ﷺ من

---

(١٨٠) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٩٣ .

(١٨١) نفس المرجع السابق : ص ٣٠٠ .

(١٨٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٦٩ .

(١٨٣) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٣٣٧ .

((١٨٤) نفس المرجع السابق ، ص ٣٣٨ .

الأذان (١٨٥) . وزادت فظائع الصفرية فى القيروان « فاستحلت ورفجومه المحرمات وسبوا النساء والصبيان وربطوا دوابهم فى الجامع وأفسدوا فيه » (١٨٦) .

وتلك ظاهرة خطيرة استغلها دعاة الإباضية فى التقليل من شأن منافسيهم من الصفرية ومن ناحية أخرى فى نشر مذهبهم حتى أصبحوا القوة السياسية الوحيدة التى يمكن لأهل القيروان وغيرهم من البربر أن يستغيثوا بها ضد أعمال الصفرية ومفاسدهم بعد أن قضى على القوة العربية المتمثلة فى آل الفهرى ونجح هؤلاء الإباضية فى إعادة تنظيم صفوفهم من جديد وتولى أمر هذه المهمة حملة العلم الخمسة الذين درسوا أصول المذهب الإباضى فى البصرة على يد داعية الإباضية الأكبر أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة (١٨٧) . ويذكر الشماخى أن رجال الإباضية تشاوروا بموضع يقال له « صياد » فى غربى مدينة طرابلس واستقر رأيهم على تولية أبى الخطاب المعافرى إماماً لهم (١٨٨) .

اتجه أبو الخطاب المعافرى بعد مباعيته إلى طرابلس فاستولى عليها وطرد عاملها عمر بن عثمان القرشى سنة (١٤٠ هـ / ٧٥٧ م) (١٨٩) . واتخذها مقراً

---

(١٨٥) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٣١٥ .

(١٨٦) نفس المصدر السابق ، ص ٣١٥ ، ٣١٦ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٧٠ .

(١٨٧) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٤ .

(١٨٨) الشماخى : السير . ص ١٢٤ ، ١٢٥ (ويذكر الشماخى : أن الاجتماع الذى تمت فيه مبايعة أبى الخطاب أحيط بالسرية التامة حيث تظاهر الإباضية . أن اجتماعهم بسبب أرض أرادوا قسمتها وقيل بسبب رجل وامرأته اختصما فاتعدوا ليوم معلوم يجتمعون فيه ويأتى كل واحد ممن خلفه من أتباعه ويجعلون عدتهم فى غرائر مملوءة تبناً فأخرجوا أبا الخطاب معهم فتكلم فقال امضوا الأمر الذى عزمتم عليه فقامت طائفة يتناجون كل ذلك لا علم لأبى الخطاب بشئ فلما رجعوا من المناجاة قالوا لأبى الخطاب أبسط يدك نبايعك على أن تحكم بيننا بكتاب الله وسنة نبيه عليه السلام وآثار الصالحين من بعده) .

(١٨٩) الشماخى : السير ، ص ١٢٦ ، خير الدين الزركلى : الأعلام ، الطبعة الثانية ، جـ ٤ ، ص ٤٢ .

له ، وما أن انتهى من تنظيم شئونها حتى وصلته أنباء الفظائع التى ترتكبها ورفجومه فى القيروان فقد روى ابن الأثير « أن رجلا من الإباضية دخل القيروان لحاجة فرأى ناساً من الورفجوميين قد أخذوا امرأة قهراً والناس ينظرون فأدخلوها الجامع فترك الإباضى حاجته وقصد أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى فأعلمه ذلك فخرج أبو الخطاب وهو يقول : « بيتك اللهم بيتك » (١٩٠) .

خرج أبو الخطاب لتحرير القيروان من ربقة الصفرية ، فاستولى فى طريقه على قابس وترك عليها عاملا من قبله (١٩١) ، ثم توجه نحو القيروان فالتقى بالصفرية فى موضع قرب القيروان يذكر البكرى أن اسمه رقادة (١٩٢) . وهناك دارت رحى معركة عنيفة أسفرت عن انهزام الصفرية وفرارهم أمام أبى الخطاب الذى دخل القيروان سنة (١٤١ هـ / ٧٥٨ م) (١٩٣) ، فنظم شئونها وترك عليها شخصية من أبرز الشخصيات الإباضية من حملة العلم وهى شخصية عبد الرحمن بن رستم (١٩٤) الذى تألق نجمه فى الأفق السياسى منذ ذلك الوقت فحمل لواء الفكر السياسى فى المغرب الأوسط ومناطق كثيرة من أرجاء المغرب الواسعة ، ونقل هذا الفكر من مرحلة الدعوة والنظريات إلى مرحلة التطبيق والتنفيذ فى إطار أكد

---

(١٩٠) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٣١٦ ، النويرى ، نهاية الأرب : مخطوط ، جـ ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ١٨ ، ١٩ ، الشماخى : السير ، ص ١٢٧ .

(١٩١) نفس المصدر السابق ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(١٩٢) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب : ص ٢٨ (يروى البكرى أنها سميت رقادة لكثرة جثث القتلى ورقادها بعضها فوق بعض) .

(١٩٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٧١ ، ابن خلدون : العبر ، ط . دار الكتاب اللبنانى ، جـ ٤ ، ص ٤١٠ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٣١٦ ، ٣١٧ ، النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط ، جـ ٢٢ . القسم الأول ورقة ١٩ وقارن الشماخى : السير ، ص ١٢٩ .

(١٩٤) نفس المصادر السابقة . نفس الصفحات .

وجوده فى بلاد المغرب تحت اسم الدولة الرستمية (١٩٥) .

وبينما رشحت أحداث الإباضية شخصية عبد الرحمن بن رستم بتوليته شئون القيروان كانت الخلافة العباسية تدلى بدلوها فى توجيه تلك الأحداث إذ وجه الخليفة أبو جعفر المنصور العباسى اهتمامه لاسترداد سلطان الخلافة الإسلامية على بلاد المغرب (١٩٦) .

وأصدر أبو جعفر المنصور أوامره إلى محمد بن الأشعث والى مصر بتحريك الجيوش إلى المغرب ويبدو أن ابن الأشعث استهان بقوة الحركة الإباضية فى إفريقية حيث أرسل قوة من ناحية برقة بقيادة العوام بن عبد العزيز البجلى فخرج إليها أبو الخطاب وما أن وصل ورداسه حتى وجه إلى هذه الحملة صحران الهوارى فلقى العوام وهزمه بأرض سرت (١٩٧) .

فجهز محمد بن الأشعث جيشاً آخر جعل عليه أبا الأحوص عمر بن الأحوص العجلى فلقيه أبو الخطاب بمغمداس سنة (١٤٢ هـ / ٧٥٩ م) ، ودارت بينهما معركة انتهت بهزيمة أبى الأحوص وانسحابه إلى مصر (١٩٨) .

أمام هذه الهزائم المتلاحقة أمر أبو جعفر المنصور محمد بن الأشعث بالتوجه

---

(١٩٥) د . إبراهيم العدوى : بلاد الجزائر ، ص ١٧٦ .

(١٩٦) نفس المرجع السابق ، ونفس الصفحة ، (ويروى النويرى أن جماعة خرجت إلى أبى جعفر المنصور منهم عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، ونافع بن عبد الرحمن السلمى ، وأبو الهلول بن عبيدة ، وأبو العرباض فأتوا المنصور يستنصرون به على البربر ، ووصفوا عظيم ما لقوه ، النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط ، جـ ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ١٩ ، ابن خلدون : العبر ، ط . دار الكتاب اللبنانى ، جـ ٤ ، ص ٤١١) .

(١٩٧) الشماخى : السير ، ص ١٣٠ .

(١٩٨) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٧ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٧١ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٣١٧ ، الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ١٠٩ .

إلى المغرب بنفسه بعد أن أسند إليه ولاية إفريقية (١٩٩) . ولم يكتف بذلك بل أمده بالجيوش ، يذكر النويرى أن عددها كان أربعين ألفا منهم ثلاثون ألف فارس من أهل خراسان وعشرة آلاف من أهل الشام (٢٠٠) ، ويبدو أن هذا الجيش قد تضخم حين خروجه من مصر حتى بلغ خمسين ألفاً من الجنود (٢٠١) ، كان عليهم ثمانية وعشرون قائداً (٢٠٢) ، منهم الأغلب بن سالم التميمى والمحارب بن هلال الفارسى ، والمخارق بن غفار الطائى وهم نواب ابن الأشعث فى القيادة (٢٠٣) .

مضى ابن الأشعث بهذا الجيش الكثيف ، وكان أبو الخطاب قد تهيأ لحرب ابن الأشعث فأرسل فى استدعاء عبد الرحمن بن رستم من القيروان (٢٠٤) ، وتذكر معظم المصادر أن خلافاً كبيراً نشب بين جماعات الإباضية حيث تنازعت زناتة وهوارة واتهمت زناتة أبا الخطاب بالميل إلى هوارة وفارق بعضهم أرض المعركة (٢٠٥) . يقول ابن عذارى : « ثم إن زناتة وهوارة تنازعت فيما بينهما ،

---

(١٩٩) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٣١٧ ، النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط ، جـ ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ١٩ .

(٢٠٠) نفس المصدر السابق ، ونفس الورقة .

(٢٠١) ابن الأثير : الكامل : جـ ٥ ، ص ٣١٧ .

(٢٠٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٧٢ (ويذكر ابن الأبار أن عددهم كان مائة وثمانية وعشرون قائداً ولكن رواية ابن عذارى أقرب إلى الصحة لأن عدد القادة يتناسب وعدد الجيش ، ابن الابار : الحلة السيراء ت . د . حسين مؤنس ، جـ ١ ، ص ٦٩ .

(٢٠٣) النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط ، جـ ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ١٩ ، الشماخى : السير ، ص ١٣١ .

(٢٠٤) النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط ، جـ ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ١٩ .

(٢٠٥) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٧٢ ، النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط ، جـ ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ١٩ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٣١٧ ، (ويبدو أن قبيلة زناتة قد تركت أرض المعركة جملة ولم تشترك فى القتال فالشماخى يروى أن القبائل التى اشتركت مع أبى الخطاب فى القتال هى : نفوسة ، وهوارة وطريشة) .

واتهمت زناتة أبا الخطاب فى ميله مع هوارة ففارقه جماعة منهم » (٢٠٦) . وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى ضعف جبهة الإباضية رغم كثرة عددهم فالتقى ابن الأشعث بمن تبقى مع أبى الخطاب واقتتلوا قتالا شديداً هزمت فيه الإباضية وانتهت المعركة بمقتل أبى الخطاب سنة (١٤٤ هـ / ٧٦١ م) (٢٠٧) .

والشماخى المؤرخ الإباضى لايذكر شيئاً من هذا الخلاف بين زناتة وهوارة وإنما يروى أن انصراف الجموع عن أبى الخطاب كان بسبب خدعة حربية أحكمها ابن الأشعث حول الإباضية حيث تظاهر بالعودة إلى مصر وكان الوقت وقت زرع فتفرق الناس عن أبى الخطاب إلى زروعهم وأوطانهم فدهم ابن الأشعث الإباضية وهم على هذه الحال فهزمهم عند تورغا (٢٠٨) .

وصلت أنباء الكارثة التى حلت بالإباضية إلى مسامع عبد الرحمن بن رستم فسار بأهله إلى المغرب الأوسط وقد حمل معه ما خف من ماله تاركا خلفه القيروان (٢٠٩) التى وصلها محمد بن الأشعث فى جمادى الأولى سنة (١٤٤ هـ / ٧٦١ م) (٢١٠) .

وتأكد لعبد الرحمن بن رستم أن نجاح الإباضية فى منطقة يسود فيها المذهب السنى ، وتقاتل عنها جيوش الخلافة العباسية بضراوة شديدة أمر غير مكفول النتائج (٢١١) ، ولذلك أصبحت منطقة تاهرت فى المغرب الأوسط هى المكان الطبيعى الذى تضمن ظروفه الطبيعية والسياسية إقامة الدولة الإباضية .

---

(٢٠٦) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ، ص ٧٢ .

(٢٠٧) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٣١٧ .

(٢٠٨) الشماخى : السير ، ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(٢٠٩) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٨ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٧٢ .

(٢١٠) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٣١٥ .

(٢١١) د . إحسان عباس : تاريخ ليبيا ، ص ٤٨ .

الفصل الثانى

قيام الدولة

نسب الرستميين :

كان انتقال عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الأوسط إيذاناً بظهور الدولة الرستمية ، التى أصبحت قوة جديدة لها أثرها البالغ فى تشكيل أحداث المغرب كله ، إلى نهاية القرن الثالث الهجرى . والحديث عن الدولة الرستمية يشدنا إلى الحديث عن مؤسسها عبد الرحمن بن رستم الذى أجمعت المصادر على أنه فارسى الأصل (١) . وإن اختلفت هذه المصادر فيما بينها فى تحديد طبيعة هذا الأصل الفارسى .

فالبكرى يرتفع بنسب عبد الرحمن بن رستم إلى أصل ملكى يرتبط بأكاسرة الفرس الساسانيين ، فجده هو : « بهرام بن ذى شرار بن سابور بن بابكان بن

---

(١) اليعقوبى : كتاب البلدان ، ص ٣٥٣ ، ابن خرداذبه : المسالك والممالك ، ص ٨٧ ، المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ت . يوسف أسعد داغر ، دار الأندلس ، بيروت ، ط . ١٩٦٥ ، ص ١٨٦ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٢٢٥ ، ٢٤٦ (يقول السمعانى فى ضبط الاسم رستم الذى تنسب إليه الدولة الرستمية « الرُّسْتَمى » : بضم الراء وسكون السين المهملة وفتح التاء المنقوطة باثنتين من فوقها وفى آخرها الميم ، هذه النسبة إلى رستم ، وهو اسم لبعض أجداد المنتسب إليه ، والمشهور بهذا الانتساب جماعة من أهل أصبهان قديماً وحديثاً . وقد ذكر الطبرى الاسم رستم بفتح التاء ، ويؤيد الطبرى والسمعانى فى ضبط النسب الرستمى على هذا النحو ابن خرداذبه حيث يقول : « وفى يدى » الرستمى « وهو ميمون ابن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وهو من الفرس » . السمعانى : الأنساب ، مخطوط ، نسخة مصورة نشر المستشرق د . س . مرجليوث ، ليدن سنة ١٩١٢ ، ورقة ٢٥٢ ، الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، ت . محمد أبو الفضل إبراهيم ، جـ ٤ ، ص ٢٩٤ ، ابن خرداذبه : المسالك والممالك ، ص ٨٧).

سابور ذى الأكتاف الملك الفارسى » (٢) . ونفس الرواية نجدها عند ياقوت مع مزيد من الإيضاح فى الوصول بهذا النسب إلى الأصل الملكى الفارسى فهو : « بهرام بن بهرام جور بن شابور بن باذكان بن شابور ذى الأكتاف ملك الفرس » (٣) .

أما ابن خلدون ، فيجعل عبد الرحمن بن رستم من أبناء رستم أمير جيش فارس فى موقعة القادسية وقد عبر عن ذلك بقوله : « وكان عبد الرحمن بن رستم من مسلمة الفتح وهو من ولد رستم أمير الفرس بالقادسية » (٤) .

وعند ابن حزم الأندلسى أن بنى رستم ينتمون إلى الملك الفارسى جاماسب بن فيروز ، وجاماسب هذا هو عم أنو شروان يقول : « وبنو رستم ، ملوك تيهرت ؛ من ولد جاماسب » (٥) .

ولا يعقل أن يكون عبد الرحمن بن رستم من أبناء رستم أمير جيش فارس فى موقعة القادسية إذ أن الأقرب إلى المعتاد من الأعمار يجعل فى قبول ذلك كثير من الشك لأن رستم قتل سنة (١٦ هـ / ٦٣٧ م) ، وتوفى عبد الرحمن بن رستم سنة (١٧١ هـ / ٧٨٧ م) ، فيكون عبد الرحمن قد عمر مائة وبضعاً وخمسين سنة ولم يذكر هذا أحد من المؤرخين (٦) . أما نسبة عبد الرحمن بن رستم إلى بهرام

---

(٢) البكرى : المغرب فى بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٧ ، د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٣٧٣ (ويعلق المستشرق زامباور على ذلك النسب بأنه نسب خرافى ، زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ، أخرجه د . زكى محمد حسن ، د . حسن أحمد محمود ، القاهرة ١٩٥١ ، جـ ١ ، ص ١٠٠) .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، ط . دار صادر ودار بيروت ١٩٥٦ ، مادة تاهرت ، جـ ٢ ، ص ٨ .

(٤) ابن خلدون : العبر ، ط . دار الكتاب اللبنانى ، جـ ٦ ، ص ٢٤٦ .

(٥) ابن حزم الأندلسى : جمهرة أنساب العرب ، ت . عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ١٩٦٢ ، ص ٥١١ .

(٦) محمد بن تاويت : دولة الرستميين أصحاب تاهرت ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الخامس ، العدد ١ ، ٢ ، ١٣٧٧ هـ ، ١٩٥٧ م ، ص ١٠٥ .

(مولى عثمان بن عفان) فليس فيه ما يستبعد (٧) ، لان يزدجرد آخر ملوك فارس كان له ابنـان هما بهرام وفيروز ، وثلاث بنات هـن أدرك ، وسهـا ومراد وزبد (٨) .

وينفرد المسعودى من بين المؤرخين برواية تقول : بأن هناك من يرى أن الرستميين من بقايا الإشبان حيث يقول : « وقد كان ميمون بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الفارسى وهو إباضى المذهب ، وهو الذى أنشأ فى ذلك مذهب الخوارج وقيل إنهم (الرستميون) من بقايا الإشبان » (٩) .

وقد اختلف المؤرخون فى حقيقة الإشبان فيرى المسعودى أنهم من الفرس الذين انتقلوا إلى المغرب من بلاد أصبهان (١٠) . وله رأى آخر فى هذا الشأن ذكره فى كتابه أخبار الزمان فهم من ولد سودان بن كنعان الذين تناسلوا بالمغرب (١١) . وفى ضوء هذين الرأيين للمسعودى يصبح الرستميون من سكان المغرب الأصليين الذين كانوا موجودين قبل الفتح الإسلامى للمغرب .

وقد أشار المقرى فى كتابه نفح الطيب إلى رأى ثالث فى حقيقة الإشبان فهم نسبة إلى ملك الأندلس ، إشبان بن طيطش الذى تنسب إليه مدينة إشبيلية ، وقد قيل إن إشبان هذا من عجم رومة أو أنه من أصبهان التى ولد بها (١٢) . وهذا الطرف الأخير من الرواية يعنى أن الإشبان من الفرس وأن الرستميين بالتالى من

---

(٧) نفس المرجع السابق ، ونفس الصفحة، البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٧ .

(٨) المسعودى : مروج الذهب ، ط . المطبعة البهية المصرية ، ١٣٤٦ هـ ، جـ ١ ، ص ١٧٧ (وفى طبعة كتاب التحرير) بدلاً من « سها » شهر بانو وبدلاً من « مراد وزبد » مرداوند ، المسعودى : مروج الذهب ، ط . كتاب التحرير ، ص ٢١٢) .

(٩) المسعودى : مروج الذهب ، ط . دار الأندلس ، ص ١٨٦ .

(١٠) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(١١) المسعودى : أخبار الزمان ، دار الأندلس ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٦٦ ، ص ٨٧ .

(١٢) المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ت . د . إحسان عباس ، دار صادر ببيروت ١٩٦ ، جـ ١ ، ص ١٣٤ ، وانظر أبو عبد الله الحميرى : صفة جزيرة الأندلس ، ت . ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١٩ ، ٢٧ .

أصل فارسى ، كما تعنى هذه الرواية أيضاً أن البيت الرستمى وافد إلى المغرب من الأندلس وقد يكون هذا صحيحاً إلا أن ذلك يعوزه الدليل ولكن الذى يتضح من الروايات السالفة على اختلاف مصادرها أن الرستميين ينتسبون إلى أصل فارسى .

البيت الرستمى :

أسفرت حركة الفتح الإسلامى فى بلاد فارس ، عن انتقال أعداد من الفرس إلى أنحاء الجزيرة العربية ، ليعيشوا ضمن المجتمع الإسلامى تحت اسم الموالى ، وكان بهرام جد عبد الرحمن بن رستم من هؤلاء الموالى ، إذ كان مولى لعثمان بن عفان (١٣) . وطبيعى أن تتدخل علاقة عثمان ببهرام على هذا النحو فى تحديد المدينة مكانا طبيعيا لإقامة بهرام ، حيث يكون قريبا من مولاه عثمان بن عفان ، وبالتالى فإن رستم ولد بهرام أقام فى المدينة . وتعتبر إقامة البيت الرستمى على هذا النحو فى المدينة ، دعما لأركانه الإسلامية حيث يحتمل أنه درج فى بيت الخلافة ، فنهل من فيضها الإسلامى الرفيع ، وغدا ذلك مهيئا عظيما لشخصية عبد الرحمن بن رستم .

طلائع صلة البيت الرستمى بالمغرب :

سلك البيت الرستمى طريقه إلى المغرب ممثلا فى شخص عبد الرحمن بن رستم ، وقد حدد ابن خلدون طلائع علاقة البيت الرستمى بالمغرب بطوالع الفتح الإسلامى لهذه البلاد حين قال : « وقدم (عبد الرحمن بن رستم) إلى إفريقية مع طوالع الفتح فكان بها » (١٤) والمعروف أن الطوالع تتحدد تاريخيا ببداية الفتح وتنتهى بالطوالع التى قدم بها موسى بن نصير لإتمام فتح المغرب نهائيا وضمه إلى الدولة الإسلامية .

---

(١٣) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٧ ، ياقوت : معجم البلدان ، ط . دار صادر ودار بيروت ، جـ ٢ ، ص ٨ .

(١٤) ابن خلدون : العبر ، ط . دار الكتاب اللبنانى ، جـ ٦ ، ص ٢٤٦ .

وللشماخى رواية توضح الإجمال فى رواية ابن خلدون ، حول طلائع علاقة البيت الرستمى ببلاد المغرب يقول : « وكان (عبد الرحمن بن رستم) بمدينة القيروان وسبب وصوله إليها أن أباه رستم بن بهرام . . . قدم مكة حاجا بزوجته وابنه عبد الرحمن فمات فتزوجت زوجته رجلا من القيروان فأقبل مع أمه » (١٥) .

ولم يكن عبد الرحمن بن رستم حين وصل إلى القيروان قد شب عن الطوق ، إذ كان فى طفولته المبكرة ، والقرائن التاريخية تؤكد ذلك ، فإذا عرفنا أن عبد الرحمن رحل إلى البصرة وهو شاب حدث السن (١٦) ، بعد أن تلقى المذهب الإباضى على يد سلمة بن سعيد فى أول القرن الثانى الهجرى (١٧) وقارنا هذه الفترة بطوالع الفتح الأخيرة التى جاء فيها عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب وصلنا بسهولة ويسر إلى أنه كان طفلا صغيرا حين انتقل من الحجاز إلى القيروان .

الموطن الجديد :

أصبحت القيروان موطنا جديدا لعبد الرحمن بن رستم حيث تفتحت مواهبه فى رحابها على يد فقهائها وعلمائها ، فقد كانت القيروان إذ ذاك مصرا من الأمصار الإسلامية الهامة (١٨) ، التى كانت تقف مصدرا وحيدا يشع بالعلم والعرفان فى بلاد المغرب كلها .

وتمثل عبد الرحمن بن رستم ما استطاع تمثله من ثقافة القيروان ، ولكنه مال إلى تعاليم الخوارج كما يقول ابن خلدون : « وأخذ (عبد الرحمن بن رستم) بدين الخارجية والإباضية منهم (١٩) ، وكان ذلك بتأثير من سلمة بن سعيد داعية

---

(١٥) الشماخى : السير ، ص ١٢٤ .

(١٦) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٩ ، أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط بمعهدالمخطوطات بجامعة الدول العربية ، ميكروفيلم برقم ١٧٣٦ ، ورقة ٥ ب .

(١٧) الشماخى : السير ، ص ١٢٣ ، د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٣٤ ، ٥٣٥.

(١٨) د . إبراهيم العدوى : بلاد الجزائر ، ص ١٨٧ .

(١٩) ابن خلدون : العبر ، ط . دار الكتاب اللبنانى ، جـ ٦ ، ص ٢٤٦ .

الإباضية الذى كان يجتهد آنذاك فى نشر المذهب الإباضى فى ربوع المغرب (٢٠) . وقد حفظ الدرجينى فى طبقاته نصا جاء على لسان عبد الرحمن بن رستم نفسه يؤكد العلاقة الوطيدة بينه وبين هذا الداعية الإباضى فقد قال عبد الرحمن بن رستم : « أول من جاء يطلب مذهب الإباضية ونحن بقيروان إفريقية سلمة بن سعيد قال : (عبد الرحمن بن رستم) قدم علينا من أرض البصرة ومعه عكرمة مولى ابن عباس معتقين على بعير وسلامة يدعو إلى مذهب الإباضية وعكرمة يدعو إلى مذهب الصفرية وسمعت سلامة يقول وددت أن لو ظهر هذا الأمر يعنى مذهب الإباضية يوما واحدا أو النهار إلى آخره فلا آسف على الحياة بعده فقام عبد الرحمن مجتهدا فى طلب ذلك الأمر » (٢١) .

ويلاحظ أن عبد الرحمن بن رستم عندما اعتنق المذهب الإباضى كما قال ابن خلدون ، كان ذلك المذهب قد تطور تطورا جعله قريبا من مذهب أهل السنة (٢٢) . وهو أمر كانت له دلالته فى الأسس التى شيد عليها عبد الرحمن بن رستم دولته .

فهذا المذهب ينتسب إلى عبد الله بن إباض المرى التميمى الذى يصفه الدرجينى بأنه كان إماما لأهل الطريق ورئيسا لإباضية البصرة وغيرها من الأقطار (٢٣) . ويمثل المذهب الإباضى آخر تطورات الفكر الخارجى (٢٤) لأن حركة الخوارج أخذت تلفظ من بين صفوفها دعاة التطرف وتجنح إلى كثير من

---

(٢٠) الشماخى : السير ، ص ١٢٣ .

(٢١) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٦ ، أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ٢ أ .

(٢٢) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٥٦ ، ٣٠٩ .

(٢٣) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٩٣ ، البغدادى : الفَرق بين الفِرق ، ت . محمد محيى الدين عبد الحميد ، مكتبة محمد على صبيح ، القاهرة ، ص ١٠٣ .

(٢٤) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٨٧ .

الاعتدال ، وتجلى ذلك فى مدينة البصرة مركز هذه الحركة بالعراق . فقد تضامن أهل هذه المدينة ضد الخوارج وأخرجوا منها كل متطرف مثل : نافع بن الأزرق ولم يبق بالمدينة غير اثنين هما ابن إباض وابن الصفار وعلى ذلك انقسم الخوارج إلى قسمين ، نادى أحدهما بالجهاد وهو القسم الأول المتطرف الذى انهار أمام طرقات الأمويين العنيفة ، على حين ظل القسم الآخر المعتدل يتابع نشاطه فى خطى وئيدة ومضطردة ، وانقسم الفريق المعتدل بدوره إلى قسمين ، مال أحدهما بقيادة ابن إباض إلى مزيد من التسامح مع المخالفين ، والآخر إلى التزامه بنوع من عدم التساهل مع المخالفين (٢٥) .

وتتضح أهم معالم الفكر الإباضى فى المبادئ التى نادى بها شيوخ هذا المذهب والتى شرحها البغدادى والشهرستانى على النحو التالى . فالإباضية اعتبروا أن مخالفيهم من هذه الأمة ليسوا مؤمنين ولا مشركين وإنما هم كفار بالنعم ، ولذلك أجازوا شهادتهم وحرموا دماءهم فى السر واستحلوها فى العلانية ، وصححوا مناكحتهم والتوارث منهم ، واستحلوا من أموالهم الخيل والسلاح فى حالة الحرب (٢٦) . كما اعتبروا أن دار مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد إلا معسكر السلطان (٢٧) . بمعنى أنها (دار المخالفين لهم) ليست أرض أعداء وإنما هى وطن للجميع من الخوارج وغير الخوارج دون تمييز ، كما اعتبر علماء الإباضية مرتكبى الكبائر وجميع المقصرين فى الشئون الدينية موحدين لا مؤمنين ، وقد كان هذا التمييز حدثا هاما فى الحركة الخارجية ، لأن الأزارقة اعتبروا الشرك واحدا وطبقوه على جميع المخالفين لهم فى تطرف شديد (٢٨) . وقد ترتب على هذه المبادئ القول بالعقود عند الإباضية وعدم محاربتهم للمخالفين لهم بل لقد فتحت

---

(٢٥) د . إبراهيم العدوى : بلاد الجزائر ، ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٢٦) البغدادى : الفَرق بين الفِرق . ص ١٠٣ . الشهرستانى : الملل والنحل ، ت . عبد العزيز محمد الوكيل ، مؤسسة الحلبى ، القاهرة ١٩٦٨ ، جـ ١ ، ص ١٣٤ .

(٢٧) البغدادى : الفَرق بين الفِرق ، ص ١٠٣ . الشهرستانى : الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٣٤ .

(٢٨) د . إبراهيم العدوى : بلاد الجزائر ، ص ١٦٥ .

الباب على مصراعيه لمعاشرة هؤلاء المخالفين والاشتراك معهم فى الحياة العامة . وبذلك أصبحت جماعة الإباضية مسالمة إلى أقصى حد وأصبح مذهبها أقرب المذاهب إلى مذهب أهل السنة (٢٩) .

على أن جماعة الإباضية لقيت الكثير من العنت والاضطهاد من جانب الأمويين فى أواخر القرن الأول الهجرى على يد الحجاج بن يوسف الثقفى (٣٠) . مما جعل أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة – الذى كان شيخا للمذهب الإباضى آنذاك – يفكر فى نشر المذهب الإباضى فى أطراف الدولة الإسلامية ، وعلى الأخص فى بلاد المغرب . فاختار رجلا من أنشط تلاميذه وهو سلمة بن سعيد وكان ذلك استغلالا ذكيا من أبى عبيدة ، فالمغرب بعيد عن مقر الخلافة الأموية فى دمشق ، وهذا يهيئ للدعاة الأمان من ضربات الحكومة المركزية كما أن أرض المغرب ما زالت ميدانا بكراً تستطيع أفكارهم أن تصول وتجول فيه لأن البربر ما زالوا قريبى العهد بالإسلام ، وأصبح من السهل على الدعاة أن يوجهوا سكانه إلى حيث يريدون ، ومما ساعد الدعاة على التقدم فى مهمتهم سوء الإدارة العربية واضطرابها نتيجة لسياسة بعض ولاة المغرب .

وأمام كل هذه الظروف نجحت الدعوة للمذهب الإباضى فى بلاد المغرب على نحو تجاوز كل تقدير فى الحسبان (٣١) مما جعل البربر يتوقون إلى التعمق فى دراسة المذهب من أصوله المشرقية فكونوا بعثة علمية رحلت إلى البصرة ، ولقبوا أصحابها حملة العلم وكان من بينهم عبد الرحمن بن رستم .

---

(٢٩) نفس المرجع السابق ، ونفس الصفحة . د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٣٠٩ ، د . محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية فى الدولة العربية الاسلامية خلال القرنين الأول والثانى بعد الهجرة . دار الفكر العربى ١٩٦٠ ، ص ١٣١ .

(٣٠) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٣٤ .

(٣١) المرجع السابق ، ص ٥٣٥ .

حملة العلم :

كانت البعثة العلمية التى سمى أصحابها حملة العلم هى أولى الثمارالحقيقية التى جناها دعاة الإباضية فى المغرب ، إذ أن هذه البعثة تمثل مرحلة الإعداد الفكرى للأشخاص الذين سيقومون بالتطبيق العملى لمبادئ الفكر الإباضى فى بلاد المغرب ، ومن ثم كان حرص سلمة بن سعيد على أن تعد هذه البعثة إعدادا خاصا على أئمة المذهب فى البصرة .

واختار سلمة بن سعيد لهذه المهمة أربعة من تلاميذه المخلصين هم عبد الرحمن بن رستم ، وعاصم السدراتى ، وإسماعيل بن درار الغدامسى ، وأبو داود النفزاوى (٣٢) . وراعى سلمة فى هذا الاختيار أن يكونوا من أماكن متفرقة حتى يتيحوا للدعوة الإباضية فرصة الانتشار فى أكبر مساحة ممكنة فى بلاد المغرب بعد عودتهم (٣٣) . فعبد الرحمن بن رستم كان من القيروان ، وعاصم السدراتى من غرب الأوراس والمغرب الأوسط ، وأبو داود النفزاوى كان ينتمى إلى نفزاوة فى جنوب إفريقية ، أما إسماعيل بن ضرار الغدامسى فهو من غدامس فى جنوب طرابلس (٣٤) .

وعندما وصلت هذه البعثة إلى البصرة انضم إليها أحد دعاة الإباضية العاملون فى اليمن ، وحضرموت ، وهو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح (٣٥) .

ويبدو أن حملة العلم وصلوا إلى البصرة فى ظروف سياسية اقتضت من الإمام أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة أن يلقنهم العلم « فى سرب على فمه سلسلة

---

(٣٢) الشماخى : السير ، ص ٩٨ ، ١٢ ، الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٤ .

(٣٣) على يحيى معمر : الإباضية فى موكب التاريخ ، مكتبة وهبة : الحلقة الثانية ، القسم الأول ، ص ٢٦ .

(٣٤) دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، جـ ٣ ، ص ١٨٨ .

(٣٥) المرجع السابق ، ص ١٩٥ .

فإذا أقبل أحد حركت حركت فيسكتون وإذا انصرف حركت فيأخذون فى القراءة » (٣٦) .

عكفت هذه الجماعة مدة امتدت إلى خمس سنين (٣٧) ، درست خلالها المذهب الإباضى كما درس أفرادها أحوال المغرب السياسية وأنسب الأوضاع لإقامة دولة إباضية ، وانتهت هذه الدراسة بترشيح أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى رئيساً لهذه الدولة المنتظرة يقول الدرجينى : « فقالوا يا شيخنا أرأيت لو كانت لنا فى المغرب قوة ووجدنا فى أنفسنا طاقة فنولى علينا رجلا منا فقال لهم أبو عبيلة توجهوا إلى بلادكم فإن يكن من أهل دعوتكم من العَدد والعُدد ما تجب معه التولية عليكم فولوا على أنفسكم رجلا منكم فإن أبا فاقتلوه وأشار إلى أبى الخطاب » (٣٨) .

وأصبح حملة العلم بعد عودتهم إلى بلاد المغرب من البصرة يمثلون طلائع الرابطة الجديدة التى غدت تربط بين المغرب العربى والمشرق العربى ، ورمزاً للتجاوب بين التيارات الفكرية السائدة بينهما (٣٩) .

ظهور عبد الرحمن بن رستم على مسرح الأحداث :

عاد عبد الرحمن بن رستم مع زملائه حملة العلم من البصرة وأصبح أقوى

---

(٣٦) الشماخى : السير ، ص ١٢٤ ، (والمعروف أن أبا عبيدة مسلم بن أبى كريمة تعرض للاعتقال من جانب السلطات الأموية فقد سجنه الحجاج مع جماعة من الإباضية ، ولم يُفرج عنه إلا فى خلافة سليمان ابن عبد الملك ، د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٣٤) .

(٣٧) الشماخى : السير ، ص ١٤٢ .

(٣٨) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٩ .
(« أبا » هكذا فى الأصل ، وذكر أبو زكرياء النص مع اختلاف فى اللفظ ، أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ٦ أ) .

(٣٩) د . إبراهيم العدوى : بلاد الجزائر ، ص ١٦٦ .

مساعدى أبى الخطاب فقد ولاه منصب القضاء فى طرابلس (٤٠) . وبعد استيلاء أبى الخطاب على القيروان سنة (١٤١ هـ / ٧٥٨ م) أسند إلى عبد الرحمن بن رستم إدارة شئونها (٤١) ، بالإضافة إلى قسم من بلاد المغرب الأوسط كان سكانه من الإباضية ، يمتد من جزائر بنى مزغنة إلى وهران (٤٢) .

ومن القيروان استطاع عبد الرحمن بن رستم أن يراقب المغرب الأوسط عن كثب ، وأن يغذى المذهب الإباضى بالكثير من الأنصار والأتباع ، إذ رأى فى المغرب الأوسط امتدادا يحمى الدولة الناشئة فى طرابلس ، ويؤكد نظرة عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الأوسط ، ما تحدث عنه ابن خلدون من وجود تحالف وطيد بين عبد الرحمن بن رستم وبين قبيلة لماية البترية التى كانت تسكن ذلك الإقليم(٤٣) .

ولكن عبد الرحمن بن رستم لم ينعم بمقامه طويلا فى القيروان ذلك أن الخليفة العباسى المنصور أرسل قائده محمد بن الأشعث لضرب الإباضية فى المغرب وعلى رأسهم أبو الخطاب سنة (١٤٤ هـ / ٧٦١ م) ورأى هذا القائد العباسى فى عبد الرحمن بن رستم أكبر الخطر على وجود العباسيين فى بلاد المغرب ، وكان عبد الرحمن بن رستم قد خرج فى جيش عظيم لدعم قوات أبى الخطاب التى زحفت لمقاومة جند ابن الأشعث ، وما أن وصل هذا الجيش إلى قابس حتى بلغته أنباء بمقتل أبى الخطاب وهزيمته (٤٤) . فعاد مسرعا إلى

(٤٠) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٨٤ ، أبو الربيع سليمان البارونى : مختصر تاريخ الإباضية ، مكتبة الاستقامة بتونس ، الطبعة الثانية ، ص ٣٠ .

(٤١) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٨ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٧١ ، ياقوت : معجم البلدان ، ط . دار صادر ودار بيروت ، جـ ٩ ، ص ٨١٥ ، (ويذكر اليعقوبى فى كتابه البلدان : أن عبد الرحمن بن رستم كان يتولى أمر إفريقية كلها وليست القيروان وحدها . اليعقوبى : البلدان ، ص ٣٥٣) .

(٤٢) أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ٦ أ . د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٣٧ .

(٤٣) ابن خلدون : العبر ، ط . دار الكتاب اللبنانى ، ص ٢٤٧ ، JULIEN, op. cit p. 31, 32.

(٤٤) الشماخى : السير ، ص ١٣٢ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٢ ، ابن خلدون : العبر ، ط . دار الكتاب اللبنانى ، جـ ١ ، ص ٤١١ .

القيروان ، فوجد أن الأمور قد ازدادت سوءا فيها ، وأخذ أهل القيروان عامله فأوثقوه فى الحديد ، وولوا على أنفسهم عمر بن عثمان القرشى (٤٥) . وهكذا تبددت آمال عبد الرحمن بن رستم ، ولم يكن أمامه إلا أن يفر بنفسه وأهله إلى المغرب الأوسط .

التجاء عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الأوسط :

وجد عبد الرحمن بن رستم أن من الأسلم له ولأتباعه النجاة إلى المغرب الأوسط فهناك يستطيع بفضل أنصاره وأتباعه أن يقيم دولة على المذهب الإباضى على غرار دولة أبى الخطاب فى طرابلس فخرج مستخفيا قاصدا المغرب الأوسط (٤٦) .

وقد أحاط كتاب الإباضية فرار عبد الرحمن بن رستم بهالة قصصية فيها شئ من البطولة وقوة الإرادة ، فقد وقع عبد الرحمن بن رستم قبل فراره من القيروان فى يد عبد الرحمن بن حبيب ولكنه أطلقه بعد أن تشفع له أحد القيروانيين من ذوى المكانة عند عبد الرحمن بن حبيب (٤٧) . ويبرر الشماخى سوء العلاقة بين عبد الرحمن بن رستم وبين عبد الرحمن بن حبيب بأن : « ابن رستم حين أراد المسلمون توليته (أى عبد الرحمن بن حبيب) لبعض أمورهم قال : إن ابن حبيب إبليس أو شيطان فى صورة إنسان فحقدها عليه ابن حبيب » (٤٨) .

---

(٤٥) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٧٢ .

(٤٦) د . السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ص ٥٣٩ .

(٤٧) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٣٨٠ ، (ويروى الشماخى ذلك بشئ من التفصيل فيقول : « قدم ابن الأشعث وقام عبد الرحمن بن حبيب يلتمس عبد الرحمن بن رستم وفر رحمه الله إلى المغرب . قال أبو يحيى : ظفر به عبد الرحمن ابن حبيب فتشفع فيه رجل من أهل القيروان فقال له ابن حبيب كل حاجة لك عندى مقضية إلا ابن رستم ، فقال إن لم أسألك ابن رستم فمن ذا أسألك ؟ فأطلقه له » الشماخى : السير ، ص ١٣٣ » ، وعبد الرحمن بن حبيب هذا حفيد عبد الرحمن بن حبيب (الفهرى) : انظر (د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٣٣٠) .

(٤٨) الشماخى : السير ، ص ٤٣٣ ، (ونفس النص موجود عند أبى زكرياء مع اختلاف فى اللفظ) (أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ورقة ١١ أ) .

وأيما كان الأمر فقد أفلت عبد الرحمن بن رستم من قبضة عبد الرحمن بن حبيب وخرج من القيروان جادا فى المسير سنة (١١٤ هـ / ٧٦١ م) (٤٩) . ولم يكن معه شئ إلا ما خف من ماله وابنه عبد الوهاب ومملوكه وفرسه (٥٠) ، وما سار هذا الركب غير قليل حتى ماتت الفرس فدفنوها حتى لا يتبع آثارهم أحد ممن يجدون فى طلبهم ، ولما تعب عبد الرحمن من السير وأدركه الإعياء والملل صار ابنه عبد الوهاب وغلامه يحملانه بالتناوب (٥١) ، وغدا كل منهما يقول لصاحبه : « إن أدركنا العدو فما دون الخمسمائة لا تضع الشيخ لجلدهما وشجاعتهما » (٥٢) .

وقد سلك عبد الرحمن بن رستم فى سيره الطريق الجنوبية المارة بقسطيلية (٥٣) ، إذ واصل عبد الرحمن بن رستم طريقه من جنوب نفطة مخترقا شمال وادى سوف ، متجها إلى الغرب على شمال (تيفورت) ومدينتى القرارة وبير ريان من وادى ميزاب إلى مدينة الأغواط ومن غرب هذه المدينة اخترق جبال بنى راشد فذهب شمالا على شرق مدينة (آفلو) وغرب وادى شلف حتى انتهى به الطريق إلى وادى (سوفجج) وعين سوفجج التى تنبع من سفح جبل سوفجج (٥٤) . ويؤيد هذا ما ذهب إليه الدرجينى من أن عبد الرحمن بن رستم دفن فرسه التى ماتت فى خارج جهة قسطيلية وأن هذا الموضع سمى قبر الفرس (٥٥) .

---

(٤٩) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٨ .

(٥٠) الشماخى : السير ، ص ١٣٣ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٢ ، وقارن البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٨ .

(٥١) الشماخى : السير ، ص ١٣٣ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٣ .

(٥٢) الشماخى : السير ، ص ١٣٣ .

(٥٣) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٤٠ .

(٥٤) دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، جـ ٣ ، ص ٢٥٦ .

(٥٥) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ١٦ .

وتعتبر منطقة سوفجج – التى لجأ إليها عبد الرحمن بن رستم – من أمنع المناطق الجبلية فى المغرب الأوسط ، فسوفجج هو الجبل الرابع من سلسلة الجبال التى تمتد من مدينة (السوفر) فى الجنوب الغربى لمدينة تاهرت ، ومدينة شلالة فى الجنوب الشرقى منها (٥٦) ، وحول هذا الجبل كانت مواطن لماية ولواتة وهوارة (٥٧) وهى قبائل كانت قوية الصلة بالمذهب الإباضى بل إن لماية كانت على صلة قوية بعبد الرحمن بن رستم ، لذا فقد آثر أن ينزل بين أبناء هذه القبيلة ، وقد حفظ لنا ابن خلدون نصا يؤكد هذه الحقيقة الهامة يقول ابن خلدون : « وقتل أبو الخطاب وطار الخبر بذلك إلى عبد الرحمن بن رستم بمكان امارته فى القيروان فاحتمل أهله وولده ولحق بإباضية المغرب الأوسط من البرابرة الذين ذكرناهم ونزل على لماية لقديم حلف بينه وبينهم » (٥٨) .

وما أن وصل عبد الرحمن بن رستم إلى سوفجج حتى سمع به « وجوه الإباضية وعلماؤهم فقصدوه من كل النواحى حتى اجتمع عنده من طرابلس وجبل نفوسة من العلماء ، فقط ما يزيد على ستين من أكابر العلماء وأهل الفضل والرأى » (٥٩) .

أخذت أخبار عبد الرحمن بن رستم تملأ الآفاق فى المغرب الأوسط حتى وصلت مسامع محمد بن الأشعث فى القيروان ، فجهز جيشا سار به نحو سوفجج ونزل فى سفحه وحفر خندقا حول معسكره خوفا من هجوم عبد الرحمن بن رستم ومن معه عليه وظل محاصراً للجبل مدة طويلة حاول خلالها اقتحام الجبل بكل الوسائل ولكنه فشل (٦٠) . واضطر إلى فك الحصار والعودة إلى القيروان بعد

---

(٥٦) دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، جـ ٣ ، ص ٢٥٧ .

(٥٧) المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٥٨ .

(٥٨) ابن خلدون : العبر ، ط . دار الكتاب اللبنانى ، جـ ٦ ، ص ٢٤٧ .

(٥٩) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٣ .

(٦٠) الشماخى : السير ، ص ١٣٣ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٣ .

أن تفشى داء الحمى والجدرى بين جنوده ومات منهم خلق كثير (٦١) . وانسحب إلى القيروان قائلا : « ان سوفجج لا يدخله إلا دارع ومدجج » (٦٢) .

أخذت فلول الإباضية تتجمع ، وتتكاثر على جبل سوفجج الذى اتخذوه مكانا يتدربون فيه على القتال ، ويستعدون لخوض المعارك التى ستواجههم (٦٣) واستطاع عبد الرحمن بن رستم أن يقف على قدميه أمام الأحداث ويسير بخطى ثابته فى المغرب الأوسط بينما عاد ابن الأشعث إلى القيروان محاولا تثبيت أقدام العباسيين فى إفريقية ، ولم يكن ذلك بالأمر الهين عليه ، فما لبث أن واجهته ثورة الجند الخلافى ، ولم تنته هذه الثورة إلا بإخراجه من المغرب سنة ١٤٨ هـ (٦٤) . وخلفه الأغلب بن سالم الذى لم يسلم هو الآخر من ثورات جند الخلافة عليه ، فراح ضحية سهم طائش أصيب به حينما كان يخضع أحد الجنود الثائرين وهو الحسن بن حرب الكندى سنة (١٥٠ هـ / ٧٦٧ م) (٦٥) .

التحالف الإباضى الصفرى :

لما بلغ أبا جعفر المنصور نبأ قتل الأغلب بن سالم بعث إلى إفريقية عمر بن حفص الذى وصلها سنة (١٥١ هـ / ٧٦٨ م) ، وعرف عمر هذا بشجاعته الفائقة فى ميادين الحرب والقتال حتى أنه لقب بهزارمرد هى كلمة فارسية معناها ألف رجل (٦٦) . وهدأت الأحوال فى عهده واستقامت الأمور طيلة ثلاث

---

(٦١) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(٦٢) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٣ .

(٦٣) محمد بن تاوبت : دولة الرستميين أصحاب تاهرت ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، ص ١٠٨ .

(٦٤) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٧٣ ، ابن الابار : الحلة السيراء ، ت . د . حسين مؤنس ص ٦٩ .

(٦٥) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٧٥ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٥٨٧ .

(٦٦) النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط ، جـ ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ٢٠ ، ابن خلدون : العبر ، ط . دار الكتاب اللبنانى ، جـ ٤ ، ص ٤١٢ .

سنوات (٦٧) ، وقد أغرى ذلك السكون أبا جعفر فتطلع إلى بسط سلطان الخلافة على المغرب الأوسط فأمر عمر بن حفص بالتوجه إلى طبنة قاعدة إقليم الزاب لتحصينها وبناء سورها (٦٨) . وقد أشار النويرى وابن أبى دينار إلى الكتاب الذى أرسله أبو جعفر إلى عمر بن حفص فى هذا الشأن (٦٩) .

وتعتبر قاعدة طبنة المفتاح الذى يجب الاحتفاظ به للتحكم فى المغرب الأوسط فضلا عن أنها السبيل لاسترداد القيروان نفسها إذا ما سقطت فى أيدى الأعداء (٧٠) . وأحس عبد الرحمن بن رستم ومن معه من الإباضية بخطورة العمل الذى أقدم عليه عمر بن حفص « فاتفق ابن رستم مع أنصاره فى طرابلس وجنوب إفريقية وتلمسان على الانتقاض ومحاربة العباسيين » (٧١) ، ويدل ذلك على أن الأمور كانت تسير بتنسيق تام بين جماعات الخوارج فى بلاد المغرب على اختلاف مذاهبها ومواطنها .

استخلف عمر بن حفص على القيروان حبيب بن حبيب المهلبى (٧٢) ، وخرج هو إلى طبنة لتنفيذ المهمة التى كلف بها ، حينئذ ثار البربر بإفريقية وزحفوا نحو القيروان ، فخرج إليهم حبيب بن حبيب المهلبى فقتلوه (٧٣) .

---

(٦٧) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٥٩٨ .

(٦٨) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٣٥٠ ، ٣٥١ .

(٦٩) النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط ، جـ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ٢٠ ، ٢١ ، يقول النويرى : « وكان كتاب المنصور قدم عليه بالشخوص إلى الزاب لبناء طبنة » ، وقارن ابن أبى دينار : المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ، ص ٤٦ .

(٧٠) د . إبراهيم العدوى : بلاد الجزائر ص ١٧٨ .

(٧١) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٣٥١ .

(٧٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٢٩٨ .

(٧٣) ابن خلدون : العبر ، ط . دار الكتاب اللبنانى ، جـ ٤ ، ص ٤١٢ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٥٩٨ .

وفى نفس الوقت اجتمع البربر الإباضية فى طرابلس وولوا عليهم أبا حاتم يعقوب ابن حبيب الإباضى (٧٤) ، الذى ألحق الهزيمة بالجنيد بن بشار عامل عمر بن حفص على طرابلس ، ولم يكتف بذلك بل تقدم وحاصرت قواته القيروان ، واشترك أيضا فى حصار عمر بن حفص المقيم بطبنة(٧٥)

واشتعلت نيران الفتنة بإفريقية وجاءتها جيوش الإباضية الصفرية من كل فج ، ويجمع معظم المؤرخين على أن هذه الجيوش بلغت اثني عشر عسكراً (٧٦) ، « ورؤساؤهم أبو قرة الصفرى فى أربعين ألفاً وعبد الرحمن بن رستم الإباضى فى خمسة عشر ألفاً ، وأبو حاتم فى عدد كثير وعاصم السدراتى فى عدد كثير : قيل فى ستة آلاف والمصور الزناتى فى عشرة آلاف وعبد الملك بن سكرديد الصنهاجى الصفرى فى ألفين سوى جماعات أخرى » (٧٧) .

اتجهت هذه الجيوش كلها نحو الزاب لتحاصر عمر بن حفص الذى كان فى خمسة عشر ألفاً وخمسمائة (٧٨) . وانجلى الموقف عن نتائج خطيرة ، فالقيروان تحاصرها القوات الإباضية ، وعمر بن حفص تحاصره قوات التحالف الإباضى الصفرى ، وإزاء هذا جمع عمر بن حفص قواده واستشارهم فيما يفعله فأشاروا عليه بالبقاء فى طبنة وقالوا : « أخرج منا من أردت إلى عدوك ولا تخرج أنت ، فإنك إن أصبت تلف المغرب وفسد » (٧٩) .

ولم يكن أمام عمر بن حفص إلا أن يعمل الحيلة لتفريق هذه الجموع ،

---

(٧٤) ابن خلدون : العبر ، دار الكتاب اللبنانى ، جـ ٤ ، ص ٤١٢ .

(٧٥) النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط ، جـ ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ٢١ .

(٧٦) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٧٥ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٥٩٩ ، النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ٢١ .

(٧٧) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٧٥ .

(٧٨) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(٧٩) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٧٥ ، ٧٦ .

فأرسل إلى أبى قرة رسولا برشوة من المال تقدر بستين ألف درهم ليرجع عن حصار طبنة ولكن أبا قرة رفض ذلك بشدة قائلا : « بعد أن سلم على بالخلافة أربعين سنة أبيع حربكم بعرض قليل من الدنيا » (٨٠) . فانصرف رسول عمر بن حفص إلى أخى أبى قرة ، ونجح فى مهمته وقدم إليه أربعة آلاف درهم وثيابا ليعمل فى صرف أخيه عن حصار طبنة ، فأجابهم وارتحل فى نفس الليلة عن طبنة وتبعه العسكر منصرفين إلى بلادهم فلم يجد أبو قرة بدا عن اتباعهم وانسحب مضطرا من أرض الحصار (٨١) .

وبعد نجاح هذه الحيلة ، لم يعد أمام عمر بن حفص إلا أن يحطم قوة الإباضية الذين كانوا يحتفظون بقواتهم الرئيسية عند تهوذة بقيادة عبد الرحمن بن رستم . والذى يظهر من الروايات التى ذكرها المؤرخون (٨٢) أن عبد الرحمن بن رستم ، فوجئ بقوات عمر بن حفص تهاجمه بقيادة معمر بن عيسى العبدى . ورغم صغر حجم هذه القوات المهاجمة ، التى ذكر الرقيق أنها كانت ألفاً وخمسمائة جندى بينما كان عبد الرحمن بن رستم فى خمسة عشر ألفاً ، فقد استطاعت هذه القوة الصغيرة إلحاق الهزيمة بجيش عبد الرحمن بن رستم الكثيف ، وهذا ما يؤكد تحقق عنصر المفاجأة التامة ، الأمر الذى جعل خسائر ابن رستم كثيرة جداً ، إذ قدرها ابن عذارى بثلاثة آلاف جندى (٨٣) .

---

(٨٠) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٢٩٩ .

(٨١) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٧٦ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٥٩٩ .

(٨٢) الرقيق القيروانى : تاريخ إفريقية والمغرب ، ت . المنجى الكعبى ، طبعة تونس ، ص ١٤٣ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٦٧ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٥٩٩ ، النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط بمجلد ٢٢ ، القسم الأول ، ورقة ٢١ ، (ويذكر النويرى أن اسم القائد الذى هاجم عبد الرحمن بن رستم هو معمر بن عيسى السعدى) .

(٨٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٧٦ .

تراجع عبد الرحمن بن رستم منهزما إلى إقليم تاهرت (٨٤) . وكانت هذه الهزيمة نقطة تحول بارزة فى تاريخ قيام الدولة الرستمية ، فقد رأى عبد الرحمن بن رستم أن ينسلخ عن قوى الصفرية المتضاربة التى لا تجمعها أهداف واحدة ، وفضل أن يعمل بمفرده معتمداً على نفسه وعلى التجمعات الإباضية التى تقف حوله في المغرب الأوسط . وهكذا حمل الإباضية بقيادة عبد الرحمن بن رستم أعباء الصراع فى المغرب الأوسط بعد أن تراجعت قوى الصفرية تلك القوى التى وجدت نفسها فى مأمن هناك فى المغرب الأقصى .

مبايعة عبد الرحمن بن رستم بالإمامة :

كان عبد الرحمن بن رستم يحمل شخصية الداعية القوى ، التى تستطيع أن تستقطب حولها المؤيدين بسرعة ، وعلى الرغم من أن المصادر لم تذكر شيئاً عن عبد الرحمن بن رستم فى الفترة ما بين انهزامه أمام قوات عمر بن حفص وبين مبايعته بالإمامة سنة (١٦٠ هـ / ٧٧٦ م) (٨٥) ، فالذى يظهر أن عبد الرحمن قضى هذه الفترة فى تنظيم وتدعيم صفوف الإباضية ، وفى نفس الوقت قام بدعاية واسعة شملت المغرب الأوسط كله .

وقد كان للوضع الجغرافى للمنطقة التى تمركز فيها عبد الرحمن بن رستم أثره فى نماء قوته ، ونجاح الدعاية الواسعة التى قام بها لنشر تعاليم المذهب الإباضى ، إذ ساعد على نجاح دعوة ابن رستم أن المنطقة التى نزلها تعتبرامتدادا لبلاد الزاب ، وأن كثيرا من قبائلها من لواتة وهوارة وزواغة ومطماطة ، أصلها من أقاليم المغرب الشرقية فى طرابلس ونفزاوة وبلاد الجريد – مهد الدعوة الإباضية – ولقد سهل هذا الأمر مسير كثير من إباضية تلك الاقاليم إلى ابن رستم حيث أقاموا بين بنى جلدتهم فى المغرب الأوسط » (٨٦) .

---

(٨٤) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة ، (وتاهرت التى يذكرها ابن عذارى ليست المدينة وإنما هى إقليم تاهرت لأن تاهرت لم تكن قد اختطت بعد ، وقد تكون تاهرت القديمة . انظر د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٣٧٤) .

(٨٥) الشماخى : السير ، ص ١٣٩ .

(٨٦) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٣٧٥ .

نجحت هذه الدعاية التى قام بها عبد الرحمن بن رستم على نحو جاوز كل تقدير ، إذ كانت الركيزة الهامة التى اعتمد عليها فى دعايته هى تحقيق المساواة الكاملة والتسامح الدينى وقد جعل ذلك الكثير من سكان المغرب الأوسط يلتفون حول عبد الرحمن بن رستم ويرحبون بدعوته (٨٧) . وكان من بين هؤلاء من يعتنقون مذاهب أخرى فقد انضم إليه كثير من الخوارج الصفرية ، وجماعات تسمى بالواصلية الذين اعتبرهم البكرى من الإباضية (٨٨) ، فقد كان للواصلية مجمع قريب من تاهرت ، وكان عددهم نحو ثلاثين ألفا(٨٩) ورغم أن الواصلية فرقة من فرق المعتزلة فالظاهر « أن الفرقتين تحالفتا نتيجة لأخذهما بموقف الوسط بالنسبة لمرتكبى الكبائر (موقف المنزلة بين المنزلتين) وأنه لهذا السبب اعتبر معتزلة المغرب من الإباضية » (٩٠) .

ومما دعم موقف ابن رستم أيضاً أن الإباضية فى شرق المغرب الأوسط لم يضعوا السلاح ، وما زالوا يناضلون فى حلبة الجهاد ، يدافعون عن مبادئهم فى صبر وبلاء . وقد أدرك عبد الرحمن بن رستم أهمية استمرار النضال فى شرق المغرب الأوسط إذ أن ذلك يصرف الأنظار عن جهوده التى يقوم بها لإقامة دولة إباضية . وكذلك أدركت هذه التجمعات الإباضية فى شرق المغرب الأوسط بقيادة أبى حاتم الإباضى – إمام الدفاع – (٩١) هذه الحقيقة الهامة ، فأخذت ترسل المساعدات المالية لعبد الرحمن بن رستم فكان أبو حاتم هذا « يرسل ما زاد على ما يحتاج إليه مما جمع من الزكاة لعبد الرحمن بن رستم قبل أن يتولى الأمور وولاية الظهور » (٩٢) . ويبدو أن الأمور ظلت تسير على هذا النحو إلى أن اتسع

(٨٧) د . إبراهيم العدوى : بلاد الجزائر ، ص ١٩١ ، ١٩٢ .

(٨٨) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٧٩ .

(٨٩) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٧ .

(٩٠) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٣٧٩ .

(٩١) البرادى : الجواهر المنتقاة ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٨٤٥٦ح ، ورقة ٨٨ ، الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ،ورقة ١٦ ، أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ١١ ب .

(٩٢) الشماخى : السير ، ص ١٣٨ .

سلطان عبد الرحمن بن رستم على نحو دفع الجميع إلى التفكير فى مبايعته وإعلان قيام الدولة الجديدة .

وفى موضع تاهرت القديمة (٩٣) ، انعقد مجلس ضم رؤساء الإباضية وقالوا فى حوار دار بينهم : « قد علمتم أنه لا يقيم أمرنا إلا الإمام نرجع إليه فى أحكامنا وينصف مظلومنا ويقيم لنا صلاتنا ونؤدى إليه زكاتنا ويقسم فيئنا فقلبوا أمرهم فيما بينهم فوجدوا كل قبيل منهم فيه رأس أو رأسان أو أكثر يدبر أمر القبيل ويستحق أمر الإمامة فقال بعضهم : أنتم رؤساء ولا نأمن من أن يتقدم واحد على صاحبه فتفسد نيته ولعل المقدم أن يرفع أهل بيته وعشيرته على غيرهم فتفسد النيات ويكثر الاختلاف ويقل الإيتلاف » (٩٤) .

من هذا الحوار تتضح الظروف التى بويع فيها عبد الرحمن بن رستم ، إذ كان رؤساء الإباضية يتطلعون إلى شخصية فريدة بين البربر لا قبيلة تحميها إذا ما ظهر عدم صلاحيتها للحكم فيصبح من السهل عليهم تنحيتها (٩٥) . وكان عبد الرحمن بن رستم هو تلك الشخصية التى يتطلعون إليها فقالوا : « هذا عبد الرحمن بن رستم لا قبيلة له يشرف بها ولا عشيرة له تحميه وقد كان الإمام أبو الخطاب رضى لكم عبد الرحمن قاضيا وناظرا فقلدوه أموركم فإن عدل فذلك الذى أردتم وإن سار فيكم بغير العدل عزلتموه ولم تكن له قبيلة تمنعه ولا عشيرة تدفع عنه » (٩٦) .

---

(٩٣) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت : ص ٩ ، (يقول ابن الصغير : « لما نزلت الإباضية مدينة تاهرت وأرادوا عمارتها اجتمع رؤساؤهم » والذى يُفهم من عبارة ابن الصغير أن تاهرت هى القديمة وأن التى استحدثها عبد الرحمن بن رستم لم تكن أنشئت بعد ، انظر ابن خلدون : العبر ، دار الكتاب اللبنانى ، جـ ٦ ص ٢٤٧ ، الذى يجعل مبايعة عبد الرحمن بن رستم قبل بناء تاهرت الحديثة) .

(٩٤) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٩ .

(٩٥) محمد بن تاويت : دولة الرستميين أصحاب تاهرت ؛ صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، ص ١٠٨ .

(٩٦) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٩ .

وللشماخى رواية تحدد المبادئ الأساسية التى روعيت فى اختيار عبد الرحمن بن رستم يقول فيها : « فاتفق رأيهم (رؤساء الإباضية) على عبد الرحمن لفضله وكونه من حملة العلم ... ولكونه عامل أبى الخطاب على إفريقية وما والاها ولأنه لا قبيلة له تمنعه إذا تغير عن طريق العدل »(٩٧) .

اتجهت أنظار الجميع إلى عبد الرحمن بن رستم لهذه الأسباب مجتمعة فنهضوا إليه بأجمعهم وقالوا : « يا عبد الرحمن رضيك الإمام فى ابتدائنا ونحن الآن نرضى بك وتقدمك على أنفسنا فقد علمت أنه لا يصلح أمرنا إلا إمام نلجأ إليه فى أمورنا ونحكم عنده فيما ينوب من أسبابنا فقال لهم إن اعطيتمونى عهد الله وميثاقه لتستطيبوا إلى ولتطيعونى فيما وافق الحق وطابقه قبلت ذلك منكم فأعطوه عهد الله على ذلك وشرطوا عليه مثل ما شرط عليهم وقدموه على أنفسهم » (٩٨) .

وهكذا تمت مراسم البيعة ، وأعلن قيام الدولة الإباضية الجديدة ، وأصبح عبد الرحمن بن رستم إماماً لها يسجل الدرجينى والشماخى سنة (١٦٠ هـ / ٧٧٦ م) تاريخا لهذه البيعة ثم يعودان مرة أخرى فيذكران أنها كانت سنة (١٦٢ هـ / ٧٧٨ م) (٩٩) . ولكن التاريخ الأول هو الأرجح لأن ابن عذارى يجعل تأسيس تاهرت فى سنة (١٦١ هـ / ٧٧٧ م) (١٠٠) والمعروف من المؤرخين أن بناء تاهرت كان بعد تقديم عبد الرحمن ومبايعته بالإمامة كما يذكر

---

(٩٧) الشماخى : السير ، ص ١٤٠ .

(٩٨) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٩ ، ١٠ .

(٩٩) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ١٨ ، الشماخى : السير ، ص ١٣٩ ، (وفى هذا يقول أبو زكرياء : « وحدث غير واحد من أصحابنا أن عبد الرحمن بن رستم رضى الله عنه ولى بتاهرت فى سنة ١٦٠ ستين ومائة وذكر بعض أصحابنا أنه إنما ولى على رأس اثنتين وستين ») (أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ١٣ أ) .

(١٠٠) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٩٦ ، خير الدين الزركلى : الأعلام ، الطبعة الثانية ، عشرة أجزاء ، جـ ٤ ، ص ٧٨ .

البكرى (١٠١) ، وابن الصغير (١٠٢) .

بناء تاهرت :

رأى عبد الرحمن بن رستم بعد أن بويع بالإمامة ، أن يتخذ لنفسه عاصمة يباشر منها مهام الحكم ، وكان عليه أن يوفر لهذه العاصمة كل عناصر الأمن والرخاء ، لذا فقد استعان بأهل العلم والخبرة بالأرض وانضم إليهم أيضاً فى هذه المهمة رؤساء العابدين وكبراء الزاهدين (١٠٣) . وطاف الجميع أنحاء البلاد يبحثون عن مكان يصلح لبناء العاصمة حتى استحسنوا موضع تاهرت وهو على بعد خمسة أميال من تاهرت القديمة (١٠٤) .

وجاء اختيار موقع تاهرت وليد الظروف التى واجهت الدولة الرستمية فى مطلع تأسيسها ، فكان لموقعها مميزات ذات كفاءة عالية جعلتها تنهض بمسئولياتها على أمثل وجه وتتضح مميزات تاهرت فى :

أولا : هى بعيدة عن خطر العباسيين ، حيث تقع فى منطقة داخلية منطوية على نفسها فى السفح الجنوبى لجبل كزول لذا فهى تدير ظهرها للبحر وتوجه أنظارها نحو الداخل وهذا يمثل موقعا استراتيجيا لحماية دولة ناشئة يحيط بها الأعداء من كل جانب (١٠٥) .

---

(١٠١) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٨ ، (ويقول البكرى : « فاجتمعت إليه الإباضية واتفقوا على تقديمه وبنيان مدينة تجمعهم ») .

(١٠٢) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٩ ، الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ١٨ .

(١٠٣) الشماخى : السير ، ص ١٢٩ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٦ .

(١٠٤) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٧ .

GAUTIER, E. F., Le Passe de L'afrique de nord, P, 3. 6.

(١٠٥) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، (ويذكر البكرى اسم الجبل جزول بالجيم بينما يروى صاحب الاستبصار أن اسمه قرقل ويبدو أن هذه الأسماء كلها صحيحة إلا أنها استعملت فى فترات زمنية مختلفة (انظر البكرى : المغرب فى بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٦ ؛ الاستبصار فى عجائب الأمصار ، ت . د . سعد زغلول عبد الحميد ، ص ١٧٨) .

ثانيا : تقع تاهرت فى منطقة محاطة بقبائل أكثر أفرادها مشهورون بانتمائهم القوى للمذهب الإباضى وقد حدد البكرى على نحو دقيق هذه القبائل فقال : « وبقبليها (أى تاهرت) لواطة وهوارة فى قرارات وبغربيها زواغة وبجوفيها مطماطة وزناتة ومكناسة » (١٠٦) يضاف إلى ذلك أن موقع تاهرت يعتبر امتداداً لبلاد الزاب وهذا يتيح لعبد الرحمن بن رستم سرعة الاتصال بالجماعات الإباضية فى أقاليم المغرب الشرقية فى طرابلس ونفزاوة وبلاد الجريد مما يساعد فى اتساع رقعة الدولة دون وجود عوائق طبيعية تمنع ذلك الاتساع (١٠٧) .

ثالثاً : وإلى جانب الموقع الاستراتيجى ، فتاهرت تقع فى منطقة غنية اقتصاديا فهى تشتهر بمراعيها الواسعة ، وثرواتها الزراعية المتنوعة ، ويرجع ذلك لكثرة مصادر المياه وتنوعها فى المنطقة (١٠٨) ، فتجرى فيها أنهار عظيمة كنهر مينة ، ونهر نانس (١٠٩) ، وكان لذلك أثره فى دعم اقتصاديات الدولة ، وجعل من تاهرت عاصمة تجارية هامة بين مدن المغرب الكبرى . وقد تحدث ابن حوقل عن الغنى الاقتصادى الذى تتمتع به منطقة تاهرت فقال : « وهى أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفراهية ويكثر عندهم العسل والسمن وضروب الغلات » (١١٠) وذكر الاصطخرى أيضاً ثراء تاهرت فقال : « وهى

---

(١٠٦) البكرى المغرب فى بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٧ ، وروى ياقوت نفس الرواية مع اختلاف طفيف فى اللفظ ، ياقوت . معجم البلدان ، ط . دار صادر ودار بيروت ، جـ ٢ ، ص ٨ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٢٥ .

(١٠٧) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٣٧٥ .

(١٠٨) المرجع السابق ، ص ٣٧٧ .

JULIEN, op. cit, p. 34, 35.

(١٠٩) لمؤلف مجهول : الاستبصار فى عجائب الأمصار ، ت . د . سعد زغلول عبد الحميد ، ص ١٧٨ ، البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٦ (والبكرى يذكر أن اسم النهر تاتش بدلاً من نانس) .

(١١٠) ابن حوقل : صورة الأرض دار مكتبة الحياة ببيروت ص ٨٦ .

مدينة كبيرة خصبة واسعة البرية والزروع والمياه (١١١) .

رابعاً : تقع تاهرت فى مكان يتوسط التل والصحراء (١١٢) وقد حقق لها ذلك السيادة على المنطقة السهوبية الشاسعة وما بها من طرق تجارية تمتد غربا إلى المغرب الأقصى وجنوبا إلى قلب أفريقيا عبر الصحراء الكبرى ثم هى تشرف من موقعها هذا أيضاً على الطريق المار من منطقة التلول إلى أسفل وادى شلف المؤدى إلى البحر (١١٣) وأصبحت تاهرت بذلك نموذجا للحياة التجارية القوية فى بلاد المغرب .

وكشف عبد الرحمن بن رستم باختياره موقع تاهرت عن المهارة الفائقة التى تحلى بها الإباضية فى اختيار المراكز الصالحة لبناء المدن ، وحرصهم على توفير أسباب البقاء لها اقتصادياً وحربياً وسياسياً (١١٤) . ويروى البكرى أن موضع تاهرت كان يمتلكه قوم مستضعفون من قبيلتى مراسة وصنهاجة ، وقد راودهم عبد الرحمن بن رستم على بيع المكان لبناء تاهرت عليه ، فرفضوا ذلك الأمر ولكنهم قبلوا بناء تاهرت على أرضهم على شريطة أن يؤدى إليهم خراج أسواقها (١١٥) . وعلى الفور شرع عبد الرحمن بن رستم فى بناء المدينة واختار من أرض المنطقة موضعا مربعا لا شعراء فيه ولذلك قالت البربر نزل (تاقدمت) وتفسيره الدف – شبهوه بالدف لتربيعه – (١١٦) .

---

(١١١) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ٣٤ .

(١١٢) دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، جـ ٣ ، ص ٢٢٥ ، الجيلالى : تاريخ الجزائر العام ، دار مكتبة الحياة – بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٥ ، جـ ١ ، ص ٢٢٠ .

(١١٣) د . إبراهيم العدوى : بلاد الجزائر ، ص ١٩٢ ، ١٩٣ ، دائرة المعارف الإسلامية جـ ٤ ، ص ٥٢٥ .

(١١٤) د . إبراهيم العدوى ، بلاد الجزائر ، ص ١٩٢ .

(١١٥) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٨ ، الشماخى : السير ، ص ١٤٦ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٦ .

(١١٦) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٨ .

وقد أضفى كتاب الإباضية على بناء تاهرت لونا قصصيا مثيراً فهم يروون لبنائها قصة عجيبة أشبه بقصة عقبة وبنائه للقيروان . فبعد أن اتفق الجميع على موضع تاهرت أمروا مناديا : « فنادى بأعلى صوته من بها من الوحش أن اخرجوا وارتحلوا فانا مريدون عمارتها ونازلين بها وأجلوا ثلاثة أيام قال أبو زكريا إنهم رأوا وحشا تحمل أولادها فى أفواهها يعنى سباعا والله أعلم وهى خارجة من تلك الأشجار والغياطل فرغبهم ذلك فيها وزادهم بصيرة فى عمارتها فلما تم الأجل أرسلوا فيها ناراً فأحرقت ما ظهر من الأشجار » (١١٧) . ويبدو أن الأمر لم يكن يعدو أكثر من عملية تطهير للمنطقة من الأشجار بحرقها لإزالتها بسرعة وقد دفع ذلك الحيوانات إلى أن تهرع من المنطقة خوفا من الحريق ، فتطرق خيال الكتاب إلى نسج هذه القصص لإحاطة المدينة بهالة من الكرامة والتبريك .

ولم يسلم البكرى من رواية مثل هذه القصص ، فعبد الرحمن بن رستم والإباضية عندما نزلوا تاهرت أدركتهم صلاة الجمعة « فصلى بهم هنالك فلما انقضت الصلاة ثارت صيحة عظيمة على أسد فأخذ حيا وأتى به إلى الموضع الذى صلوا فيه وقتل هناك فقال عبد الرحمن بن رستم هذا بلد لا يفارقه سفك دم ولا حرب أبداً » (١١٨) وفى موضع آخر يروى البكرى أنهم « لما أرادوا بناء تاهرت كانوا يبنون النهار فإذا جن الليل وأصبحوا وجدوا بنيانهم قد تهدم فبنوا حينئذ تاهرت السفلى وهى الحديثة » (١١٩) .

أما تخطيط تاهرت فقد جرى على النحو الذى اتبع فى بناء المدن الإسلامية الكبرى ، بحيث تساعد على انصهار أفراد المجتمع وامتزاجهم وعدم التفرقة بين عناصرهم (١٢٠) . فاختط الإباضية المسجد الجامع من أربع بلاطات واستعانوا فى

---

(١١٧) الشماخى : السير ، ص ١٣٩ .

(١١٨) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٨ (وذكر هذه الرواية أيضاً ياقوت فى معجم البلدان ، ط . دار صادر ودار بيروت ، ج ٢ ، ص ٩) .

(١١٩) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٧ .

(١٢٠) د . إبراهيم العدوى : بلاد الجزائر ، ص ١٩٣ .

بنائه بأخشاب شجر الشعراء المنتشر فى المنطقة (١٢١) . وحول المسجد الجامع انتشرت الدور والقصور والبيوت والأسواق والحمامات والفنادق وتفنن أهل تاهرت تدريجيا فى عمارتها وتنظيمها (١٢٢) ، وأحاطوا المدينة بعد ذلك بسور محكم شيد من الصخر(١٢٣) .

وقد اختلف المؤرخون فى تاريخ بناء تاهرت فابن خلدون يجعل تأسيسها سنة (١٤٤ هـ / ٧٦١ م) أى فى نفس السنة التى فر فيها عبد الرحمن بن رستم من القيروان إلى المغرب الأوسط يقول ابن خلدون : « فأسسها (أى تاهرت) عبد الرحمن بن رستم واختطها سنة أربع وأربعين ومائة فتمدنت واتسعت خطتها إلى أن هلك عبد الرحمن » (١٢٤) .

أما ابن عذارى فقد روى عن ابن القطان أن بناء تاهرت الحديثة كان بعد سنة (١٤٠ هـ / ٧٥٧ م) (١٢٥) ، ثم عاد ابن عذارى فى موضع آخر إلى تحديد بنائها بشئ من الدقة فقال : « فر عبد الرحمن إلى المغرب بما خف من أهله وماله ، فاجتمعت إليه الإباضية ، وعزموا على بنيان مدينة تجمعهم ، فنزلوا بموضع تيهرت وهى غيضة بين ثلاثة أنهار ، فبنوا مسجداً من أربع بلاطات ، واختط الناس مسكانهم وذلك سنة ١٦١ هـ » (١٢٦) .

---

(١٢١) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٨ ، ياقوت : معجم البلدان ط . دار صادر ودار بيروت ، جـ ٢ ، ص ٩ (ويذكر الشماخى أن اختيار المسجد الجامع تم بطريق القرعة بين أربعة أماكن استقر الرأى على إحداها ، انظر الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ١٨ ، الشماخى : السير ، ص ١٣٩) .

(١٢٢) الشماخى : السير ، ص ١٣٩ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٨ .

(١٢٣) لمؤلف مجهول : الاستبصار فى عجائب الأمصار ، ت . د . سعد زغلول عبد الحميد ، ص ١٧٨ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٨ .

(١٢٤) ابن خلدون : العبر ، ط . دار الكتاب اللبنانى ، جـ ٦ ، ص ٢٤٧ .

(١٢٥) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٢٥ .

(١٢٦) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٩٦ .

وبمناقشة هذه التواريخ المختلفة نجد أن سنة (١٤٤ هـ / ٧٦١ م) التى حددها ابن خلدون لا تنسجم مع واقع الأحداث فالمعروف أن عبد الرحمن بن رستم فر إلى المغرب الأوسط فى صفر سنة ١٤٤ هـ [١٢٧] . وفى خلال هذه السنة وقع تحت حصار محمد بن الأشعث مدة طويلة فى جبل سوفجج [١٢٨] ، ورغم أن مدة الحصار غير معروفة فإن المتبقى من السنة لا يكفى لتجميع قوى الإباضية بحيث تفكر فى بناء عاصمة تجمعهم .

أما رواية ابن عذارى التى نقلها عن ابن القطان ، والتى قالت إن إحداث تاهرت كان بعد سنة ١٤٠ هـ ، ففى هذه السنة وحتى سنة ١٤٤ هـ كان عبد الرحمن بن رستم قاضياً فى طرابلس ، وعاملا لأبى الخطاب على القيروان [١٢٩] . تبقى بعد ذلك رواية ابن عذارى الثانية وهى أن بناء تاهرت كان فى سنة (١٦١ هـ / ٧٧٧ م) وهى الرواية الأرجح لأنها تتفق مع سير الأحداث .

أولاً : لأن أقدم نص عن بناء تاهرت وهو عند البكرى يؤكد أن بناء تاهرت كان فى أعقاب مبايعة عبد الرحمن بن رستم بالإمامة يقول البكرى : « إنه بعد اتفاق الجماعة الإباضية على إمامة عبد الرحمن بن رستم وبنيان مدينة تجمعهم نزلوا موضع تاهرت وهو غيضة على خمسة أميال غربى المدينة (أى تاهرت القديمة) واختار ابن رستم موضعا لا شعراء فيه » [١٣٠] . وإذا كانت مبايعة عبد الرحمن بن رستم بالإمامة قد تمت قبل بناء تاهرت تبعا لرواية البكرى ، وعلى وجه التحديد فى سنة ١٦٠ هـ وفقا لرواية الشماخى [١٣١] فرواية

---

(١٢٧) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٨ .

(١٢٨) الشماخى : السير ، ص ١٣٣ ؛ البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٣ .

(١٢٩) اليعقوبى : البلدان ، ص ٣٥٣ ، البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٨ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٧١ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٨٤ .

(١٣٠) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ،ص ٦٨ .

(١٣١) الشماخى : السير ، ص ١٣٩ ، أبو الربيع سليمان البارونى : مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٣٢ .

ابن عذارى الثانية التى تقول بأن بناء تاهرت كان فى سنة ١٦١ هـ هى أرجح هذه الروايات .

ثانياً : إن عبد الرحمن بن رستم لم يكن ليربط مصيره ومصير أتباعه بالمغرب الأوسط إلا بعد أن يستنفذ كل محاولاته فى العودة إلى إفريقية ، وبعد أن يكون قد نظم دعاية واسعة النطاق لنشر تعاليم المذهب الإباضى بين قبائل المنطقة ، وهذا أمر طبيعى تطلب تنفيذه أكثر من خمسة عشر عاما (١٣٢) .

وقد يكون عبد الرحمن بن رستم قد ارتاد موضع تاهرت قبل تأسيسها أو أنه اتخذ من موضعها هذا معسكراً للجماعة الإباضية ، وهذا ما أدى إلى اختلاف الروايات حول تاريخ تأسيسها ، وعند البكرى إشارة تدل على أن صفة المعسكر هذه ظلت لاصقة بالمدينة فترة طويلة من الزمان (١٣٣) ، يقول البكرى : « وسمى الموضع (أى تاهرت) معسكر عبد الرحمن بن رستم إلى اليوم » (١٣٤) .

مساعدة إباضية المشرق للدولة الجديدة :

انتشرت أنباء الدولة الجديدة وأخبار العدل الذى سادها بفضل إمامها عبد الرحمن بن رستم الذى أحسن السيرة فى الناس وجلس فى مسجده – كما يقول ابن الصغير – للأرملة والضعيف لا يخاف فى الله لومة لائم(١٣٥) . حتى صارت الإباضية تقصد إلى رحاب هذه الدولة من جنوب الجزيرة العربية والعراق وفارس حيث يطاردهم

---

(١٣٢) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٧٥ .

(١٣٣) المرجع السابق ، ص ٣٨٢ ، ٣٨٣ .

(١٣٤) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٨ .

(١٣٥) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ١٠ ، الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢٠ .

إرهاب العباسيين (١٣٦) . أما الذين لم يستطيعوا الرحيل إلى أراضى الدولة الجديدة فقد جمعوا أموالا كثيرة خرجت من البصرة – مركز الدعوة الإباضية فى المشرق – مع نفر من ثقات الإباضية ، وقال لهم إخوانهم من أهل الدعوة فى البصرة « قد ظهر بالمغرب إمام ملأه عدلا وسوف يملك المشرق ويملأه عدلا فانهضوا إليه بما معكم من هذه الأموال حتى تردوا المدينة التى سكنها فان كان على ما نقل من حسن طريقته وصحة سيرته فادفعوا إليه وإن كان على غير ذلك فانظروا إلى أفعاله وما يتولاه من الأحكام بين رعيته ثم أتونا بذلك كله » (١٣٧) .

وصل وفد البصرة إلى تاهرت ودخلها من بابها المعروف بباب الصفا ، وسألوا عن دار الإمام فلما اقتربوا منها وجدوا « عند بابها غلاما يعجن طينا ورجلا على سطح يصلح شقاقا فيه والغلام يناوله ما يصلح فسلموا على الغلام فرد السلام ثم قالوا : هذه دار الإمام فقال : نعم . فقالوا له : استأذن لنا منه وأعلمه أنا رسل إخوانه إليه من البصرة فرفع الغلام رأسه إلى سيده وقد علم أنه سمع كلامهم فقال : قل للقوم يصبرون قليلا ثم أقبل على ما كان عليه من اصلاح عمله حتى انقضى والقوم ينظرون إليه وهم شاكون فيه هل هو صاحبهم أم لا حتى نزل عن سطحه إلى داره فغسل ما كان بيديه من أثر الطين ثم توضأ وضوء الصلاة فأذن للقوم فدخلوا عليه فوجدوا رجلا جالسا على حصير فوقه جلد وليس فى بيته شئ سوى وسادته التى ينام عليها وسيفه ورمحه وفرس مربوط فى ناحية من داره فسلموا عليه وأعلموا أنهم رسل إخوانه إليه فأمر غلامه باحضار طعامه فأتاه بمائدة عليها قرص سخنت وسمن وشئ من ملح فأمر بتلك القرص فهشمت وأمر بالسمن به ثم قال : على اسم الله أدنوا وكلوا ثم أكل معهم بأكلهم » (١٣٨) .

---

(١٣٦) محمد بن تاويت : دولة الرستميين أصحاب تاهرت ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، ص ١٠٩ .

(١٣٧) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ،ص ١٠ ، ١١ .

(١٣٨) المصدر السابق ، ص ١١ (نفس الرواية موجودة باختصار شديد عند أبى زكرياء) (أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ١٤) .

« فلما انقضى طعامهم قال ما مرادكم ؟ وما جاء بكم فقالوا له نحب أن تأذن لنا حتى نخلوا فيما بيننا ثم نكلمك بعد ذلك فقال : افعلوا فجلسوا نجيا فقال : بعضهم لبعض يكفينا من السؤال عنه ما رأينا من إصلاحه لداره بنفسه ومطعمه وملبسه وحلية بيته فما نرى إلا ندفع إليه المال ولا نشاور أحداً فيه وكان الذى معهم من المال ثلاثة أحمال فأجمع رأيهم على حمل المال إليه ورجعوا إليه ثم أقبلوا عليه فقالوا أعزك الله معنا ثلاثة أحمال من المال بعث بها إليك إخوانك لتنفق بها على زمانك وتصلح بها شأنك » (١٣٩) .

وكان الوقت وقت صلاة فذهب الجميع إلى المسجد وبعد انتهاء الصلاة ، عقد عبد الرحمن بن رستم مجلس الشورى الذى كان يضم رؤساء القبائل لبحث أمر هذه المعونة وأنسب السبل لإنفاقها وتوزيعها ، وقرر الجميع أن يقسم هذا المال إلى ثلاثة أقسام ثلث على الكراع وثلث للسلاح وثلث على الفقراء والضعفاء ، وظل الوفد فى تاهرت حتى قسم المال وتم توزيعه على النحو الذى اتفق عليه (١٤٠) .

وقد كان لهذه المعونة المادية أثرها الكبير فى نماء الدولة الرستمية وتقدمها فقد أمنت الدولة على نفسها بما اشترته للقوم من الكراع والسلاح وقوى الضعيف وانتعش الفقير ، وأمن الجميع ممن كان يغزوهم من عدوهم . لذلك شرعوا فى العمارة والبناء وإحياء الأموات وغرس البساتين وإجراء الأنهر واتخاذ الرحاء والمستغلات وغير ذلك واتسعوا فى البلد وتفسحوا فيها وأتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصي الأقطار (١٤١) .

ولم يكتف إباضية البصرة بما قدموا من أموال للدولة الناشئة فلم تمض ثلاث

---

(١٣٩) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ١١ ، ١٢ .

(١٤٠) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢٠ ، ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ١٢ .

(١٤١) المصدر السابق ، ص ١٢ ، ١٣ .

سنوات على المساعدة حتى وصلت إلى تاهرت قافلة أخرى تتكون من عشرة أحمال من الأموال (١٤٢) ، ولكن الوفد المشرق فى هذه المرة بهرته صورة تاهرت إذ خطت خطوات سريعة فى مضمار الحضارة والتقدم فانتشرت القصور وغرست البساتين ونصبت الأرحاء على الأنهار ، وظهرت آثار الغنى على أهلها فاتخذوا الفرش والستائر المزخرفة والخيل المسومة ، وتنوعت ألبستهم وتعددت اللغات والأزياء (١٤٣) .

اجتمع الوفد بعبد الرحمن بن رستم ومجلس الشورى فى المسجد بعد صلاة الظهر ، وكان رأى عبد الرحمن بن رستم هذه المرة أن تعاد الأموال لأن الدولة أصبحت قوية وليست فى حاجة إليها ، وقال للوفد : « ارجعوا بمالكم فإن أربابه أحوج إليه منا لأنا فى أرض قد استولى عليها العدل وهم فى بلد غلب عليهم الجور يداورن به على أنفسهم وما لهم ودينهم » (١٤٤) .

وهذا يدل على أن عبد الرحمن بن رستم لم يكتف بما تحقق من استقلال « أهل المذهب » فى تاهرت وأعمالها بل كان يطمح إلى تحرير الجماعة الإباضية فى المشرق من الحكم العباسى ، وإلى انتشار المذهب الإباضى فى كل دولة الخلافة (١٤٥) وهذا ما يشير إليه كتاب الإباضية فى قولهم ، واعترف كل إباضى بإمامته ووصلوه بكتبهم ووصاياهم (١٤٦) . بل إن ابن الصغير يذكر أن إباضية المشرق قد اعتبروا أن إمامة عبد الرحمن بن رستم أصبحت فرضا عليهم منذ رد الأموال إليهم ليتقووا بها وفى ذلك يقول : « فعند ذلك رغب القوم فى إمامته

---

(١٤٢) نفس المصدر السابق ، ص ١٣ ، الشماخى : السير ، ص ١٤٠ .

(١٤٣) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ١٣ ، ١٤ . البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٩٠ .

(١٤٤) الشماخى : السير ، ص ١٤١ .

(١٤٥) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٣٨٧ .

(١٤٦) الشماخى : السير ، ص ١٤١ ، وقارن ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ١٣ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٩٢ .

ورأوا أنها فرض عليهم » (١٤٧) ويقول الدرجيني : « وأقروا (الإباضية) بإمامته وواصلوه بكتبهم فكانت تاهرت حرزا وحصنا لجماعة أهل الدعوة وسميت المعسكر المبارك » (١٤٨) بل إن عدل عبد الرحمن بن رستم وما ساد دولته من الأمن والرخاء لم يجذب أهل المذهب الإباضي فقط من البلدان الأخرى، وإنما جذب أيضاً التجار وأصحاب رؤوس الأموال الذين قصدوا تاهرت وحلوا بها من مصر وإفريقية وسائر بلاد المغرب الأخرى (١٤٩) .

نجاح عبد الرحمن بن رستم فى إدارة دولته :

أصبح عبد الرحمن بن رستم ممثلا لنظام حكم مثالى عملى لا نظرى ملتزم بقواعد الدين الإسلامى فالإباضية سواء فى المشرق أو فى المغرب لم يجدوا من خلفاء بغداد – رغم تمسكهم بالنسب إلى البيت النبوى – المثل الأعلى للحكم ، ونفروا من انغماس هؤلاء الخلفاء فى مظاهر الترف الفارسي وتقليد الأبهة والبلاط الفارسى (١٥٠) . وقد شرح ابن الصغير المالكى الذى عاصر الرستميين ملامح هذا الحكم الإسلامى المثالى فى الدولة الرستمية على نحو تفصيلى فقال عنه :

« وقضاته مختارة (أى عبد الرحمن بن رستم) وبيوت أمواله ممتلأة وأصحاب شرطته والطائفون قائمون بما يجب وأهل الصدقة على صدقاتهم يخرجون فى أوان الطعام فيقبضون أعشارهم .. من أهل الشاة والبعير يقبضون ما يجب على أهل الصدقات لا يَظلمون ولا يُظلمون. فإذا حضر جميع ذلك صرف الطعام إلى الفقراء وبيعت الشاة والبعير فإذا صارت أموالا دفع منها إلى العمال بقدر

---

(١٤٧) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ١٥ .

(١٤٨) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢٠ .

(١٤٩) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٢٨٧ ، محمد بن تاويت : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، ص ١٠٩ .

(١٥٠) JULIEN, op. cit, p. 35, 39.
د . إبراهيم العدوى : بلاد الجزائر ، ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

ما يستحقون على عملهم ثم نظر فى باقى سائر المال فإذا عرف مبلغه أمر بإحصاء من فى البلد وفيما حول البلد ثم أمر بإحصاء الفقراء والمساكين فإذا علم عددهم أمر بإحصاء ما فى الأهراء من الطعام ثم أمر بجميع ما بقى من مال الصدقة فاشترى منه أكسية صوفا وجبابا صوفا وفراء وزيتا ثم دفع فى كل بيت بقدر ذلك ويأتى بأكثر ذلك أهل الفاقة من مذهبه ثم ينظر إلى ما اجتمع من مال الجزية وخراج الأرضين وما أشبه ذلك فيقطع لنفسه وحشمه وقضاته وأصحاب شرطته والقائمين بأموره ما يكفيهم فى سنتهم ثم إن فضل فضْل صرفه فى مصالح المسلمين » (١٥١) .

وكما كان عبد الرحمن بن رستم رجل إدارة على هذا النحو المثالى الذى أشاع العدل فى دولته فإنه كان رجل سياسة من طراز فريد ، فلم تنحصر أفكاره السياسية داخل حدود دولته بل نظر إلى خارج هذه الدولة محاولا أن يكسب لها كل دواعى الأمن والاستقرار فاتجه عبد الرحمن بن رستم بنظره نحو سجلماسة عاصمة دولة بنى المدرار وأقام علاقة مصاهرة قوية بينه وبين اليسع بن أبى القاسم الذى تولى أمر الصفرية فى سجلماسة سنة (١٧٠ هـ / ٧٨٦ م) (١٥٢) . ويعتبر اليسع هذا المؤسس الحقيقى لدولة بنى مدرار بسجلماسة (١٥٣) . فتزوجت أروى بنت عبد الرحمن بن رستم مدرار بن اليسع (١٥٤) ، وكان لهذا الزواج أثره فى تأمين الحدود الجنوبية الغربية للدولة الرستمية وفى دعم علاقة حسن الجوار بين الدولتين .

---

(١٥١) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ١٥ ، ١٦ (« ممتلأة » هكذا فى الأصل)

(١٥٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٥٦ .

(١٥٣) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٨٤ .

(١٥٤) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٥٧ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٩٤ .

وقد ذهب عبد الرحمن بن رستم فى مجال تأمين دولته إلى أبعد الحدود حيث رغب فى تقوية فرص السلام مع ألد أعداء دولته وهو الوالى العباسى فى القيروان روح بن حاتم ، فكاتبه عبد الرحمن بن رستم يطلب موادعته ، ويبدو أن معاهدة سلام قد عقدت بين الطرفين عام (١٧١ هـ / ٧٨٧ م)[١٥٥] ، وإن كانت شروطها غير معروفة . وقد أشار ابن خلدون إلى أحداث هذه الموادعة بقوله : « ورغب عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت سنة ١٧١ هـ فى موادعة صاحب القيروان روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب فوادعه »[١٥٦] ، وقد كان لهذه الاتفاقية أهميتها إذ حرص روح بن حاتم على تجديدها بعد وفاة عبد الرحمن بن رستم ، ويقول ابن خلدون فى هذا أيضاً : « ورغب (يعنى روحا) فى موادعة عبد الوهاب بن رستم وكان من الوهبية فوادعه »[١٥٧] .

واستطاع عبد الرحمن بن رستم بذلك أن يخلق حالة من الاستقرار السياسى بين دولته الناشئة وبين سائر القوى السياسية الأخرى فى بلاد المغرب ، فكان لذلك أثره فى تدعيم أوتاد الدولة الرستمية ، فأصبحت دولة قوية هابها جيرانها ، وهاجر إليها الكثيرون من أهل المشرق والمغرب والأندلس ، وقصدها التجار والعلماء والكتاب ورجال الصناعة والفن وأرباب الحرف من كل مكان ، فكان لذلك أثره فى ازدهار الدولة ونمو تجارتها واتساع مواردها الاقتصادية ، لذا فقد نعم المغرب الأوسط فى عهد عبد الرحمن بن رستم بالهدوء والأمن الذى لم يعرفهما من قبل[١٥٨] .

ويبدو أن عبد الرحمن بن رستم فى أواخر أيامه قد أصيب بمرض أحس منه

---

(١٥٥) ابن خلدون : العبر ، ط . مؤسسة الأعلمى ببيروت ، جـ ٤ ص ١١٣ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٩٣ .

(١٥٦) المصدرين السابقين ، نفس الصفحات .

(١٥٧) ابن خلدون : العبر ، ط . مؤسسة الأعلمى ببيروت ، جـ ٤ ، ص ١٩٤ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٠١ .

(١٥٨) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٥٠ .

بدنو أجله فاقتدى بالخليفة عمر بن الخطاب فجعل الإمامة شورى بين سبعة من رجال الدولة الرستمية ممن توسم فيهم الصلاح والعلم والتقوى والورع وهم عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، ومسعود الأندلسى ، وأبو قدامة يزيد بن فندين اليفرنى ، وعمران بن مروان الأندلسى ، وأبو الموفق سعدوس بن عطية ، وشكر بن صالح الكتامى ، ومصعب بن سدمان [١٥٩] . وأوصى عبد الرحمن بن رستم هؤلاء السبعة بالاجتماع والتشاور فيما بينهم لاختيار إمام من بينهم [١٦٠] . ثم توفى عبد الرحمن بن رستم سنة (١٧١ هـ / ٧٨٧ م) [١٦١] أما ابن عذارى فيجعل تاريخ وفاته سنة (١٦٨ هـ / ٧٨٤ م) [١٦٢] وارتضى هذا التاريخ الأخير زامباور فى معجمه [١٦٣] . والتاريخ الأول أولى بالصحة لأنه يوافق تاريخ الموادعة بين عبد الرحمن بن رستم وروح بن حاتم الذى ذكر ابن خلدون أنه كان فى سنة (١٧١ هـ / ٧٨٧ م) [١٦٤] ، ولأن مبايعة عبد الوهاب تمت فى نفس السنة أيضاً .

(١٥٩) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢٠ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٩٩ (ويذكر أبو زكرياء أنهم كانوا ستة « المرشحون للامامة » . ولما عاد إلى تفصيل هؤلاء الستة كتبهم سبعة ، وهذا ما جعل الآخرين من مؤرخى الإباضية يقولون أنهم سبعة وقد يكون هذا خطأ من الناسخ) . (أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، ورقة ١٤ ب) .

(١٦٠) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٥٠ .

(١٦١) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٠١ .

(١٦٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٩٦ .

(١٦٣) زامبارو : معجم الانساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ، ص ١٠٠ .

(١٦٤) ابن خلدون : العبر ، ط . مؤسسة الأعلمى ببيروت ، جـ ٤ ، ص ١٩٤ .

الفصل الثالث

توطد الدولة الرستمية وازدهارها

(ا) عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم موطد الدولة الرستمية (١٧١ هـ / ٧٨٧ م - ٢١١ هـ / ٨٢٦ م)

١ - مبايعته بالإمامة :

تعتبر الفترة التى أعقبت وفاة عبد الرحمن بن رستم من احرج الفترات التى مرت بها الدولة الرستمية ، ولا أدل على ذلك من أن المرشحين السبعة للإمامة لم ينتهوا فى فترة وجيزة من عملهم الذى كلفهم به الإمام الراحل عبد الرحمن بن رستم ، وهو اختيار واحد منهم للإمامة فقد استمرت اجتماعاتهم شهرا كاملا دون أن يتخذوا قرارا فى هذا الشأن (١) . وطالت اجتماعات القوم وكان كل منهم يظهر عزفه عن منصب الإمامة كما يقول الشماخى . حتى أجمعوا رأيهم على اختيار أحد اثنين : مسعود الأندلسى ، أو عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ثم مال أكثر المرشحين للإمامة والعامة معهم إلى تولية مسعود الأندلسى (٢) . ويبدو أن الذى دفعهم إلى ذلك أحد أمرين :

أحدهما : أن مبدأ الإباضية كان يقتضى الالتزام بالشورى دون الوراثة .

---

(١) أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ١٤ ب ، الشماخى : السير ، ص ١٤٥ .

(٢) نفس المصدرين السابقين ، ونفس الصفحات .

والآخر : أن مسعود الأندلسى كان أعلم من عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (٣) .

غير أن مسعود الأندلسى اختفى عن الأنظار يوم البيعة زهدا منه فى تولى هذا المنصب الخطير ، وقد زاد ذلك من فرصة تولى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم للإمامة ، لأنه كان الشخصية الثانية بعد مسعود الأندلسى فى نظر الجميع . يضاف إلى ذلك أنه كان يتمتع بأنصار أقوياء يدعمون موقفه فى هذه المعركة الانتخابية فقد انحازت قبيلة زناتة إلى عبد الوهاب لأن أمه كانت من يفرن وهى فرع من زناتة (٤) . كما انحازت إليه أيضاً جماعات الفرس الذين كانوا يكونون جالية قوية لا بأس بها فى دولة الرستميين (٥) .

ولما يُئس من البحث عن مسعود ابتدروا عبد الوهاب لمبايعته بالإمامة ، وما أن سمع مسعود بذلك حتى ظهر إلى مجتمع الناس ليكون فى مقدمة المبايعين لعبد الوهاب . ولكن جدلا خفيفا حدث فى أثناء البيعة ، فقد قام أبو قدامة يزيد بن فندين خطيبا فقال : « إنا نقدم لك بيعتنا يا عبد الوهاب على شرط واحد وهو ألا تقطع أمرا دون اتفاق جماعة معلومة معك عليه » (٦) ، وكان يزيد يطمع فيما وراء ذلك أن يكون أحد أفراد هذه الجماعة بعد أن فشل فى الحصول على منصب الإمامة وسارع مسعود الأندلسى بالرد عليه قائلا : « ما سمعنا بهذا وما علمنا أن فى الإمامة شرطا غير أن يحكم الإمام بكتاب الله وسنة رسوله وآثار الصالحين قبله » (٧) ، وكان الجميع يؤيدون رأى مسعود ويقفون ضد يزيد بن

---

(٣) د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٥١ .

(٤) الشماخى : السير ، ص ١٤٥ ، محمد بن تاويت : دولة الرستميين أصحاب تاهرت ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، ص ١١٣ .

(٥) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٦) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٠٠ ، الشماخى : السير ، ص ١٤٥ ، مع اختلاف فى اللفظ .

(٧) أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ١٤ ب .

فندين وجماعته التى أيدت رأيه ، وفى ذلك يقول الشماخى : « فسكت يزيد عن ذكر الشرط حين رد عليهم المسلمون »(٨) .

وكان مسعود الأندلسى أول من بايع عبد الوهاب وتتابع من ورائه الحاضرون ، ثم بايعه المسلمون بعد ذلك بيعة عامة حملوه بعدها إلى دار الإمامة فى موكب حافل امتلأت به طرقات تاهرت ، وهكذا تمت البيعة لعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم بموافقة الجميع حتى هؤلاء الذين أرادوا وضع شرط للإمامة (٩) .

٢ - شخصية الإمام الجديد :

تولى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم منصب الإمامة سنة (١٧١ هـ / ٧٨٧ م) وكان آنذاك فى الثانية والخمسين من عمره (١٠) ، وقد قضى عبد الوهاب أغلب هذه السنين إلى جوار والده عبد الرحمن بن رستم يقاسمه فيها حلو الحياة ومرها . ورغم أن المصادر لم تذكر الكثير من التفاصيل عن حياة عبد الوهاب قبل توليه منصب الإمامة إلا أن الذى لا شك فيه أنه كان إلى جانب والده فى كل جهوده السياسية والحربية التى قام بها لتأسيس دولة إباضية ، وأنه عاش مع والده عبد الرحمن بن رستم فى القيروان أيام ولايته عليها من قبل أبى الخطاب ، ومما يؤيد ذلك ويدعمه ، أن عبد الرحمن بن رستم عندما فر من القيروان إلى المغرب الأوسط لم يكن معه غير ولده عبد الوهاب وغلام لهما وضرب عبد الوهاب فى أثناء هذه الرحلة الشاقة المضنية مثلا رائعا فى القوة والشجاعة ، للمحافظة على والده عبد الرحمن بن رستم حتى وصل هذا الركب الصغير إلى جبل سوفجج ، وكان عبد الوهاب ضمن من حوصروا فى الجبل وذاقوا مرارة الحصار وأعبائه .

---

(٨) الشماخى : السير ، ص ١٤٥ .

(٩) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة ، الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢١ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٠٠ .

(١٠) دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، جـ ٣ ، ص ٤٥٥ .

جمع عبد الوهاب من كل هذه السنين خبرة واسعة بفنون السياسة والإدارة والحرب واكتسب من والده قوة الشخصية ، ومتانة الشكيمة ، فهو شخصية صقلتها ونمتها الأحداث حتى إذا جاء دورها انطلقت تساهم فى صنع الأحداث على نحو هو أحسن ما يقبل منها وفوق هذا وذاك ، تمتع بين سائر أقرانه بمكانة علمية تكون رصيدها الهائل لديه على يد اثنين من حملة العلم ، أحدهما والده عبد الرحمن بن رستم ، والثانى أبو داود القبلى (١١) ، ويضاف إلى ذلك أنه تمتع ببعض الصفات الجسمية التى تكسب صاحبها الهيبة ، وتضفى عليه الكثير من قوة الشخصية فقد كان ضخما ممتد القامة ، وقد عبر عن ذلك الشماخى فيما نقله عن أبى زكريا من أن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم كان له مصلى « بتلالت وفى موضع من المصلى هذه بلاطة كان الإمام عبد الوهاب يتكئ عليها إذا قعد مساو بها رأسه وهذه البلاطة اليوم تحاذى رأس الواقف (١٢) .

استطاع عبد الوهاب بفضل هذه المميزات المتعددة لشخصيته أن يحتفظ بمركزه كإمام يقود دفة الأحداث فى الدولة الرستمية التى كانت الجبهة الداخلية فيها تغلى بأزمات انفجرت تباعا ، وحتى يتفرغ عبد الوهاب لتأمين هذه الجبهة الداخلية فى دولته رأى أن يجدد فورا وبسرعة اتفاقية الموادعة التى تمت بين والده عبد الرحمن بن رستم وبين روح بن حاتم أمير القيروان والتى رغب روح بن حاتم نفسه فى استمرارها (١٣) .

---

(١١) إسماعيل بن موسى الجيطالى النفوسى : قناطر الخيرات ، ت : عمرو خليفة النامى ، طبعة ١٩٦٥ ، القسم الأول ، هامش ١٦٢ .

(١٢) الشماخى : السير ، ص ١٥٩ (ونفس الرواية موجودة عند أبى زكرياء ، مع اختلاف فى اللفظ) ، (أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ٢٣أ) .

(١٣) ابن خلدون : العبر ، ط . مؤسسة الأعلمى ببيروت ، جـ ٤ ، ص ١٩٤ ، القيروانى : تاريخ إفريقية والمغرب ، ت : المنجى الكعبى ، ص ١٧٣ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٠١ .
GAUTIER. O.P. cit. p. 303.

٣ – عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وتأمينه للجبهة الداخلية :

أولاً : ثورة النكار :

تزعم يزيد بن فندين – وهو أحد الذين رشحهم عبد الرحمن بن رستم لمنصب الإمامة – تيار المعارضة ضد الإمام عبد الوهاب ، وذلك سنة (١٧١ هـ / ٧٨٧ م) وهى نفس السنة التى تولى فيها عبد الوهاب منصب الإمامة برضى العامة والخاصة . ويزيد بن فندين هذا ينتمى إلى بنى يفرن وهم فرع قوى من قبيلة زناتة البترية . ويرجع بعض كتاب الإباضية (١٤) أسباب خروج يزيد بن فندين على الإمام عبد الوهاب إلى أسباب شخصية ، فيزيد أخفق فى الوصول إلى منصب الإمامة رغم أن عبد الرحمن بن رستم جعله من بين المرشحين السبعة لهذا المنصب ، ومما زاد الأمر سوءا أن عبد الوهاب لم يسند إليه بعد توليته الإمامة منصبا من مناصب الدولة التى كان يزيد يتطلع إلى توليتها . ومما ساعد يزيد على ذلك تلك الخلافات التى ظهرت فى مطلع عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم والتى ترجع إلى أن بعض زعماء الإباضية راعهم تحول إمامتهم إلى ملك وراثى فى أبناء عبد الرحمن بن رستم (١٥) .

ولكن الذى يبدو أن سياسة الإمام عبد الوهاب ومبادئه الصارمة فى الحكم وتمسكه بها إلى درجة التشدد ، دفعته إلى أن يعهد بالمناصب إلى من يعرف فيه العزوف عنها ، ويبعد عن تلك المناصب الطامحين فيها وهو الأمر الذى سيثير عليه سخط أصحاب المطامع . وقد أوضح الدرجينى هذه الحقيقة حين قال : « فأما سبب افتراق الإباضية فيما ذكر غير واحد من أصحابنا فهو أن عبد الوهاب رحمه الله لما ولى المسلمين استعمل على ولاياته كلها أهل الورع والزهد وكل من علم أنه ليست له رغبة فى الولاية واستعان على ما قلده الله

(١٤) أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ١٥ أ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٠٢ ، أبو ربيع البارونى : مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٣٤ .

(١٥) د. محمود إسماعيل عبد الرازق الحركات السرية فى الإسلام رؤية عصرية ، دار القلم ببيروت ، ١٩٧٣ ، ص ٢٦ .

من أمور المسلمين بأهل العلم والبصاير فى الدين » (١٦) .

عملت هذه السياسة على اتساع الهوة بين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وبين الطامعين فى السلطان من خصومه (١٧) ، وخاصة يزيد بن فندين الذى نهض مثيرا للفتنة بتاهرت ، وأخذ يجمع حوله الأنصار والمؤيدين ، واتخذ لذلك شتى الوسائل لاقناعهم بوجهة نظره فأشاع أن عمال الإمام ليسوا على قدر كبير من الكفاءة والدراية لتدبير شئون الدولة وأنه هو وأتباعه أولى بهذه المناصب (١٨) وجدد ابن فندين وأتباعه الدعوة إلى وجود جماعة معلومة لا يقطع الإمام أمرا دون الرجوع إليها (١٩) . وتدرج ابن فندين من ذلك إلى انكار إمامة عبد الوهاب وإعلان فساد البيعة من مبدئها بدعوى أن فى المسلمين من هو أكثر منه علما .

ويحدثنا الشماخى عن الطريقة التى كان يتبعها يزيد بن فندين وأتباعه لإقناع الناس برأيهم فيقول عنهم : « وخادعوا الناس بأقوالهم واضطربوا فإذا لقوا من لا بصيرة له فى الدين قالوا شرطنا أن لا يقطع أمراً ولا يقضى دون جماعة معلومة ، وإذا خلوا بإخوانهم قالوا قدم علينا من نحن أولى منه بالتقديم وقد وليناه الأمر على أن يقدمنا ويرفع درجتنا فأخرنا وإذا لقوا الضعفاء قالوا لا تجوز إمامة رجل إذا كان فى المسلمين من هو أعلم منه فأفشوا القيل والقال وارتحلوا خارج المدينة وإلى الجبال ليمكنوا من قارب الضعفاء ومن لا بصيرة له ولتتم كلمتهم » (٢٠) .

أدت هذه الأحداث إلى انقسام مذهبى خطير داخل الجماعة الإباضية

---

(١٦) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢١ . .

(١٧) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ص ٣٨٩ .

(١٨) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢١ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٠٢ .

(١٩) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢١ ، الشماخى : السير ، ص ١٤٦ .

(٢٠) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ١٦ ، (« قارب » هكذا فى الأصل) .

فى المغرب الأوسط فأصبح هناك النكار وهم أتباع يزيد بن فندين الذين أنكروا إمامة عبد الوهاب ، أما جمهور الإباضية بالمغرب الأوسط وهم مؤيدو عبد الوهاب فسموا بالوهبية نسبة إلى الإمام عبد الوهاب (٢١) . وانسلخ النكار عن مجتمع تاهرت وأصبح لهم مكان خاص بهم خارج تاهرت عرف (بكدية النكار) (٢٢) .

ظل عبد الوهاب يراقب خصومه بحذر شديد ، وفى تلك الأثناء دبر يزيد بن فندين مؤامرة لقتل عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، والتخلص منه نهائيا ، فعمد ابن فندين إلى وضع رجل مسلح داخل صندوق مغلق وتظاهر رجلان من أتباع ابن فندين بأن بينهما خلافاً حول هذا الصندوق وأن كلا منهما لا يأمن صاحبه عليه وأنهما يريدان الاحتفاظ به عند الإمام حتى ينتهى ما بينهما من خلاف واتفق القوم مع صاحبهم الذى بداخل الصندوق على أن ينهض فى الليل فيقتل عبد الوهاب ، وعندما يتمكن من ذلك يؤذن لصلاة الصبح فتكون هذه شرارة ينطلق بعدها أتباع ابن فندين فيضعون السلاح فى أهل المدينة ويستولون على السلطة بالقوة (٢٣) .

وثارت الشكوك فى نفس الإمام فالصندوق ثقيل ، وقفله من داخله لذا وضع الإمام فى فراشه زقا منفوخا وألقى عليه رداء أبيض ، وفى المساء تحققت شكوك الإمام حيث خرج الرجل من الصندوق ، وظن الزق هو الإمام فضربه بسيفه ، وهنا عاجله الإمام بضربة قاتلة ووضعه فى صندوقه وظل القوم حتى الصباح ولم يسمعوا شيئا من صاحبهم ، فاجتمعوا إلى الإمام وقالوا اتفقنا ونريد

---

(٢١) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٥٢ .

(٢٢) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ١٦ ، (ويذكر الدرجينى أنهم سُموا بالشغبة لإدخالهم شغباً فى الإسلام ، ويقول أيضاً إنهم ألحدوا فى أسماء الله وسُموا الملحدة وسُموا النكاث أيضاً لنكثهم للبيعة بغير حدث) ، الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢٢ .

(٢٣) المصدر السابق ، ورقة ٢٣ ، الشماخى : السير ، ص ١٤٩ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

الصندوق وحملوه إلى مأمنهم فوجدوا صاحبهم قتيلا (٢٤) .

وبفشل المؤامرة توقع النكار فتك الإمام بهم فخرجوا من تاهرت وعادوا إليها فى جموع تحمل السلاح ، فنهاهم الإمام عن ذلك بواسطة بعض خواصه فقالوا لهم : « ما فى امساك السلاح معصية ولا فى حمله من بأس والمؤمن بسلاحه وإن رأى الإمام فى ذلك معصية فليقنعنا بالحجة » (٢٥) ، فأصدر الإمام أوامره بالاستعداد للحرب ، فازداد الناس خوفا واشتدت وطأة النكار فأكثروا من التعدى حتى اشتعلت الحرب بينهم وبين الإمام وسفكت فى هذه الحرب دماء كثيرة الأمر الذى جعل الإمام وأنصاره من الإباضية يطلبون الهدنة مع النكار على أن تكون هذه الهدنة فترة يجرى فيها التحكيم بينهم وبين الإمام ويتولى هذا التحكيم علماء الإباضية المشارقة وذلك عن طريق رسل يمثلون الأطراف المتنازعة تكون مهمتهم الذهاب إلى المشرق والحصول على رأى زعمائه من الإباضية فى هذه القضية (٢٦) .

وانطلق رسل الإباضية نحو المشرق يحملون قضية الخلاف إلى علماء الإباضية المشارقة ، ويدور الخلاف فى هذه القضية حول موضوعين أساسيين أثارهما يزيد بن فندين وجماعته :

أحدهما : أن على الإمام عبد الوهاب ألا يقطع برأى فى مسألة من المسائل إلا إذا رجع إلى جماعة معلومة تكون بمثابة هيئة استشارية له وهذا ما رفضه عبد الوهاب حين بويع بالإمامة .

ثانيهما : أن إمامة عبد الوهاب باطلة من أصلها لأن فى المسلمين من هو أكثر منه علما .

---

(٢٤) أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، ورقة ١٧ أ ، الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢٣ ، ٢٤ ، الشماخى : السير ، ص ١٤٩ .

(٢٥) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٢٦) نفس المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

والذى تذكره بعض المصادر الإباضية أن رسل الإباضية مروا على مصر وأنهم قابلوا هناك من علماء الإباضية أبا المعروف شعيبا وغيره من علماء الإباضية ، وهناك قاموا بعرض الأمور عليهم (٢٧) . ثم توجهوا بعد ذلك إلى مكة حيث التقوا هناك بعدد من علماء الإباضية منهم أبو عمرو الربيع بن حبيب صاحب كتاب المسند فى الحديث ، وأبو غسان مخلد بن معمر الغسانى ، ووائل بن أيوب (٢٨) . وأمام هؤلاء جميعا طرحت القضية ثانية وجاء رأى أولئك العلماء من إباضية مكة مؤيدا لموقف عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وبعثوا برسالة مطولة تضمنت فساد تعليق الإمامة على شرط وجود جماعة تحكم مع الإمام لأن ذلك فيه إيقاف لحدود الله وتعطيل لها ، كما ذكرت الرسالة أنه يجوز تولية رجل من المسلمين وبينهم من هو أعلم منه لأن أبا بكر تولى أمر المسلمين وبينهم من هو أعلم منه (٢٩) .

وفى الوقت الذى كان فيه رسل إباضية مكة فى طريقهم إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم كان أبو المعروف شعيب العالم الإباضى المصرى قد خرج من مصر متجها نحو تاهرت كى يستفيد من هذا التوتر الذى أصاب الدولة . فالتقى أولا بالإمام عبد الوهاب وأوضح له أن إمامته صحيحة وأن الشرط الذى وضعه النكار باطل . وإن الإمامة تجوز لأى شخص ولو كان فى المسلمين من هو أعلم منه (٣٠) . ثم حين قابل أبو المعروف يزيد بن فندين – زعيم النكار – أوضح له ضعف موقفه ، وأن عليه أن يستأنف حرب الإمام

---

(٢٧) الشماخى : السير ، ص ١٥٢ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٢٨) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢٢ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٠٦ ، وعن الربيع بن حبيب . انظر : البرادى : الجواهر المنتقاة ، مخطوط ، ورقة ٨٨ .

(٢٩) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢٢ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٠٧ .

(٣٠) أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ١٦ أ ، الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢٢ .

ثانية قبل أن تعود الرسل من المشرق ، فيقوى من مركز عبد الوهاب (٣١) .

أخذ ابن فندين ومن معه من النكار ينتهزون الفرصة المناسبة للانقضاض على العاصمة تاهرت وفى يوم كان الإمام عبد الوهاب غائبا عن المدينة لقضاء بعض حوائجه فهجم ابن فندين بجيشه على المدينة ، « وكان أفلح بن عبد الوهاب يمشط رأسه وقد ضفر منه نحو الشطر وبقى الشطر فأخذ سلاحه وترسه فوقف على باب المدينة وقد كادوا يدخلونها ونشب إحدى رجليه على العتبة السفلى من باب المدينة فانسلخ رجليه إلى العرقوب وجالدهم حتى لم يبق فى مدرقته ما يصلح أن يكون وقاية فأخذ إحدى مصراعى باب المدينة فاتقى به وابن فندين بين يديه يضرب الناس يمينا وشمالا وعلى رأسه بيضتان فضربه فقسمه نصفين فنشب السيف فى الصفا من شدة الضربة فلما مات ابن فندين انهزمت أصحابه » (٣٢) . ويذكر كتّاب الإباضية أن عدد القتلى بلغ اثنى عشر ألف قتيل ، وجد الإمام عبد الوهاب أكثرهم على باب تاهرت حين عودته إليها فصلى عليهم جميعا رغبة منه فى اجتماع كلمة المسلمين فى دولته (٣٣) .

ولم تتوقف أعمال النكار عند هذا الحد ، ففى أعقاب وصول رسل الإباضية من المشرق بصحة إمامة عبد الوهاب ، غضبوا وعبروا عن ذلك الغضب بقتل ميمون بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ومثلوا بجثته (٣٤) ولكن أحد أبناء ميمون تعرف على قتلة أبيه حين كان يقوم بجباية الخراج من بعض نواحي الدولة الرستمية . وبعض كتاب الإباضية يرون أن عبد الوهاب تصرف بطريقة مثالية نحو الجناة إذ عمد إلى البحث عنهم حتى اتضح ارتكابهم لهذه الجريمة

---

(٣١) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ .

(٣٢) الشماخى : السير ، ص ١٥٠ .

(٣٣) أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ١٨ أ ، الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢٤ ، الشماخى : السير ، ص ١٥٠ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١١١ .

(٣٤) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢٥ .

بالحجة القوية ، فأرسل فى طلبهم فرفضوا الامتثال لأوامره واحتموا بمن كان معهم من بقايا ابن فندين من النكار . ولذلك اتخذ الإمام عبد الوهاب من هذه الحادثة ذريعة لتقليم أظافر النكار وكسر شوكتهم فأرسل إليهم جيشا بقيادة ابن ميمون ، فقتل الجناة ، وقتل من النكار عددا كبيرا فضعف أمرهم ولم تعد لهم تلك الخطورة التى تهدد عبد الوهاب (٣٥) . إلا أن الذى يلاحظ أن حركة النكار خلقت وضعا جديداً فى الدولة الرستمية ، فقد أعطت حركة النكار الفرصة لجماعات الواصلية من المعتزلة من أهل المغرب أن يناقشوا مسألة الإمامة فى الدولة الرستمية باعتبارهم من رعايا هذه الدولة وهذا ما جعل بقايا النكار ينضمون إلى هؤلاء الواصلية فى حركتهم ، وأصبحت حركة الواصلية المشكلة الثانية التى تهدد الجبهة الداخلية فى الدولة الرستمية بعد ثورة يزيد بن فندين .

ثانياً : ثورة الواصلية :

كانت جماعات الواصلية تؤلف حزبا قويا فى الدولة الرستمية فهم ينتسبون إلى واصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة (٣٦) ، ويقدر عددهم فى الدولة الرستمية بثلاثين ألفا يعيشون فى بيوت كبيوت الأعراب يحملونها (٣٧) وقد انتشر مذهبهم إلى الشمال من تاهرت ما بين مدينة مستغانم ووهران ، وإلى الجنوب من تاهرت فى (تيلغمت) وفى بعض المناطق الصحراوية ، وفى وادى ميزاب كما انتشرت هذه الجماعات من الواصلية أيضا وبأعداد كبيرة فى شمال المغرب الأقصى فى وليلى ، وكان رئيسهم هناك هو اسحاق بن محمد الأوربى (٣٨) ، وكانت هذه الجماعات تتمتع بقدر كبير من الحرية الفكرية فى ظل الدولة الرستمية ، فاستطاعوا بذلك أن

---

(٣٥) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة ، الشماخى : السير ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٣٦) البغدادى : الفَرق بين الفِرق ، ص ٩٦ .

(٣٧) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص٦٧ .

(٣٨) دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، جـ ٣ ، ص ٤٨٠ .

يدعوا لمذهبهم وأن يحتجوا له وأن يناظروا من يريدون حتى ولو كان إمام الدولة نفسه (٣٩) .

ويعزى خروج الواصلية على الإمام عبد الوهاب ، إلى أنهم غضبوا لمقتل يزيد بن فندين (٤٠)، باعتباره من بنى يفرن التى هى فرع من زناتة التى ينتمى إليها معظم الواصلية ، ويؤكد ذلك انضمام بقايا النكار بعد مقتل يزيد بن فندين إلى هؤلاء الواصلية ، وخاصة الموجودين منهم فى شمال تاهرت (٤١) .

ولم يكن هذا هو السبب الوحيد لثورة الواصلية على الإمام عبد الوهاب ، فقد كانت هناك مؤثرات خارجية دفعت الواصلية إلى الثورة ، وتظهر هذه المؤثرات واضحة عندما اتجه الإمام إدريس الأكبر بجيوشه نحو تلمسان سنة (١٧٣ هـ / ٧٨٩ م) (٤٢) . وهى إذ ذاك قاعدة المغرب الأوسط (٤٣) وبها من القبائل مغراوة وبنى يفرن (٤٤) . وتمكن إدريس الأكبر من إخضاع أميرها محمد بن خزر بن صولات المغراوى الذى طلب من إدريس الأكبر الأمان واعترف بإمامته (٤٥) .

---

(٣٩) الشماخى : السير ، ص ١٥٥ ، ١٥٦ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١١٧ ، دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، جـ ٣ ، ص ٤٨١ ، ٤٨٢ .

(٤٠) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٥٣ .

(٤١) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢٥ ، دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، جـ ٣ ، ص ٤٨٤ .

(٤٢) ابن أبى ذرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، ت : محمد الهاشمى الفيلالى ، ط . المطبعة الوطنية بالمغرب ١٩٣٦ ، ص ٢٢ ، د . حسن على حسن : دولة الأدارسة بالمغرب ، رسالة ماجستير بكلية دار العلوم ١٩٦٧ ، ص ١١٨ .

(٤٣) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٧٦ .

(٤٤) ابن أبى ذرع : الأنيس المطرب ، جـ ١ ، ص ٢٢ .

(٤٥) ابن خلدون : العبر ، ط . مؤسسة الأعلمى ببيروت ، جـ ٤ ، ص ٧ ، د . حسن على حسن : دولة الأدارسة بالمغرب ، ص ١١٨ .

وقد قام أمراء تلمسان من مغراوة وبنى يفرن بعد خضوعهم لسلطان الأدارسة بمحاولات لضم أجزاء من الدولة الرستمية إلى دولة الأدارسة التابعين لها . وعند ابن خلدون نص يؤيد هذا ، يقول ابن خلدون : « ولم يزل الملك فى بنى رستم هؤلاء بتاهرت ، وحازتهم جيرانهم من مغراوة وبنى يفرن على الدخول فى طاعة الأدارسة لما ملكوا تلمسان وأخذت بها زناتة من لدن ثلاث وسبعين ومائة » (٤٦) ، وقد تكاتفت الجهود فى هذا الشأن مع زعيم الواصلية فى المغرب الأقصى إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربى لإثارة واصلية المغرب الأوسط على حكامهم من الرستميين ، وقد حدثت مكاتبات بين إسحاق الأوربى وبين هؤلاء الواصلية بالمغرب الأوسط (٤٧) ، وجاء مقتل يزيد بن فندين فرصة لتدخل الواصلية وإثارة الجدل مرة ثانية حولة إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، ولم يقف الأمر بهم عند حد الجدل بل جمعوا جيوشا عظيمة اقتربت من تاهرت ودارت بين الفريقين معارك كانت الحرب فيها سجالا بين الطرفين (٤٨) .

وفى ضوء هذه الأحداث رأى عبد الوهاب أن يطلب المساعدة من إباضية جبل نفوسة (٤٩) . وكان الإباضية بجبل نفوسة يتمتعون بنوع من الاستقلال الذاتى عن نفوذ الدولة العباسية منذ زمن أبيه عبد الرحمن بن رستم . وفى عهد عبد الوهاب ازدادت الصلات بينه وبين إباضية هذا الجبل قوة (٥٠) . تقول رواية الشماخى إن عبد الوهاب طلب من أهل الجبل أربعمائة نفر . مائة من الفرسان للمبارزة ، ومائة مفسر ، ومائة متكلم ومائة فقيه عالم بفنون الحلال والحرام

---

(٤٦) ابن خلدون : العبر ، ط . مؤسسة الأعلمى ببيروت ، جـ ٦ ، ص ١٢١ ، ١٢٢ .

(٤٧) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١١٦ ، ١١٧ ، د . حسن على حسن : دولة الأدارسة بالمغرب ، ص ٢٤٦ .

(٤٨) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١١٧ .

(٤٩) الشماخى : السير ، جـ ٢ ، ص ١٥٤ .

(٥٠) د . إحسان عباس : تاريخ ليبيا ، ص ٥٦ .

« لأن الواصلية معهم عالم عيا من هناك فى الكلام وفيهم شاب لا يبارزه أحد إلا قتله » (٥١) والغريب فى هذه الرواية أن هذه الأعداد المطلوبة لا تنسجم مع ما أرسلته إباضية نفوسة فعلا لمساعدة عبد الوهاب ، إذ أرسلت له نفوسة أربعة أفراد بدلا من أربعمائة وهم محمد بن يانس ، ومهدى النفوسى ، وأبو الحسن الأبدلانى ، وأيوب بن العباس (٥٢) . ولكن يبدو أن هذه الرواية أرادت أن تضفى الثناء على هؤلاء الأربعة وتقول أن الواحد منهم كان يعدل مائة (٥٣) . وعند الدرجينى رواية تخفف من حدة هذه المبالغة فى رواية الشماخى يقول الدرجينى : « فلما رأى الإمام (عبد الوهاب) ما نزل به منهم (الواصلية) وأن حربهم مقيم أرسل إلى أهل جبل نفوسة يستمدهم طالبا منهم جيشا نجيبا يكون فيهم رجل مناظر عالم بفنون الرد على المخالفين ورجل عالم بفنون التفاسير ورجل شجاع يستعد لمبارزة الواصلى (٥٤) .

وكان الإمام عبد الوهاب ينتظر قدومهم بفارغ الصبر حتى أنه وعد أن من أتاه بخبر وصولهم أعتقه وأخرجه حرا ، وكان من بين الغلمان غلام أعرج ، فلما رأى الغلمان يتسابقون يوما إلى الإمام ، فعلم أن ذلك من قدوم نفوسة . فأخبر الإمام بقدومهم فخرج حرا ، فلما بشر الغلمان الإمام عبد الوهاب ، قال لهم فاز بها الأعرج ، وأرسلت مثلا (٥٥) .

وعلى الفور اجتمع عبد الوهاب بوفد نفوسة وقال لعالمهم الملقب بمهدى النفوسى : « وقع بينى وبين المعتزلى فى مناظرتى له كذا وكذا فذكر ما وقع بينهما من الحديث فكلما زاغ المعتزلى عن الحق وحاد عن الصواب قال مهدى ها هنا

---

(٥١) الشماخى : السير ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ (« عيا » هكذا فى النص) .

(٥٢) الشماخى : السير ، ص ١٥٥ .

(٥٣) د . إحسان عباس : تاريخ ليبيا ، ص ٦٦ .

(٥٤) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢٥ .

(٥٥) أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ٢٠ أ ، الشماخى : السير ، ص ١٥٥ .

ذهب عن الالتزام وها هنا لبس بالشبهة حتى أطلعه على مكامنه وما لبس به » (٥٦) .

ولما تأكد الإمام عبد الوهاب من تمام استعداداته للقاء الواصلية دعاهم إلى المناظرة فاستعد الفريقان وجمع كل منهما جموعه ، وتقدم الإمام عبد الوهاب من بين الصفوف ومعه جماعة من بينهم مهدى النفوسى ومحمد بن يانس فتناظر مهدى النفوسى مع عالم الواصلية حتى غاصا فى كلام لم يفهمه الحاضرون ، وتمادى بهم الحديث والمناظرة حتى أفحم مهدى عالم الواصلية فكبر الحاضرون من أتباع عبد الوهاب ، وعلى أثر ذلك نشب قتال ضارى بين الإباضية وبين الواصلية استطاع فيه أيوب بن العباس أن يقتل فارس الواصلية ، وبمقتله انهزمت جماعات الواصلية ، وعاد بعضهم إلى طاعة الإمام والبقاء داخل نطاق الحكم الرستمى (٥٧) ، والبعض الآخر كونوا لهم بعض الإمارات مثل إمارة (ايزرج) بجانب تاهرت ، كما كان منهم مَن توجه إلى المغرب الأقصى والتف هناك حول زعيمه المعتزلى إسحاق بن محمد الأوربى الذى امتد نفوذه ما بين (طنْجة) إلى (وليلى) بجبل (زرهون) (٥٨) . ويمثل القضاء على حركة الواصلية خطوة هامة للمحافظة على حدود الدولة الرستمية الغربية فقد أوقف الأدارسة عند حدود تلمسان ، وأكد سلطان الدولة الرستمية على ما يلى تلمسان شرقا من أراضى المغرب الأوسط .

ثالثاً : ثورة مزاتة وسدراتة :

لم تكن هذه الأحداث السابقة هى كل ما واجه عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، فالنكار ما زالت بقاياهم تحاول إثارة الشغب فى الدولة

---

(٥٦) نفس المصدر السابق ، ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٥٧) الشماخى : السير ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٥٨) محمد بن تاويت : دولة الرستميين أصحاب تاهرت ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، ص ١١٤ ، ١١٥ .

عن طريق الدعوة السرية التى قاموا بها بعد هزيمتهم أمام عبد الوهاب ، لأنهم لم يكونوا من القوة بحيث يمارسون ذلك علنا خوفا من بطش الإمام بهم . ورأى النكار فى أشهر الربيع فرصة عظيمة لكسب الأنصار والمؤيدين لهم ، ففى أشهر الربيع تكون تاهرت وما حولها مناطق رعوية مليئة بالعشب ، وإلى هذه المناطق تأتى قبائل مزاتة وسدراتة وغيرها للانتجاع والرعى ، وبعد انتهاء موسم رعيهم يدخل وجوههم ورؤساؤهم مدينة تاهرت ، فيبرهم أهلها ويكرمونهم ، ويقضون حوائجهم ثم يرتحلون بعد ذلك إلى بلادهم (٥٩) .

وإلى هذه الحقائق الهامة أشار ابن الصغير بقوله : « إن قبائل مزاتة وسدراتة وغيرهم، كانوا ينتجعون من أوطانهم التى هم بها من المغرب وغيرها فى أشهر الربيع إلى مدينة تاهرت وأحوازها لما حولها من الكلأ وغيره ... وكانوا إذا انتجعوا دخل وجوههم ورؤساؤهم المدينة فيبرون ويكرمون ثم يخرجون إلى شياههم وبعيرهم فيقيمون بها إلى ظعنهم » (٦٠) .

استغل النكار هذه الفرصة لتأليب هذه القبائل الوافدة على تاهرت ، وقاموا بدعوة سرية وعلى نطاق واسع بين رؤساء هذه القبائل وأفرادها فقالوا لهم « إن الأمور قد تغيرت والأحوال قد تبدلت قاضينا جائر وصاحب بيت مالنا خائن وصاحب شرطتنا فاسق وإمامنا لا يغير من ذلك شيئا وقد جاء الله بكم فادخلوا إلى هذا الإمام واسألوه عن قاضيه وصاحب بيت مالنا وصاحب شرطتنا وأن يولى علينا خيارنا فأجابوهم إلى ما يسألون » (٦١) .

فذهب وفد من رؤساء هذه القبائل إلى عبد الوهاب وقالوا له « إن رعيتك قد ضجت من قاضيك وصاحب بيت مالك والقائم بشرطتك فاعزلهم عنهم وولى

(٥٩) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ١٧ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٢٩ .

(٦٠) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ١٧ .

(٦١) نفس المصدر السابق ، ص ١٨ .

عنهم خيارهم فقال عبد الوهاب : جزاكم الله من وفد خيراً . . الأمر إليكم قدموا من رأيتم وأخروا من رأيتم » (٦٢) وبعد خروجهم من عنده استشار عبد الوهاب وجوه رجاله وقواده وأهل بطانته فى هذا الأمر فقالوا له إنك لو استجبت إلى مطالبهم فلا بأس أن يطلبوا منك ما هو أكثر من ذلك فيقولون لك : « إن المسلمين قد نقموا عليك أشياء أو على ولديك فإن أجبتهم إلى ذلك شكروك وحمدوك وإن أبيت لهم من ذلك خلعوك ونبذوك ثم لا تأمن لو أجبتهم إلى كل ما سألوك أن يأتوك فيقولون لك إن المسلمين فى ابتداء أمرك لم يجتمعوا عليك فانخلع واردد إليهم أمرهم » (٦٣) .

وأحس الإمام بحرج موقفه فقد وعد رؤساء سدراتة ومزاتة بعزل القاضى وصاحب بيت المال والقائم بأعمال الشرطة وتولية غيرهم ، ولكنه استطاع التخلص من هذا المأزق فى اليوم التالى ، فقال لهم هو ومن معه من خاصته : « أنه لا يجب عزل القاضى ولا صاحب بيت المال إلا بجرحة تظهر عليه ولا يجب عزل القضاة ببغى البغاة وسعى السعاة » (٦٤) فقالوا للإمام : لم يكن هذا اتفاقنا بالأمس وخرجوا من عنده متوجهين إلى الكدية المعروفة بكدية النكار وأقسموا على ضرورة عزل من سألوا عزلهم ومحاكمة عبد الوهاب (٦٥) .

ولم يجد عبد الوهاب بدا من محاربتهم والقضاء على حركتهم خاصة وأن الصلة أصبحت قوية بينهم وبين النكار أعدائه القدامى هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن قبيلة مزاتة كما يقول ابن حوقل لها انتماء قوى لمذهب الاعتزال على رأى واصل بن عطاء (٦٦) .

وجه عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الإنذار إلى تجمعات مزاتة

---

(٦٣) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(٦٤) نفس المصدر السابق ، ص ١٩ .

(٦٥) نفس المصدر السابق ، ص ١٩ ، ٢٠ .

(٦٦) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٩٤ .

وسدراتة ومن معهم من النكار بالالتزام بالطاعة فلم يستجيبوا له فخرج إليهم عبد الوهاب فى قوات ضخمة قضت على حركتهم أما ما بقى من هذه القبائل فقد فر إلى مواطنهم (٦٧) . أما النكار فإن معظمهم انحاز إلى جبال الأوراس حيث ظلوا معتصمين بها حتى نهاية الدولة الرستمية (٦٨) .

ونجح عبد الوهاب فى القضاء على هذه الحركة وتوطدت دعائم دولته الأمر الذى جعل ابن الصغير يقول : « ثم اشتد أمر عبد الوهاب وقوى عليه وانتقل من حال الإمامة إلى حال الملك » (٦٩) .

رابعاً : عصيان قبيلة هوارة :

كانت سياسة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الحيلولة بين المصاهرات التى تقوم بين القبائل الكبرى فى دولته وذلك كجزء من سياسته فى تأمين الجبهة الداخلية للدولة ، وقد حارب عبد الوهاب مثل هذه التحالفات بنفس الأسلوب الذى اتبعته هذه القبائل ، ومما يذكر فى هذا الشأن أن قبائل هوارة التى كانت تقيم بإزاء تاهرت ، كان لهم رؤساء مقدمون يقال لهم الأوس ويعرفون أيضاً ببنى مسالة وكان لدى أحد رؤساء قبيلة لواتة ابنة جميلة ، فأراد مقدم بنى مسالة أو رئيسهم أن يصاهر لواتة ، وبذا تصبح مصالح القبيلتين واحدة وينعقد التحالف بينهما (٧٠) .

وقد فطن عبد الوهاب إلى خطورة هذه المصاهرة « فأرسل عبد الوهاب إلى الرجل فأحضره فأجلسه وخطب إليه ابنته فزوجه إياها فاتصل ذلك بالأوس

---

(٦٧) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٢٠ .

(٦٨) محمد بن تاويت : دولة الرستميين فى تاهرت ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، ص ١١٤ .

(٦٩) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٢٠ .

(٧٠) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٢٠ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٣٣ .

فقال : عمل على بجارية خطبتها ورضى إلى بتزويجها فانتزعها منى بسلطانه » (٧١) .

وغضب مقدم الأوس وغضبت معه عشيرته وأقسم ألا يقيم بتاهرت فارتحل عنها حتى نزل بوادى هوارة بينه وبين تاهرت نحواً من عشرة أميال أو أكثر ، وانضم إليهم كثير من الخارجين على الإمام ، وبدأت هذه الجماعات من هوارة تقوم ببعض أعمال العنف ضد مواطنى الدولة ، فقتلوا ولداً للبغال عند موضع يقال له « شرات » بالقرب من نهر أبى سعيد (٧٢) ، وقام أتباع عبد الوهاب بتفقد القتيل وذلك تبعاً لمبادئهم التى تنص على عدم محاربة خصومهم إلا إذا ثبت أنهم استحلوا الأموال ، وقد وجدوا خاتم ولد البغال مفقوداً ، هنا كبروا وقالوا : « قد استحلوا الأموال وحل قتالهم (بنو مسالة ومن معهم) ثم أخذوا فى التهيئ للحرب والخروج إلى عدوهم فاجتمع إلى عبد الوهاب أمم كثيرة وخلق عظيم » (٧٣) .

والتقى الفريقان عند نهر أسلان وقد أبلى أفلح بن عبد الوهاب فى هذه الحرب بلاء عظيما ، فكان عبد الوهاب كلما نظر فى اتجاه وجد فارساً يقاتل بشجاعة فيسأل عن الفارس « فيقال له ابنك أفلح قال : لقد استحق أفلح الإمامة فكان أول يوم عقدت له الإمامة » (٧٤) .

وانتهت المعركة وهزمت جموع الأوس هزيمة فادحة ورحلت بقاياهم إلى جبل ينجان (٧٥) . وهكذا بذل عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم جهوداً مضنية للاحتفاظ بوحدة الدولة الرستمية وتوطيد دعائمها وتمكن بفضل هذه الجهود من القضاء على الفتن والثورات الداخلية .

---

(٧١) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٢١ .

(٧٢) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة ، البارونى : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٣٣ .

(٧٣) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين ، ص ٢٢ .

(٧٤) المصدر السابق ، ص ٢٢ .

(٧٥) نفس المصدر السابق ، ص ٢٣ .

خروج الإمام للحج :

يذكر الشماخى أن الإمام عبد الوهاب – بعد أن استقرت أوضاع الدولة الرستمية اعتزم السفر لأداء فريضة الحج (٧٦) . فاستخلف ابنه أفلح على تاهرت وخرج مستصحباً زوجته وجمعاً كبيراً من رجال دولته ومضى بهم نحو المشرق (٧٧) ، متخذاً الطريق الصحراوية المارة بقسطيلية وجبل دمر الواقع إلى الجنوب من مدينة قابس وإلى الشمال الغربى من جبل نفوسة (٧٨) ولكن الإباضية فى شرق الدولة منعوا الإمام من مواصلة السفر للحج خوفا من أن يقبض العباسيون عليه وطلبوا منه أن يستشير علماء الإباضية المشارقة فى هذا الأمر . فأرسل عبد الوهاب رجلا نفوسيا من أهل تمزدا إلى أبى عمر الربيع بن حبيب وإلى ابن عباد من علماء الإباضية المشارقة فى مكة يطلب رأيهم فى أمر ذهابه إلى الحج . فأجابه الربيع من كان مثلك فى العناية بأمور المسلمين وحمل أماناتهم وخاف على نفسه من المسودة أن يبعث بحجة وهو حى ، وأجابه ابن عياد أن من كان على هذه الصفة فلا حج عليه لأن شرط الحج أمان الطريق فلما قدمت عليه رسله أخذ بقول الربيع فأرسل رجلا من أهل تمزدا يحج عنه (٧٩) .

ويشك البعض فى أن يكون هدف الإمام من هذه الرحلة هو الحج بدعوى أن الإمام أقام فى بنى زمور مدة امتدت إلى سبع سنوات ، وأن أحداثا هامة حدثت خلال وجود عبد الوهاب فى هذه المناطق ، وأنه شارك فيها بنفسه (٨٠) . وقد آثر عبد الوهاب أن يبقى فى أقاليم الدولة الشرقية لينظم الأوضاع بها خاصة وأن مناطق جديدة بأكملها قد انضمت إلى الدولة الرستمية .

---

(٧٦) الشماخى : السير ، ص ١٥٩ .

(٧٧) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٣٧ ، د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٤٥٤ ، ٥٥٥ .

(٧٨) نفس المرجع السابق ، ص ٥٥٥

(٧٩) الشماخى : السير . ص ١٥٩

(٨٠) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير . ص ٣٩١

٤ - تدعيم الجبهة الشرقية للدولة :

(ا) انضمام جبل دمر للدولة الرستمية :

كان جبل دمر هو أول المناطق التى نزل بها الإمام عبد الوهاب وتسكن هذا الجبل قبائل دمر الزناتية ، ومع أنهم من الإباضية إلا أن استقرارهم بالقرب من إفريقية - ركيزة النفوذ العباسى فى المغرب - جعلهم يفضلون حياة الاستقلال عن الدولة الرستمية حتى لا يتعرضوا لضربات العباسيين (٨١) .

نزل الإمام فى ضيافة أهل الجبل أياما ، وفى أثناء ذلك دعاهم الإمام عبد الوهاب إلى الانضمام إلى دولته ، فبايعوه وانضموا إليه واعترفوا بإمامته عليهم وقدموا له البيعة مباشرة ، فولى عليهم شيخا صالحا منهم يدبر شئونهم يعرف بمدرار (٨٢) . وبنى هناك مسجدا ومصلى ، والمسجد مشهور باسم مسجد عبد الوهاب ، وقد أقامه فى موضع يقال له (تلالت) من هذا الجبل (٨٣) .

(ب) زيارة الإمام لجبل نفوسة :

مضى الإمام بعد ذلك إلى جبل نفوسة الذى يتصل اتصالا وثيقا بجبل دمر (٨٤) . ويعتبر هذا الجبل معقلا هاما من معاقل الدولة الرستمية فأهل الجبل كلهم من الإباضية ، وهم لا يدينون بالطاعة لأحد غير إمام تاهرت وفى ذلك يقول اليعقوبى : « لا يؤدون خراجا إلى سلطان ولا يعطون طاعة إلا إلى رئيس لهم بتاهرت وهو رئيس الإباضية يقال له عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم » (٨٥)

---

(٨١) د . اسيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٥٥ .

(٨٢) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢٩ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، ٢ ، ص ١٣٧ .

(٨٣) نفس المصدر السابق ، ص ١٣٨ ، الشماخي : السير ، ص ١٥٩ .

(٨٤) ابن سعيد : كتاب الجغرافيا ، ت : إسماعيل العربى ، ص ١٤٥ .

(٨٥) اليعقوبى . كتاب البلدان ، ص ٣٤٦ .

ويذكر البكرى أن قبائل هذا الجبل إذا تداعت للقتال فإنها تستطيع أن تجند للحرب ستة عشر ألف مقاتل (٨٦) وهذه الكثرة العددية كان لها أثرها فى الحفاظ على كيان الدولة الرستمية كقوة سياسية فى بلاد المغرب .

أقام الإمام عبد الوهاب بجبل نفوسة سبع سنوات واتخذ من قرية (ميرى) مقرا له وبنى بها مسجده وكان غاية فى الاتساع والترتيب والصنعة (٨٧) وقد شهد هذا المسجد لعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم جهودا ثقافية رائعة حيث عقدت حلقات الدراسة للطلاب الذين تعاقبوا على الإمام ينهلون من علمه . ويقال : إن موضوع الصلاة قد استأثر بكثير من اهتمام عبد الوهاب طيلة هذه السنوات السبع (٨٨) ولقد ظهر فى جبل نفوسة جيل من العلماء الذين حملوا شعلة العلم فى عصر الرستميين ، ومن هؤلاء العلماء مهدى النفوسى ، ومحمد بن يانس ، وأبو الحسن الأبدلانى ، وعمروس بن فتح، ويعقوب بن أفلح ، وأبو عبيدة عبد الحميد الجناوانى ، ومعبد الجناوانى (٨٩) .

(ح) حصار طرابلس :

ومن جبل نفوسة كان عبد الوهاب يراقب الأحداث المضطربة فى طرابلس التى استشرت فيها حوادث الشغب ، نتيجة للخلافات القبلية التقليدية بين القيسية واليمنية والتى حاول الأمير الأغلبى إبراهيم بن الأغلب معالجتها بشتى الوسائل حتى أنه استعان بجند مصر فى قمع هذه الفتن دون جدوى . فلجأ عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب – نائب طرابلس – إلى الاستعانة بالبربر لمواجهة الموقف المتأزم ، ولكن هذه الجهود فشلت هى الأخرى وعمت الفوضى أنحاء طرابلس ،

---

(٨٦) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٩٠ .

(٨٧) الشماخى : السير ، ص ١٥٩ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٤١ ، ١٤٢ .

(٨٨) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢٩ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٤٢ ، على يحيى معمر : الإباضية فى موكب التاريخ ، جـ ٢ ، القسم الأول ص ٨٧ .

(٨٩) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٧٥

وقام البربر بثورة على جند المدينة وعلى العرب عموما بما فيهم نواب بنى الأغلب فثارت هوارة فى وجه الأغالبة (٩٠) . ويبدو أن الذى شجعها على ذلك ، وجود عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم فى جبل نفوسة ، القريب من طرابلس (٩١) . فالمسافة بين جبل نفوسة وطرابلس كما يذكر الجغرافيون القدامى لم تكن أكثر من مسيرة ثلاثة أيام (٩٢) .

خرج جند الأغالبة من طرابلس لإخماد ثورة هوارة ، والتقى الجند بمجموع هوارة عند وادى الرمل (٩٣) ، ولكن هوارة استطاعت أن تسحق جند الأغالبة وجعلتهم يفرون أمامها إلى طرابلس وتبعتهم هوارة حتى دخلت طرابلس وهدمت أسوارها ، ويصور ابن الأثير هذه المعركة بقوله : « فثارت هوارة بطرابلس فخرج الجند والتقوا واقتتلوا فهزم الجند إلى المدينة فتبعهم هوارة ، فخرج الجند هاربين إلى الأمير إبراهيم بن الأغلب ودخلوا المدينة فهدموا أسوارها » (٩٤) .

وصلت أنباء الثورة إلى مسامع إبراهيم بن الأغلب فسير إليها ابنه أبا العباس عبد الله فى ثلاثة عشر ألف جندى ، وتمكن عبد الله من إلحاق الهزيمة بهوارة ، وقتل منها عددا كبيرا وتمكن من دخول طرابلس وبناء سورها (٩٥) . ورأى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم أن هزيمة هوارة على هذا النحو اعتداء

---

(٩٠) د . محمود إسماعيل عبد الرازق : الأغالبة سياستهم الخارجية ، مكتبة سعيد رأفت ١٩٧٢ ، ص ٣٤ .

(٩١) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٥٥ .

(٩٢) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٩ ، ابن سعيد : كتاب الجغرافيا : إسماعيل العربى ، ص ١٤٥ .

(٩٣) الشماخى : السير ، ص ١٦٠ .

(٩٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٦ ، ص ٩٧ .

(٩٥) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

صارخ من الأغالبة على مواطنى دولته فأعد الجيوش وجمع القوات وتقدم بها لحصار طرابلس ، وتمكن عبد الوهاب من فرض حصار قوى على المدينة سنة (١٩٦ هـ / ٨١١ م) (٩٦) . وقد وجد عبد الوهاب متاعب كثيرة فى أثناء الحصار بسبب عدم التكتم على الخطط العسكرية فى معسكره الأمر الذى جعله يكتفى بمشورة وزيره مزوار بن عمران فقط دون غيره من القادة (٩٧) . ورغم هذه المتاعب التى عانى منها عبد الوهاب فإن أبا العباس عبد الله لم يجرؤ على فتح أبواب المدينة والخروج منها للقاء عبد الوهاب ، وإنما سد أبواب المدينة كلها ، وكان يقاتل من باب واحد هو باب هوارة ، وظل القتال يدور على هذا النحو حتى وفاة إبراهيم بن الأغلب الذى كان قد عهد بالإمارة إلى ابنه عبد الله ، وقام زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب بأخذ العهود والمواثيق على الجند ، وأرسل إلى أخيه عبد الله رسالة يخبره بموت أبيه وبأن الإمارة انتقلت إليه (٩٨) ولكن الرسول والرسالة وقعا فى أيدى جند عبد الوهاب ويروى ذلك ابن الأثير فيقول : « فأخذ البربر الرسول والكتاب ودفعوه إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، فأمر بأن ينادى عبد الله بن إبراهيم بموت أبيه (٩٩) وأمام هذه الظروف لم يجد عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب بدا من عقد الصلح مع الإمام عبد الوهاب ، وجاءت شروط هذا الصلح اعترافا من دولة الأغالبة - الممثل الشرعى للخلافة العباسية فى بلاد المغرب - بالسيادة الرستمية على المناطق الداخلية من طرابلس إذ كانت أهم بنود هذا الصلح أن يكون للأغالبة السيادة على مدينة طرابلس والبحر . أما ما كان خارجا على ذلك فهو لعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (١٠٠) .

---

(٩٦) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة ، الشماخى : السير ، ص ١٦٠ .

(٩٧) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(٩٨) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٦ ، ص ٢٧٠ .

(٩٩) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(١٠٠) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة

وبهذه المعاهدة قوى مركز الإمام الرستمى عبد الوهاب فى الجهات الشرقية للدولة الرستمية ، ولم يتوان هذا الإمام عن انتهاز أية فرصة لتوطيد دعائم دولته فنراه بعد ما صالح الأغالبة فى طرابلس ، يتطلع إلى المناطق التى يسود فيها المذهب الإباضى ليضمها إلى الدولة ، ويعين الولاة والعمال عليها من قبله ، فأرسل سلمة بن قطفان الزواغى إلى قابس ، فحاصرها وشدد عليها الحصار حتى استولى عليها ، وضمها إلى الدولة الرستمية وكانت ضمن نفوذ الأغالبة ، ثم تقدم ذلك القائد إلى ما يلى قابس من القرى والجبال والقبائل يخضعها لسلطان الرستميين كمطماطة ، وزنزقة ، ودمر وزواغة وجزيرة جربة (١٠١) .

وأخذ الإمام عبد الوهاب فى رصد عماله على هذه النواحى الجديدة وغيرها مما بسط الرستميون نفوذهم عليها . فجعل سلام بن عمرو اللواتى على مدينة سرت ونواحيها ، وسلمة بن قطفان الزواغى على مدينة قابس ومحمد بن إسحاق الخزرى على نفزاوة ، ووكيل بن دراج النفوسى على مدينة قفصة أما جارون بن القمرى ، ونهدى بن عاصم الزناتى وبيران اليزمرتنى المزاتى فيرجح أنهم كانوا عمالا للإمام عبد الوهاب على غدامس وزويلة وتوزر (١٠٢) .

وقصارى القول فإن عبد الوهاب استطاع عن طريق المعاهدة التى عقدت بينه وبين أبى العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب أن يفرض واقعا جديدا على الأغالبة ، فجعل خط الحدود فى دولته يسير مع خط المناطق التى ينتشر فيها المذهب الإباضى والمعروف أن المذهب الإباضى قد انتشر فى مناطق كثيرة من جنوب إفريقية وأن هذه المناطق من جنوب إفريقية نذكر جبال الأوارس موطن قبائل هوارة ومكناسة ، يقول البكرى : « جبل أوارس وهو مسير سبعة أيام وفيه قلاع كثيرة تسكنها قبائل هوارة ومكناسة وهم إباضية » (١٠٣) .

---

(١٠١) الشماخى : السير ، ص ١٦١ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

(١٠٢) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٦٤ ، ١٦٥ ، دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، جـ ٣ ، ص ٥١٣ .

(١٠٣) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ١٤٤ .

أما شمال الأوارس حتى جنوب مدينة بغاية فقد كانت فيه منازل مزاتة التي قال عنها الإمام عبد الوهاب « ما قامت هذه الدولة الرستمية إلا بسيوف نفوسة وأموال مزاتة » (١٠٤) . وعندما تحدث البكرى عن مدينة بغاية قال مؤكدا الوجود الإباضى هناك : « ويسكن فحص هذه المدينة قبائل مزاتة وضريسة وكلهم إباضية » (١٠٥) وعند ابن الصغير المالكى الدليل القاطع على خضوع هذه المناطق للنفوذ الرستمي وامتداد سلطاتهم الإدارية حتى هناك فعندما مات قاضى جبل الأوارس اختار مجلس الشورى لهذا المنصب القاضى محكم الهوارى وكان أحد الشخصيات البارزة فى جبل الأوارس . يقول ابن الصغير : « وأجمع رأيهم (مجلس الشورى) على محكم الهوارى الساكن بجبل أوارس فأتوا إلى أفلح بن عبد الوهاب فقالوا قد تدافعنا هذا فيما بيننا فلم نرتض أحدا منا وقد ارتضينا جميعا بمحكم الهوارى الساكن بجبل أوارس » (١٠٦) .

ويتضح من هذه الحقائق التاريخية أن خط الحدود الشرقية للدولة الرستمية يبتدئ شرقا من خليج سرت إلى طرابلس وقابس ما عدا مدينة طرابلس والساحل فانهما يقعان تحت النفوذ الأغلبى ، وينعطف الخط عند جنوب صفاقس نحو الغرب فيمر على قفصة وجبال الأوراس وتهوذة ، وبعدها يرتفع خط الحدود إلى الشمال تاركا أراضى إمارتى هاز ومتيجة حيث ينتهى فى شرق شرشال على ساحل البحر ، أما حد الدولة الرستمية الشمالى فيمتد على ساحل البحر من شرق شرشال إلى غرب وهران متضمنا مدنا ساحلية هامة هى شرشال وتنس ومستغانم ووهران . أما الحدود الغربية للدولة فتبدأ من غرب وهران وشرق جبال تلمسان إلى جنوبها ثم تتجه نحو الغرب فتخترق جبال القصور إلى غرب مدينة

(١٠٤) أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة . مخطوط . ورقة ٣١ أ . ب .

(١٠٥) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ١٤٤ ، دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، حـ ٣ ، ص ٥١٨ .

(١٠٦) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٢٣ ، ٢٤ ، البرادى : الجواهر المنتقاة ، مخطوط ، ورقة ٨٩ ، مع اختلاف فى بعض الألفاظ .

ففيف ، ومدينة بنى ونيف ، ثم تنحدر الحدود حتى الصحراء الكبرى فتخرج تلمسان وجبالها من نطاق الدولة الرستمية لأنها تخضع لنفوذ الأدارسة ، وفوق ذلك كله تتمتع الدولة الرستمية بنطاق حدود واسعة من الشمال إلى الجنوب تبدأ من ساحل البحر الأبيض المتوسط فى الشمال حتى أقصى الصحراء الكبرى فى الجنوب إلى ما بعد وارجلان وغدامس وفزان (١٠٧) .

٥ - عودة الإمام إلى تاهرت :

وبعد أن وطد الإمام عبد الوهاب النفوذ الرستمى فى إقليم طرابلس وكثير من جهات جنوب إفريقية عزم على العودة إلى تاهرت ، فطلب إليه أهل نفوسة وغيرهم من القبائل أن يولى عليهم رجلا وطلبوا أن يكون هذا الرجل السمح بن أبى الخطاب المعافرى ، وزير الإمام عبد الوهاب ، ورغم أن السمح كان عزيزا على الإمام ولا يريد أن يفارقه ، فقد نزل الإمام على رغبتهم وترك السمح واليا على إقليم طرابلس بما فيه جبل نفوسة ، ومضى الإمام راحلا إلى تاهرت (١٠٨) .

وظل السمح واليا على حيز طرابلس فأحسن السيرة « وعدل فى الأحكام وساس الرعية بأقوم سياسة ورتب العمال والقضاة ورجال الشرطة من أمناء الأهالى فى النقط المهمة ومراكز العمران وفق مرغوب إمامه بحيث لم ينكروا عليه شيئا فى مدة ولايته كلها لا يخرج عن رأى الإمام ولا يخالف له أمراً (١٠٩) . واستطاع السمح الاحتفاظ بولاء أهالى جبل نفوسة الدينى والسياسى للأئمة فى تاهرت » (١١٠) . فلما حضرت السمح الوفاة اجتمع وجوه أصحابه وقالوا له « أوصنا ومرنا بأمرك يرحمك الله فإنا مطيعوك فى حياتك وبعد وفاتك ... فقال

---

(١٠٧) دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، جـ ٣ ، ص ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، والجيلالى : تاريخ الجزائر العام ، جـ ١ ، ص ٢٢١ ، أحمد توفيق المدنى : كتاب الجزائر ، الطبعة العربية فى الجزائر ١٣٥٠ هـ ، ص ٢١ ، انظر الخريطة .

(١٠٨) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٣٠ ، الشماخى : السير ، ص ١٦١ .

(١٠٩) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٤٨ .

(١١٠) د . إحسان عباس : تاريخ ليبيا ، ص ٦٨ .

السمح أوصيكم بتقوى الله والاتباع لما أمركم به والانتهاء عما زجركم عنه وطاعة إمامكم عبد الوهاب وتأييده ما دام مستقيما على الحق الذى عليه وجهاد من خالفهم » (١١١) .

وبعد وفاة السمح سارع كثير من العامة إلى تولية خلف بن السمح (١١٢) ويبدو أن خلفا هذا قد دعا لنفسه على أساس أنه من أبناء أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى الذى كان إماما للإباضية قبل قيام الدولة الرستمية . ويؤيد ذلك أن خلفا لم يكتف بولايته على الجبل فحسب بل إنه ومؤيديه أرسلوا الكتب إلى أبى سفيان محبوب بن الرحيل وهو من أئمة الإباضية المشارقة يستفتونه راجين أن يجوز لهم الانفصال عن الدولة الرستمية بدعوى أنهم بعيلون عن تاهرت (١١٣) .

رفض الإمام عبد الوهاب ولاية خلف على حيز طرابلس وأرسل كتابا لأهل الجبل وبين لهم فساد ولاية خلف ويقول فى كتابه :

بسم الله الرحمن الرحيم

(من أمير المؤمنين عبد الوهاب) إلى جماعة المسلمين بحيز طرابلس

« أما بعد فانى آمركم بتقوى الله واتباع ما أمركم به واجتناب ما نهاكم عنه . وقد بلغنى ما كتبتم به إلى من وفاة السمح واستخلاف بعض الناس خلفا ورد أهل الخير ذلك .

---

(١١١) الشماخى : السير ، ص ١٦٥ .

(١١٢) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٤٩ .

(١١٣) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٣١ ، البارونى · الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٥١ .

فان من ولا خلفا من غير رضا إمامه فقد أخطأ سيرة المسلمين ومن أبا من توليته فقد أصاب فإذا أتاكم كتابى هذا فليرجع كل عامل استعمل منكم السمح إلى عمالته التى ولى عليها إلا خلف بن السمح حتى يأتيه أمرى وتوبوا إلى ربكم وراجعوا التوبة علكم تفلحون » (١١٤) .

ورفض خلف بن السمح ومن معه الاستجابة لأوامر الإمام وأعلنوا العصيان عليه ، ورأى الإمام عبد الوهاب أخطار الانقسام تهدد دولته وكان لهذا الإقليم من أقاليم دولته أثره فى دعمها ماديا وعسكريا ، لذا سارع الإمام إلى تعيين أيوب بن العباس ، وكان شخصية قوية هابها خلف والتزم بالسكون والطاعة(١١٥)، وبعد وفاة أيوب بن عباس تولى أبو عبيدة عبد الحميد الجناونى أمر جبل نفوسة ، وفى أيامه استفحل شأن خلف وأتباعه ، وأخذ فى شن الغارات على الأطراف ، فأرسل أبو عبيدة إلى الإمام عبد الوهاب يطلب منه أن يأذن له فى حرب خلف ، ولكن الإمام أشار على أبى عبيدة أن يلاطف خلفا وألا يفتح معه بابا للقتال ، فهدأت حركة خلف بن السمح مرة ثانية . وظل أبو عبيدة « قائما بأموره فى حيزه مواصلا للإمام بما يجب من المال » (١١٦) .

وهكذا نجح عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم فى توطيد الدولة الرستمية وفى الوصول بها إلى أوج اتساعها ، وترك لخلفائه دولة قوية الدعائم متينة الأركان يقول عنها ابن الصغير : « وكان عبد الوهاب هذا قد اجتمع له من أمر الإباضية وغيرهم ما لم يجتمع للإباضية قبله ودان له ما لم يدن لغيره واجتمع له من الجيوش والحفدة ما لم يجتمع لأحد قبله ، ولقد حكى لى وجماعة من الناس أنه

---

(١١٤) أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ٢٤ ب ، ٢٥ أ . (ورد بنص الرسالة كلمات مثل « ولا ، ورضا ، أبا ، راجع » . وهى هكذا فى نص المخطوط ، وقد ذكر البارونى الرسالة مع اختلاف طفيف فى اللفظ) ، (البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٥٠) .

(١١٥) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٣١ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٥٢ .

(١١٦) البارونى الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٥٧

قد بلغت سمته إلى أن حاصر مدينة طرابلس وملأ المغرب بأسره إلى مدينة يقال لها تلمسان » (١١٧) .

وظل الهدوء سائدا فى أنحاء الدولة الرستمية حتى توفى الإمام عبد الوهاب سنة (٢١١ هـ / ٨٢٦ م) بعد أن أمضى فى الإمامة أربعين سنة (١١٨) .

---

(١١٧) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ١٧ .

(١١٨) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٦٣ . (يرى ابن عذارى أن إمامة عبد الوهاب استمرت عشرين سنة فتوفي سنة ١٨٨ هـ لأنه تولى الإمامة سنة ١٦٨ هـ ، ويروى آخرون أنه توفى سنة ٢٠٨ هـ ، محمد بن تاويت : دولة الرستميين أصحاب تاهرت) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، ص ١١٨ ، د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٥٧

(ب) ازدهار الدولة الرستمية فى عهد أفلح بن عبد الوهاب
(٢١١ هـ / ٨٢٦ م - ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م)

١ - إمامة أفلح بن عبد الوهاب :

تولى أفلح بن عبد الوهاب الإمامة بعد وفاة والده مباشرة ، خوفا من تجدد الخلاف حول مسألة الإمامة كما حدث بعد وفاة جده عبد الرحمن بن رستم ، وكان أفلح مرشحاً للإمامة كما يقول البارونى : « بأعماله العالية وعلومه ومداركه الواسعة فبايعوه وسلموا له مقاليد الأمور بدار الإمارة قطعا للخلاف على أن يسير فيهم بالكتاب والسنة وآثار السلف الصالح » (١١٩) .

وكانت أكثر الصفات التى جعلت أفلح مرشحا للإمامة من الجميع ومن قبل والده عبد الوهاب بصفة خاصة الشجاعة التى تميز بها وأصبحت غالبة عليه ، لذا فقد أوصى عبد الوهاب بأن يكون أفلح ولى عهده فى الإمامة وجاءت هذه الوصية على لسان عبد الوهاب نفسه عندما كان يقاتل بنى مسالة وكان أفلح مشتركا معه فى هذه المعركة ، وقد أعجب عبد الوهاب بشجاعته فقال لمن معه : « لقد استحق أفلح الإمامة فكان أول يوم عقدت له الإمامة » (١٢٠) .

والإباضية هنا مثل أهل السنة عندما يشترطون فى اختيار الإمام ، العلم فى وقت السلم ، والشجاعة فى وقت الحرب (١٢١) ، وقد كانت شجاعة الإمام أفلح بن عبد الوهاب سببا فى إنهاء كثير من مشاكل الدولة الرستمية وحسمها لصالح والده عبد الوهاب ، ومن ذلك على سبيل المثال قتله ليزيد بن فندين زعيم النكار عندما هاجم تاهرت ، وبمقتله لم تقم للنكار قائمة بعد ذلك .

---

(١١٩) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٦٦ . (ويذكر أبو زكرياء : أن أفلح كان يُسمى ميمون) ، (أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ٢٦ ا) .

(١٢٠) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٢٢ .

(١٢١) د . سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى : ص ٢٢ .

وكان الإمام عبد الوهاب قد حرص على إعداد أفلح ليتحمل مسئولية الحكم إذا ما اختير من بعده إماما ، وحتى يتمرس أفلح بأساليب الحكم والإدارة ، فقد ترك له عبد الوهاب إدارة شئون الدولة الرستمية من العاصمة تاهرت فى أثناء غيابه فى جهات الدولة الشرقية ، وقد استفاد أفلح من هذه الفترة كثيرا ، فعن طريق احتكاكه بالناس وتعامله معهم ، عرفوا قدره ، وخبروا مدى علمه ويبدو أن هذه الفترة لم تكن هى الفترة الوحيدة التى أدار فيها أفلح شئون الدولة وإنما أدار شئون الدولة مرة أخرى قبل وفاة والده عبد الوهاب بسنوات ، لذا فعندما مات والده ، أحس الجميع أنه أنسب الشخصيات لهذا المنصب الخطير فى الدولة ، فتمسكوا به إماما لهم (١٢٢) ويحدد ابن الصغير هذه الفترة بأنها كانت فى أعقاب آخر أعمال الإمام عبد الوهاب الحربية والتى حارب فيها بنى مسالة وقضى على تمردهم وفى ذلك يقول : « ورشح أفلح للإمارة وانقطع إليه المنقطعون ودارت إليه الحوايج والعطا من تحت يديه ، فلم يزل كذلك وعلى ذلك حتى اخترمت عبد الوهاب منيته ، فلما مات عبد الوهاب صارت الخلافة لأفلح » (١٢٣) وابن الصغير فى هذا النص استخدم كلمة الإمارة مشيرا إلى الفترة التى تولى فيها أمر الدولة الرستمية فى أواخر عهد والده ، فلما توفى عبد الوهاب صارت الخلافة من نصيب أفلح .

وجدير بالملاحظة هنا ، أن إمامة أفلح بن عبد الوهاب على هذا النحو تعد خروجا على مبدأ الانتخاب العام الذى نادت به فرقة الإباضية وغيرها من فرق الخوارج . فقد رفض الخوارج مبدأ التقنين أو الوراثة . وطالبوا بتطبيق مبدأ الشورى أى الانتخاب ، على أن يكون المرشح من أى جماعة من الناس حتى ولو كان عبدا حبشيا (١٢٤) .

---

(١٢٢) دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، جـ ٣ ، ص ٥٥٩ ، ٥٦٠ .

(١٢٣) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٢٣ .

(١٢٤) د . إبراهيم العدوى بلاد الجزائر ، ص ٢٠١ .

ويعتبر خروج الإباضية فى الدولة الرستمية على قاعدة الانتخاب العام أو الشورى نوعا من حرية التشريع لجأ إليها الأئمة الرستميون حفاظا على كيان الدولة من التفتت والانقسام ، من جراء الفتن والقلاقل التى كانت تتعرض لها من حين لآخر ، وبهذا أصبحت الدولة الرستمية تجرى على أسس تشريعية مشابهة للأسس التى تجرى عليها سائر الدول الإسلامية فى المشرق والمغرب وهى احترام مبدأ الوراثة (١٢٥) .

وقد رضى الجميع عن أفلح ، فما كادت أخبار تولية الإمامة تنتشر حتى جاءته كتب العمال وصلحاء المسلمين من جميع الجهات والولايات تعلن مبايعتها له ، ومن هذه الكتب كتاب أبى عبيدة عبد الحميد الجناوانى عامله على جبل نفوسة (١٢٦) .

وقد تعرض أفلح فى مطلع عهده لاختبارات أراد الشراة (١٢٧) منها أن يعرفوا مدى صلاحية أفلح لمنصب الإمامة ، ومن ذلك أن قاضيا من قضاة أبيه مات فى أيامه ، فاجتمع الشراة إليه فسألوه أن يولى منصب القضاء من يستحقه فقال لهم : « اجمعوا جمعكم وقدموا خيركم ثم أعلمونى به أجيزه لكم وأعضده على ما يكون فيه الصلاح لكم » (١٢٨) .

فاختاروا لهذا المنصب محكم الهوارى الساكن بجبل الأوراس وأتوا إلى أفلح وأخبروه بذلك ، فقال أفلح : « ويحكم دعوتم إلى رجل كما وصفتم فى ورعه ودينه ولاكن هو رجل نشأ فى بادية ولا يعرف لذى القدر قدره ولا لذى الشرف

---

(١٢٥) نفس المرجع السابق ، ص ٢٠٢ .

(١٢٦) البارونى : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٦٦ .

(١٢٧) (الشراة كما يقول البارونى جماعة تتكون من أربعين رجلاً فما فوق ذلك اشتروا آخرتهم بدنياهم بمعنى أنهم تخلو عن الدنيا وعاهدوا الله على إنكار المنكر والأمر بالمعروف بدون مبالاة ولا خوف من الموت ولو أدى ذلك بهم إلى القتال فهم دائماً يمتحنون الأئمة والعمال بما يستدلون به على سرائرهم وخفايا مقاصدهم وأعمالهم ويحمدون سيرتهم أو يذمونها) (البارونى : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ٢١٠) .

(١٢٨) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٢٢ .

شرفه وإن كان ليس أحد منكم يحب أن يظلم ولا يظلم ولاكن تحبون أن يجرى فيكم الحقوق على وجهها بلا نقص لأغراضكم ولا امتهان لأنفسكم قالوا : فانا لا نرضى لقضائنا أحدا غيره » (١٢٩) .

وقد أثبتت الأحداث بعد نظر أفلح وعلمه بدقائق الأمور فعندما ذهب وفد الشراة إلى محكم لاخباره باختياره لمنصب القضاء قال لهم : « إن الحق مر أمر من شرب الدواء ولا يشرب الدواء إلا كرها وأنتم مرفهون أبناء نعم وغيرى أحب إليكم منى وقد نصحتكم فاقبلوا نصيحتى » (١٣٠) ولكنهم أصروا على اختياره فنزل على رغبتهم وتولى منصب القضاء ، ومن القضايا المشهورة التى عرضت على محكم الهوارى وأثبتت صحة رأى أفلح فى محكم الهوارى ، قضية كان فيها خصمان الأول : أبو العباس أخو الإمام أفلح – وكان من المتمسكين باختيار محكم لمنصب القضاء – والثانى صهر الإمام أفلح ، فما كان من محكم إلا أن ساوى بينهما فى مجلس القضاء ، وكان أبو العباس يظن أن محكما سيحابيه ويفضله على خصمه ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، فخرج أبو العباس غاضبا حتى دخل على أخيه أفلح وقال له : « نزل بى من هذا الهوارى الشر الجافى ما لم ينزل بأحد » (١٣١) . فقال أفلح : « يا أبا العباس قد كنت أعلمتك بهذا من قبل والصواب ما فعل والحق أولى أن يؤثر ولو فعل غير هذا لكان مداهنا فاتصل ذلك من كلامه بوجوه الإباضية فأعجبهم وأسروا به » (١٣٢) .

وبالغ أفلح فى إظهار التواضع ، إذ رأى أن شخصيته كإمام محط الأنظار من الجميع ، ومن ذلك أن وفدا من نفوسة نزلوا ضيوفا عليه « ولما حضر الطعام وقف على رءوسهم بالقنديل وهم يأكلون فمد له واحد منهم لقمة مما بين أيديهم

---

(١٢٩) نفس المصدر السابق ، ص ٢٦ (« لاكن » هكذا فى الأصل) .

(١٣٠) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٢٤ ، ٢٥ .

(١٣١) المصدر السابق ، ص ٢٦ .

(١٣٢) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

باتفاق مع رفقائه ولما كانت إحدى يديه رحمه الله مشغولة بالقنديل ولم يكن من الأدب قبوله اللقمة بيد واحدة وضع القنديل فوق ركبيته حتى لا يختفى عنهم نوره وتلقى اللقمة بيديه ولم يتكبر فشكروه على ذلك » (١٣٣) .

وبهذا أصبح أفلح بن عبد الوهاب موضع الرضا والتقدير من الجميع ، وعن هذا الرضا والتقدير تحدث ابن الصغير فقال : « فلما ولى أفلح أخذ بالعزم والحزم ونشأ له من البنين ما لم يكن لغيره ممن قبله وطار له الصيت ... ولم يكن الشراة تطعن عليه فى شئ من أحكامه ولا فى صدقاته ولا فى أعشاره » (١٣٤) .

٢ – سياسة الإمام أفلح الداخلية :

ترك الإمام عبد الوهاب دولة قوية مستقرة الدعائم متينة البنيان وكان أفلح بن عبد الوهاب الذى تولى الأمر بعده يدرك هذه الحقيقة الهامة ويدرك أن مجتمع دولته الذى يغلب عليه النظام القبلى فى حاجة إلى سياسة خاصة ولم يكن أفلح بن عبد الوهاب أقل من والده حنكة ودهاء ، فاستطاع بتعاليم أبيه وسياسته المتقلبة أن يقبض على زمام الأمور فى الدولة (١٣٥) .

ومن الأساليب التى لجأ إلى استخدامها سياسة إضعاف التحالف بين القبائل عن طريق الوشاية بينها فقد كانت القبائل المنتشرة حول تاهرت قد تعاظم شأنها نتيجة لما اكتسبته من الأموال بسبب الرخاء الاقتصادى الذى عم الدولة ، واتخذت هذه القبائل العبيد والخيول حتى خاف أن تجتمع هذه القبائل عليه أو تؤثر على مكانته ، لذا عمد إلى استخدام جهاز من الأعوان أشبه ما يكون بجهاز المخابرات ، ووظيفة هؤلاء الأعوان إلقاء الأحقاد والفتن بين القبائل الكبرى

---

(١٣٣) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٢١٣ .

(١٣٤) بن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٢٢ .

(١٣٥) محمد بن تاويت : دولة الرستميين أصحاب تاهرت ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ص ١١٩ .

حول تاهرت (١٣٦) . وقد نجحت هذه السياسة أيما نجاح فى إضعاف مركز هذه القبائل وإبطال ما قد يقوم بينها من تحالف يقول ابن الصغير :« فلما رأى ذلك (أفلح بن عبد الوهاب) أرش ما بين كل قبيلة ومجاورها فأرش بين لواتة وزناتة وما بين لواتة ومطماطة وما بين الجند والعجم حتى تنافرت النفوس ووقعت الحروب وصارت كل قبيلة ملاطفة لأفلح من أن يعين صاحبتها عليها » (١٣٧) .

ولم يأل أفلح جهدا فى القضاء على ثورة خلف بن السمح تلك الثورة التى كانت تفت فى عضد الدولة من أيام والده عبد الوهاب ، وبعد تولى أفلح منصب الإمامة وصلته من أبى عبد الحميد عامله على جبل نفوسة رسالة يطلب فيها من الإمام أن يسمح له بحرب خلف بن السمح للقضاء على حركته (١٣٨) ، ولكن أفلح لم ير هذا الرأى وأمر أبا عبيدة أن يساير خلفا ويلاطفه ، ويستعمل معه كل سياسة من شأنها أن توطد الأمن وتحقن الدماء . ولكن خلفا ظن ذلك ضعفا من الإمام وعامله فاتجه بأتباعه إلى ناحية « تمتى » وما يليها شرقا وهناك استطاع خلف أن يجند جيشا ضخما تقدم به قاصدا ناحية « جارو » فخرج إليه أبو عبيدة والتقى بطليعة من طلائع جيش خلف كانت قد أغارت على قرية « أدرف » من قرى جبل نفوسة وقتلوا من أهلها عشرة رجال ، ولم يصمد رجال خلف طويلا أمام أبى عبيدة ففروا عائدين إلى خلف الذى انسحب بهم من حيث أتى (١٣٩) .

وفى إطار سياسة الملاطفة التى أمر أفلح أبا عبيدة أن يلتزم بها أرسل أبو عبيدة كتابا إلى خلف يدعوه إلى الكف عن الفساد أو الالتزام بالناحية التى هو

---

(١٣٦) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٢٧ .

(١٣٧) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(١٣٨) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٣٢ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٦٦ .

(١٣٩) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٣٢ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، ج ٢ ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

فيها وفى ذلك يقول أبو عبيدة : « وإذا نزعت يا خلف يدك عن الطاعة فكن فى حيزك وأكون فى حيزى وما بال الحرب » (١٤٠) .

ورغم هذه المحاولات من جانب أبى عبيدة فإن خلفا استعد لجولة ثانية مع أبى عبيدة فخرج إليه بعد سنة فى أربعين ألف جندى وقامت بقايا النكار من أتباع يزيد بن فندين بمحاولات لصرف أبى عبيدة عن حرب خلف ، ودعوه إلى خلع طاعته لأفلح بن عبد الوهاب ، ولكن أبا عبيدة رفض هذه الدعوة ، كما رفض محاولة ثانية قام بها رسولان أرسلهما خلف لدعوة أبى عبيدة إلى خلع الإمام أفلح والدخول فى طاعة خلف بن السمح ، ولم يجد أبو عبيدة بدا من لقاء خلف مرة ثانية رغم قلة عدد قواته ، فاستند أبو عبيدة إلى الجبل وبالقرب من جادو دارت بينه وبين خلف معركة انتصر فيها أبو عبيدة عشية الخميس الثالث عشر من رجب سنة ٢٢١ هـ وفر خلف من المعركة بعد أن قتل من جنده أعداد كثيرة (١٤١) .

ولم يرتدع خلف بن السمح إلا على يد العباس بن أيوب الذى تولى شئون جبل نفوسة بعد وفاة أبى عبيدة ودارت بين العباس وخلف معركة فاصلة عند موضع « فاغيس » بالقرب من « تمتى » ورغم ما يذكره الشماخى من ضعف شوكة خلف بسبب هذه الحرب ، فإن فرقة الخلفية أتباع خلف بن السمح بن أبى الخطاب المعافرى – ظلت حية بين فرق الإباضية الأخرى فى إقليم طرابلس وجبل نفوسة (١٤٢) .

ومن المشكلات الداخلية التى واجهت أفلح بن عبد الوهاب فى جبل نفوسة ، خروج فرج النفوسى المعروف بنفات بن نصر عن طاعة الإمام أفلح ،

---

(١٤٠) نفس المصدر السابق ، ص ١٦٨ .

(١٤١) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٦٨ – ١٧٣ . (ويذكر الدرجينى أن خلفاً ابن السمح كان فى أربعة آلاف وأن أبا عبيدة كان فى سبعمائة ، وهذه الأعداد هى الأقرب إلى الصحة لأنها تتناسب وطاقة جبل نفوسة ، الدرجينى . طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٣٣) .

(١٤٢) الشماخى : السير ، ص ١٨٧ ، د . سعد غلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص ٣٩٣ ، ٣٩٤ .

وطعنه فى الأئمة الرستميين ، وكان نفات هذا من إحدى القرى الغربية القريبة من قنطرارة فى جبل نفوسة ، وقد وفد إلى تاهرت لتلقى العلم فى صحبة صديقه سعد بن أبى يونس الذى كان والده عاملا فى قنطرارة من قبل الإمام أفلح بن عبد الوهاب وفى تاهرت ارتادا معاً مجالس الإمام أفلح وغيرها من المجالس العلمية وأصبحا من الشخصيات المعروفة لدى الإمام وغيره من العلماء . وبعد وفاة والد سعد قرر أفلح – بعد أن شاور أهل الرأى – أن يتولى سعد عمل قنطرارة خلفا لوالده لما لمسه فى سعد من الصلابة فى الدين وحسن التجربة ، والوقوف عند مناهى الشرع (١٤٣) . فأوغر ذلك صدر نفات على الإمام ، فما لبث أن عاد إلى قريته وهناك خرج على الإمام وأشهر الطعن فيه قائلا : « إنه (أفلح) أضاع أمور المسلمين ويزيد فى الخلقة إذا مشا ويلبس الطرطور ويخرج إلى الصيد ويصلى بالأشبور » (١٤٤) .

يضاف إلى ذلك أن نفاتا خالف المسلمين كما يقول البارونى فى عدة أمور منها :

١ – قوله إن الله هو الدهر الدائم .

٢ – انكاره الخطبة فى صلاة الجمعة وادعاؤه أنها بدعة وضلال .

٣ – انكاره استعمال الإمام للعمال والسعاة فى جباية الحقوق الشرعية ، ومطالب بيت مال المسلمين من الرعايا .

٤ – قوله ان ابن الأخ الشقيق أحق بالميراث من الأخ لأب .

٥ – وقوله ان المضطر بالجوع لا يمضى بيع ماله إذا باعه لأجل ذلك وعلى من شهد مضرته تنجيته .

---

(١٤٣) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٣٤ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

(١٤٤) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٣٥ .

٦ - وقوله ان الفقد لا يتحقق إلا فيمن تجاوز البحر (١٤٥) .

ولما بلغ الإمام خبر نفات وانتقاده عليه قال ليأت إلينا نفات فيوضح لنا ما أنكره منا فإن كان حقا قبلناه وإن كان باطلا (فاية) فلما سمع نفات ذلك وعلم بطلان حجته قال إن كلمة (فاية) من السلطان هى القتل عينه فإلى أين أذهب وبقى على ذلك والإمام لم يأذن فيه بشئ والعمال لم يتجاسروا على معاملته بسوء انتظارا لإذن الإمام فيما يراه من الحكم إلى أن شاع أمره وذاع خبر خلافه وفساد عقدته فكتب عمال الإمام الذين بلغهم خبره إليه ببيان حاله ومسائله التى خالف فيها (١٤٦) .

والنص السابق يبرز لنا حقيقة هامة تنجلى فى المبدأ الهام الذى سار عليه أفلح بن عبد الوهاب متأسيا بمن سبقه من الأئمة الرستميين ألا وهو مبدأ احترام حرية الفكر والرأى لسائر الأفراد فى الدولة ، وقد رأينا قبل ذلك عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم يناقش الواصلية ويفند آراءهم ويفسح المجال للمناقشة معهم على كافة المستويات ، وبنفس الطريقة والأسلوب يدعو أفلح نفاتا لعرض أفكاره أمامه فإما أن يقتنع الإمام ، وإما أن يقنع الإمام نفاتا .

وخوفا على ما قد تحدثه آراء نفات من بلبلة بين العامة فقد بعث أفلح بالرسائل إلى العمال كى يقرؤنها على العامة لتحذيرهم من آراء نفات ، وفى نفس الوقت بعث إلى نفات برسالة أخيرة تشير إلى انتهاء مرحلة اللين معه (١٤٧) . فخاف نفات على نفسه وجمع أمواله وهرب إلى أرض سرت ومنها إلى بغداد حيث أقام هناك (١٤٨) . وظل هناك فى جبل نفوسة بعض الذين تأثروا بآراء نفات بن

---

(١٤٥) الباروني : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ . (ويقول الدرجيني فيما أنكره نفات ابن نصر : « وله مسايل انتحلها لا أصل لها منها زعمه أن الخطبة بدعة ومنها قوله أن ابن الأخ الشقيق أولى بالميراث من الأخوة من الأب وأنهم يحجبونهم » ، الدرجيني : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٣٥) .

(١٤٦) الباروني : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٩٩ .

(١٤٧) انظر القسم الخاص بالملاحق وفيه نص الرسالة .

(١٤٨) الباروني : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٢٠٦ .

نصر وظلوا يحملونها ولذا عرفوا بالنفاتية (١٤٩) .

وعن طريق احترام أفلح لمبدأ حرية الفكر والرأى فى دولته استطاع أيضا أن يجذب الواصلية ويستميلهم إلى جانبه ، بعد أن كانوا أعداء لوالده بالأمس ، فأصبح رئيسا للواصلية إلى جانب كونه رأسا للإباضية والصفرية ونجح بهذا فى احتواء هذه الجماعات وفى ذلك يقول البكرى : « وكان ميمون (أفلح بن عبد الوهاب) رأس الإباضية وإمامهم وإمام الصفرية والواصلية وكان يسلم عليه بالخلافة » (١٥٠) .

وتدعيما لأركان الدولة ظل الإمام أفلح يكتب الكتب إلى العمال الذين يقومون بدورهم فى نقلها إلى العامة ، وتدعوهم هذه الكتب إلى تقوى الله ، واتباع آثار السلف الصالح وأن يقوموا لله بالعدل فى عباده وبلاده (١٥١) . وكان لهذه الرسائل أثرها فى تهدئة الأحوال فى الدولة ، حتى أصبح عهد أفلح بن عبد الوهاب عهد ازدهار الدولة الرستمية .

٣ – مظاهر ازدهار الدولة فى عهد أفلح بن عبد الوهاب :

ساد الهدوء فى بلاد الرستميين ، ومن ثم اتجهت طاقات أبنائها إلى العمل على تقدم الدولة وازدهارها ، وبدأت طلائع هذا التقدم تظهر فى حياة الإمام أفلح بن عبد الوهاب الذى شمخ فى ملكه وأخذ فى بناء القصور واتخذ لها أبوابا من الحديد ، وبنى الجفان وأطعم فيها فى أيام الجفاف « وعمرت معه الدنيا وكثرت الأموال والمستغلات وأتته الرفاق والوفود من كل الأمصار والآفاق » (١٥٢) .

أما البلاد فقد حفلت بأنواع التجارات التى عادت على الناس بأرباح

---

(١٤٩) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٥٨ .

(١٥٠) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٦٧ ، ٦٨ .

(١٥١) البارونى : الأزهار الرياضية ، ص ١٨٧ – ١٨٩ .

(١٥٢) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٢٦ .

وفيرة ، أنفقوها فى البناء والعمران ، وتنافس الناس فى البنيان ، حتى ابتنوا القصور والضياع خارج تاهرت وشقوا لها الأنهر لحمل الماء إليها ، واتخذ أغنياء تاهرت لأنفسهم قصورا غاية فى الأبهة والعظمة ، ذكر منها ابن الصغير قصرى إبان وحمويه باملاق ، وقصر عبد الواحد الذى كان معروفا باسمه حتى أيام ابن الصغير (١٥٣) .

وقد أعجب ابن الصغير بجمال هذه القصور وروعتها ، ودقة النظام بها الأمر الذى دفعه إلى وصف إبان وحمويه فيقول : « ولقد حدثنى بعض من أثق به أن إبان وحمويه خرجا يوما إلى قصورهما متنزهين ومعهما جماعة من إخوانهما فذكر بعضهم أنه قال : لما أشرفنا على القصرين سبق بنا بعض عبيدهما فأعلموا سكان القصرين بقدومهما قال فتشوق من كان بالقصرين إليهما فوالله ما رأيت شرافة من القصرين إلا وعليها ثوب أحمر وأصفر على الجدار كالبدور » (١٥٤) .

وإلى جانب هذه القصور الضخمه كانت هناك أحياء كاملة أنشأتها بعض القبائل والجماعات فابتنت نفوسة لنفسها حى « العدوة » وقامت جماعات الجند القادمة من إفريقية هربا من بطش الأغالبة ببناء حيهم الذى أقاموا فيه وأطلقوا عليه اسم « المدينة العامرة » (١٥٥) .

وكان لعجم الفرس دورهم فى إثراء الدولة الرستمية وازدهارها ، عن طريق التجارة التى كانوا يمارسونها وقد رأينا أحدهم ، وقد ابتنى سوقا تجارية عرفت باسمه ، وهى سوق ابن وردة ، وكذلك انتشرت قصور العجم فى أنحاء تاهرت (١٥٦) . وصارت مؤسساتهم التجارية تكون جزءا هاما من اقتصاديات الدولة الرستمية .

---

(١٥٣) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٢٦ .

(١٥٤) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(١٥٥) نفس المصدر السابق ، ص ٢٧ .

(١٥٦) المصدر السابق ، ص ٢٦ ، ٢٧ ، (وعجم الفرس هنا غير عجم البلد وهم من الأفارقة بقايا الفينيقيين واللاتين) .

ولم تكن مظاهر الازدهار هذه قاصرة على تاهرت قائمة فيها وإنما انتقلت إلى سائر جهات الدولة ، فنالت القبائل حظها من الثروة ، وظهرت عليها آثار الرخاء ، يقول ابن الصغير : « وانتشرت القبائل وعمرت العمائر وكثرت الأموال بأيديهم (١٥٧) ، ويقول فى موضع آخر : « وأمنت الساحات وكثرت الأموال حتى أطغت أهل الحواجز والبوادى » (١٥٨) .

كما نالت الدولة أيضا حظها من الازدهار الثقافى فأصبحت تاهرت مركزا ثقافيا هاما كغيره من المراكز الثقافية الإسلامية ، فعرف الرستميون الثقافة ونبغوا فى مناحيها ، وخصوصا الثقافة الدينية لأن الأئمة الإباضية كانوا علماء دين ورؤساء مذهب يتطلب من أصحابه أن يكونوا على أهبة للدفاع عن آرائهم ومبادئهم بالحجة الدامغة والدليل القوى (١٥٩) . لذا فقد امتلأت مساجد تاهرت بطلاب العلم يتلقونه على أيدى كبار علماء الإباضية فى أصول الدين والشريعة والرياضيات والطب والكمياء ، والتنجيم ، وشاركت المرأة الرستمية فى هذه النهضة الثقافية ، فكانت أخت الإمام أفلح ممن نبغن فى علم الحساب والفلك والتنجيم . بل إن أفلح نفسه كان ممن ضربوا فى زحمة كل فن من فنون العلم ، فنبغ فى الأدب وقال الشعر وقد أورد البارونى لأفلح قصيدة طويلة بلغت ثمانية وثمانين بيتا يدعو فيها إلى الإقبال على العلوم الدينية (١٦٠) نذكر منها :

العلم أبقى لأهل العلم آثارا
وليلهم بشموس العلم قد نارا
يحيى به ذكرهم طول الزمان وقد
يريك أشخاصهم روحا وأبكارا

---

(١٥٧) نفس المصدر السابق ، ص ١٢٦ .

(١٥٨) نفس المصدر السابق ، ص ٢٨ .

(١٥٩) محمد الطمار : تاريخ الأدب الجزائرى ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ص ٣٠ .

(١٦٠) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٧٥ ، وانظر البارونى : الأزهار الرياضية ، ص ١٩٠ – ١٩٤

حتّى وإن مات ذو علم وذو ورع
إن كان فى منهج الأبرار ما مارا
أو أنها غيرت أشخاصهم ومضوا
ما مات عبد قضى من ذاك أوطارا
وذو حياة على جهل ومنقصة
لا يبالى أخيرا نال أم عارا (١٦١) .

والذى يظهر من هذا العمل الأدبى أن الثقافة المشرقية أصبح لها جذور ثابتة فى بلاد المغرب ، وكانت هذه المحاولات من جانب أفلح بن عبد الوهاب فى مجال الشعر مقدمة لظهور الأدب المغربى بعد ذلك وكان لازدهار الدولة الرستمية على هذا النحو آثاره الخطيرة على جيرانها ، فقد تضخم ملك الرستميين تضخما كبيرا ، وتألق نجمهم فى سماء المغرب كله ، وأصبحت تاهرت تحتل مكان الصدارة فى بلاد المغرب (١٦٢) . وقد أحس الأغالبة خطورة هذا الأمر على مركزهم السياسى والاقتصادى فقام أبو العباس محمد بن الأغلب ببناء مدينة قرب تاهرت سماها العباسية سنة ٢٣٩ هـ (١٦٣) ، لتقف فى وجه الرستميين وتجذب الأنظار عنهم ، وتحتل مكانة عاصمتهم تاهرت ، لذا لم يدخر أبو العباس محمد بن الأغلب وسعا فى ترتيب أسواقها على نسق وترتيب غريب (١٦٤) . وهذا ما يفسر أهمية السبب الاقتصادى الذى أقيمت العباسية من أجله .

---

(١٦١) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٩٠ .

(١٦٢) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٦٨ .

(١٦٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٦ ، ص ٥١٩ ، (ذكر ابن خلدون أن بناء العباسية كان سنة ٢٢٧ هـ . وإذا كان الأمير محمد بن الأغلب تولى الإمارة سنة ٢٢٧ هـ فمن المستبعد أن يكون بناء المدينة وإحراقها قد تم فى عام واحد ، ابن خلدون : العبر ، ط . مؤسسة الأعلمى ببيروت ، جـ ٤ ، ص ٢٠٠ ، د . محمود إسماعيل عبد الرازق : الأغالبة سياستهم الخارجية ص ١٢٩) .

(١٦٤) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ١٨٦ ، د . محمود إسماعيل عبد الرازق : الأغالبة سياستهم الخارجية ، ص ١٣٠ .

ورغم أن أفلح بن عبد الوهاب سالم جيرانه الأغالبة – بادئ ذى بدء جريا على ما سار عليه والده عبد الوهاب – إلا أنه رأى أن فى إقامة العباسية تهديد لسلامة الدولة الرستمية وأمنها (١٦٥) . فما كان منه إلا أن سكت حتى أتم أبو العباس محمد بن الأغلب بناءها ونظم أسواقها فهجم عليها أفلح وأجلى عنها سكانها ثم أضرم فيها النيران وأحرقها عن آخرها (١٦٦) . ولم يكن فى استطاعة محمد بن الأغلب أن يفعل شيئا للرد على أفلح بن عبد الوهاب ومن ثم آثر السلامة ولاذ بالصمت (١٦٧) .

٤ – وفاة الإمام أفلح :

كان للإمام أفلح بن عبد الوهاب ولدان هما أبو بكر وأبو اليقظان . واشتهر أبو اليقظان بالتقوى والورع وقد أبدى رغبته قبيل وفاة والده أفلح فى الحج إلى مكة : وعندما وصل أبو اليقظان إلى مكة وطاف وسعى اكتشف رجال بنى العباس وجوده بين الحجيج وسمعوا أن أبا اليقظان قدم من بلاد المغرب يرتاد البلاد ، « ويرسل رسله فى كل الآفاق إلى من كان على رأيهم ومذهبهم ليأخذوا إلى أنفسهم إلى ان يأتيه والده من المغرب » (١٦٨) .

قبض العباسيون على أبى اليقظان ومعه رجل من نفوسة كان يخدمه ، وحمل الاثنان معا إلى بغداد حيث أمر الخليفة العباسى الواثق بحبس أبى اليقظان وفى السجن التقى أبو اليقظان بالمتوكل أخى الخليفة الواثق فأصبح صديقا

---

(١٦٥) محمد بن تاويت : دولة الرستميين أصحاب تاهرت ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، ص ١١٩ .

(١٦٦) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٦ ، ص ٥١٩ ، ابن خلدون : العبر ، ط . مؤسسة الأعلمى بيروت ، جـ ٤ ، ص ٢٠٠ . البلاذرى فتوح البلدان ، جـ ١ ، ص ٢٧٧ .

(١٦٧) د . السيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ، ص ٥٦٨

(١٦٨) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٢٧ ، ٢٨

حميما له ، وسيصبح لهذه الصداقة أثرها فى حياة أبى اليقظان بعد ذلك (١٦٩) .

ولما علم أفلح بما حدث لولده أبى اليقظان اشتد حزنه عليه وطال غمه به فلم يزل مهموما محزونا إلى أن وافته المنية وابنه محبوس ببغداد (١٧٠) ، وكانت وفاته سنة (٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م) (١٧١) .

---

(١٦٩) نفس المصدر السابق ، ص ٢٨ ، الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٢٦ .

(١٧٠) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٣٠ .

(١٧١) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٢٢١ ، الزركلى : الأعلام ، جـ ١ ، ص ٤٤٢ ، د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٥٩ ، (لم يذكر مؤرخو الإباضية تاريخاً محدداً لوفاة أفلح بن عبد الوهاب فاكتفى ابن الصغير بقوله : « وكان أفلح قد عمر فى إمارته ما لم يعمر أحد ممن كان قبله فأقام خمسين عاماً أميراً » . بينما الدرجينى يقول : « وكانت مدة إمامته (أفلح) ستون سنة » أما المؤرخون من غير الإباضية من أمثال ابن عذارى فيرى هذا المؤرخ أن أفلح توفى سنة ٢٠٥ هـ ، ويبدو أن مؤرخى الإباضية ضموا السنوات التى عمل فيها أفلح إلى جانب والده عبد الوهاب بدليل أن ابن الصغير استخدم لفظ « أمير » ولم يستخدم لفظ « إمام » فى التعبير عن مدة حكم أفلح بن عبد الوهاب كلها ويعضد هذا الرأى ما ذكره أبو زكرياء بدقة عن المدة التى قضاها أفلح فى الحكم فقال : « ثم إن أفلح بن عبد الوهاب رضى الله عنهما مكث فى إمامته ستين سنة والياً إماماً حسن السجية رءوفاً بالرعية » (أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ٣٢ ب) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٢٦ ، الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٣٦ ، ٣٧ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٩٧) .

الفصل الرابع

خلفاء أفلح بن عبد الوهاب

(٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م - ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م)

(١) إمامة أبى بكر بن أفلح

(٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م - ٢٤١هـ / ٨٥٤ م)

نعمت الدولة الرستمية بالرفاهية التامة فى عهد أفلح بن عبد الوهاب إذ أن أفلح كان ذا شخصية قوية متمرسة ، لذا احتفظت الدولة فى عهده بقوتها وكيانها وهيبتها بين جيرانها . وبوفاة أفلح بن عبد الوهاب سنة (٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م) تغيرت الأمور ، إذ تولى الإمامة ابنه أبو بكر الذى لم يكن على المستوى المطلوب للحاكم الذى يسوس دولة لها أهميتها مثل الدولة الرستمية .

وقد اجتمع أهل الحل والعقد من نفوسة وغيرهم ، وعقدوا الإمامة لأبى بكر بن أفلح سنة ٢٤٠هـ (١) . لأنهم لم يجدوا غيره فى أبناء البيت الرستمى ، فأخوه أبو اليقظان مقبوض عليه فى بغداد ويعقوب بن أفلح ما زال صغيرا حدث السن لا ينفع للإمامة (٢) .

---

(١) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٢٢١ .

(٢) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٥٩ .

لم يستطع الإباضية بذلك تطبيق مبدأ الانتخاب العام أو التخلص من مبدأ الوراثة .

فقد رفض الكثيرون من الإباضية ممن يؤمنون بمبدأ الانتخاب العام إمامة أبي بكر فقد « كان عبد العزيز بن الأوز ينادى بأعلى صوته الله سائلكم معاشر نفوسة إذا مات واحد جعلتم مكانه آخر ولم تجعلوا الأمر للمسلمين وتردوه إليهم فيختارون من هو أتقى فلا يلتفتون إلى كلامه ولا يشتغلون بمقالته » (٣) وواضح من هذا النص أن هناك قوة سياسية ضخمة وهى قوة نفوسة فى تاهرت كانت تحافظ على بقاء الإمامة فى البيت الرستمى رغم معارضة المعارضين ورفض بعض الناس إمامة أبى بكر (٤) .

كان أبو بكر ضعيفا ليس فيه من الشدة فى دينه ما كان فيمن كان قبله من آبائه ، وكان سمحا جوادا كما يقول ابن الصغير : « يسامح أهل المروات ويشايعهم على مرواتهم ويحب الأدب والأشعار وأخبار الماضين » (٥) . لذا مال إلى الخمول والكسل والراحة وانصرف إلى حياة اللهو والترف ، تاركا شئون الدولة لصهره محمد بن عرفة الذى سبق أن قام بالسفارة بين والده أفلح بن عبد الوهاب وملك كوكو (٦) وكان محمد بن عرفة هذا قد تزوج بأخت أبى بكر بن أفلح ، وفى نفس الوقت كان لمحمد بن عرفة أخت أو بنت جميلة تزوجها أبو بكر (٧) ؛ لهذا تضخم نفوذ ابن عرفة وأصبح له سلطان كبير فى الدولة الرستمية وقد سجل ابن الصغير هذا فقال : « فكانت الإمارة بالاسم

---

(٣) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٣١ .

(٤) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٢٢٢ .

(٥) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٣١ .

(٦) انظر فى ذلك فصل العلاقات الخارجية .

(٧) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٢٢٣ .

لأبي بكر وبالحقيقة لمحمد بن عرفة (٨) ، وقد ترتب على ذلك ضعف سلطة الإمام على القبائل مما أدى إلى زيادة الخلافات بين هذه القبائل فكانت الحروب بينها تهيج ثم تسكن على حد تعبير ابن الصغير (٩) . بل إن الخلافات تطرقت إلى داخل بعض القبائل الكبرى في الدولة وأدت إلى انقسامها ولاسيما هوارة « فانها تحاسدت حتى انقسمت . فانحاز قسم منها يعرف ببنى أوس إلى من والاه من القبائل الأخرى وانحاز القسم الآخر ويعرف بترهنه كذلك إلى غيرها » (١٠) .

عودة أبي اليقظان من المشرق :

وفى تلك الأثناء عاد أبو اليقظان من العراق - بعد أن أطلق سراحه الخليفة المتوكل العباسي - « فوجد (أبو اليقظان) أخاه أبا بكر أميرا ، والعجم على أحوالهم والنفوسة على مراتبهم وسائر الناس على ما هم عليه . فلم يغير شيئا ، ولم ينكره ولا ادعى إمارة ولا نازع فيها أخاه » (١١) . وانصرف أبو بكر إلى ملذاته وشهواته وترك إلى أبي اليقظان تسيير أمور الدولة ، فكان أبو اليقظان يجلس فى المسجد إلى الناس والعمال والقضاة وأصحاب الشرطة لإجراء الحقوق إلى الناس عظم قدرهم أو صغر ، فإذ كان آخر النهار ذهب إلى أخيه أبي بكر فإن وجده جالسا أعلمه بما حدث فى يومه من خير وحكم ، فإن لم يجده : « قال لمن علم أنه يصل إلى حرمته اقرأ على الأمير السلام وقل له أصبحت مدينتك اليوم هادية وأمست هادية وإذا كان فى الليل ركب وطاف فى المدينة حتى أقصاها ويحكم الأمر الضرورى ويأمرهم إذا حدث حادث أن يوافوا داره فإذا حكم جميع ذلك انصرف إلى داره » (١٢) .

---

(٨) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٣١ .

(٩) نفس المصدر السابق ، ص ٣٢ .

(١٠) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٢٢٤ .

(١١) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٣٢ (« والنفوسة » هكذا فى الأصل) .

(١٢) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٢٧ ، ٣٣ .

وبينما كان أبو اليقظان يحكم تدبير الدولة وشئونها ، كان نفوذ ابن عرفة فى ازدياد وصيته فى دوى وأسهمه فى ارتفاع ، مما أوغر صدر رؤساء الإباضية عليه ، حتى إذا واتتهم فرصة الاجتماع بأبى بكر قالوا له · « إنك ذاهب ونحن ذاهبون قال وكيف ذلك : قالوا له : ما نحسب أنك تعلم مجئ ابن عرفة إذا جاء فيمن يجئ ولا انصرافه إذا انصرف فيمن ينصرف ولا اجتماع الناس عند بابك إذا جاء ولا خلوه إذا انصرف » (١٣) .

أقلقت هذه الأخبار أبا بكر بن أفلح وأراد أن يتأكد بنفسه من صدق ما وصله من أقوالهم . فنظر من طاقة فى أعلى قصره إلى الجهة التى يأتى منها محمد بن عرفة ، فإذا هو قادم فى موكب من الناس قد بادروا إليه من كل جانب ، فنزل أبو بكر إلى مجلسه وقد هاله ما رآه من أمر محمد بن عرفة ، وتكرر هذا المنظر ثانية حين انصراف محمد بن عرفة فصعد أبو بكر إلى الطاقة نفسها ونظر منها « فإذا بالأمم التى أقبلت قد انصرفت وبقى بابه خاليا فتحقق عنده ما قال القائل » (١٤) .

ويذكر ابن الصغير أن أبا بكر استشار أحد أصحابه فى أمر محمد بن عرفة ، فأشار عليه بقتله على أن تتم عملية القتل فى سرية تامة ، وتردد أبو بكر فيما أشار به صاحبه ، وكان يقول : « لا أحسب نفسى تطوع فى ذلك ولاسيما أخته تحتى وأختى تحته حتى شككت فى البنت أو الأخت ومتى فعلت ذلك تنغصت حالى وكنت كقاطع كفى بكفى » (١٥) . ولكن عواطف أبى بكر بن أفلح ما لبثت أن تبددت وأرسل يدعو محمد بن عرفة إلى نزهة خلوية فى حدائق تسمى « جنان الأمير » دون أن يحضر معه أحداً من حاشيته أو عبيده وفى جنان الأمير قضى الاثنان يومهما حتى إذا جاءت صلاة المغرب ووقفا للصلاة أشار

---

(١٣) المصدر السابق . ص ٣٣

(١٤) المصدر السابق ، ص ٣٤ .

(١٥) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

أبو بكر إلى غلامه فضرب محمد بن عرفة بحربة كانت بيده بين كتفيه فأرداه قتيلا (١٦) .

ويصور ابن الصغير ذلك المشهد الرهيب فيقول : « فلما علم ذلك أبو بكر قال لغلامه زمله بثيابه واحمله على فرسه ففعل الغلام ما أمر به وركب أبو بكر ومشى بين يدى الغلام والغلام خلفه حتى أتى جبلا قد تقسم نصفين له هواءً عظيما يعرف ذلك الموضع بالشفة الحمراء فقال له : ألقه فى الهواة فألقاه فيها وأمره أن يغيب فرسه ولايظهره وانصرفا حتى دخلا المدينة » (١٧) .

وأحدث تغيب ابن عرفة رجة عظيمة فى تاهرت ، فخرج أتباعه وأنصاره يبحثون عنه حتى وجدوا جثته فحملوه إلى النهر الذى قتل عنده « وبعثوا إلى داره وأتوا منها بفرس له وكسوة طاهرة وسيفه فغسلوه فى النهر وأنظفوه وطيبوه ثم كسوه ثيابه وقلدوه سيفه وحملوه على فرسه وجعلوا خلفه رجلا يحبسه حتى أتوا به مدينة تاهرت فابتدر إليه العامة والخاصة والنساء والصبيان وألحق الناس من الجزع ما لم يلحقهم فى قتيل قبله وقام مناد ينادى بين يديه ألا إن القتيل المظلوم يأمركم بطلب ثاره ودمه فعجل الناس بجهازه ودفنه ثم جلسوا حلفا حلفا يتذكرون أمرهم » (١٨) .

الحرب الأهلية فى تاهرت :

كانت ردود الفعل لمقتل ابن عرفة قوية عنيفة فى تاهرت ، حيث تجمع أنصار محمد بن عرفة بقيادة محمود بن الوليد ، ومعهم جند من القيروان بقيادة خلف الخادم مولى الأغلب بن سالم (١٩) ، وكان هؤلاء الجند قد أعلنوا

---

(١٦) نفس المصدر السابق ، ص ٣٥ ، الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٣٦ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٢٢٨ .

(١٧) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٣٥ .

(١٨) المصدر السابق ، ص ٣٦ .

(١٩) نفس المصدر السابق ، ص ٣٦ ، ٣٧ ويذكر البارونى محمود بن الويليلى عند ابن الصغير ، من محمود بن الوليد عند ابن الصغير ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٢٣٠ .

فى مناسبات كثيرة تمردهم على الأغالبة واستقروا بتاهرت وأسسوا لهم ربضا كبيرا بها صار كالمدينة العامرة . وطبيعى أن يؤيد هؤلاء الجند الوافدون أنصار محمد بن عرفة فى محنتهم لأن ابن عرفة عربى وقروى مثلهم وافد من القيروان (٢٠) . وإلى جانب هؤلاء الثائرين وقف عدد من وجوه التجار فى تاهرت منهم أبو محمد الصيرفى وابن الواسطى (٢١) . . وقد دفع هؤلاء التجار الكثير من أموالهم رغبة منهم فى تحطيم الإمامة وإنهائها ، وكانوا يقولون للمطالبين بثأر ابن عرفة من العرب والجند : « لو بنيتم حصنا تأمنون فيه ليلكم وتتحصنون فيه إن دهمكم شئ من عدوكم وهذه أموالنا فى أيديكم فشرعوا فى بناء الحصن ولم يكن بين حصنهم وحصن عدوهم إلا قدر رمية رام بسهم » (٢٢) .

هؤلاء هم الثائرون المطالبون بثأر محمد بن عرفة أما الإمام أبو بكر بن أفلح فلم يكن معه سوى خاصته من الرستميين وبعض المسيحيين (الأفارقة) ، وقد خاض بهم معاركه الأولى مع العرب والجند أما العجم فقد انتهزوا فرصة اشتغال العرب والجند فى مقاتلة الإمام وأتباعه وهاجموا أطراف المدينة التى يمتلكها العرب والجند (٢٣) . أما أبو اليقظان بن أفلح فقد آثر عدم الخوض فى هذه الحرب هو ونفوسة بل إنه انتقل إلى عدوة نفوسة وأقام بها . وإن كان العرب والجند ينظرون إلى موقف أبى اليقظان هذا بكثير من الشك ويرونه يحرض عليهم فى السر (٢٤) .

تحولت الحرب الأهلية فى تاهرت إلى حرب بين العجم وبين العرب ومعهم

---

(٢٠) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٦٠ .

(٢١) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٢٢) نفس المصدر السابق ، ص ٣٩ .

(٢٣) نفس المصدر السابق ، ص ٣٧ (كان قد وفد على تاهرت عاصمة الرستميين عدد كبير من جند القيروان . وهؤلاء أعلنوا عصيانهم على الأغالبة ، واستقروا فى تاهرت وأسسوا لهم ربضاً كبيراً بها ، د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٦٠) (العصر الإسلامى) .

(٢٤) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٣٧ .

جند القيروان ، أما أبو بكر بن أفلح فقد تشاءم الناس منه ، فبقى فى داره لا يأمر ولا ينهى (٢٥) ، ومما يلاحظ هنا أن العناصر المتصارعة فى هذه الحرب الأهلية لم يكن هدفها الأساسى هو الثأر لمحمد بن عرفة بقدر ما كان هدفها تحقيق مصالحها الخاصة وذلك للأسباب الآتية :

أولاً : أن جند القيروان برغم عدائهم للأغالبة فقد اندس بينهم عدد من جواسيس الأغالبة الذين قاموا فى الدولة الرستمية بأعمال الطابور الخامس ، بهدف تقويض هذه الدولة والقضاء عليها ، وكان لخلف الخادم – مولى الأغلب بن سالم – دور خطير في القيام بمثل هذه الأعمال ، فقد كانت له « أموال عظيمة فأعان القوم بنفسه وماله » (٢٦) . كما كان خلف المحرض الأول للعرب والجند لإحراق درب النفوسيين ليقحمهم فى الحرب الأهلية . ولم يفت ابن الصغير أن يذكر هذا العمل من أعمال خلف فأشار إليه بقوله : « وكانت العرب والجند إذا غلبت على العجم أخرجتها من بعض ديارها فى حالها فقال خلف الخادم : وما تصنعون شيئا إذا غلبتم على شئ من ديارهم فاضرموه نارا فلما كان اليوم الثانى وقع الحرب فيه بجوار درب النفوسيين . . . وكان أكثره للعجم وبعضه لنفوسة وأضمرت الدرب نارا فغضبت نفوسة » (٢٧) .

ثانياً : أن العجم عندما شرعوا فى الحرب مع العرب والجند ، كان هدفهم أن تصبح لهم المكانة الأولى والأخيرة فى تاهرت إذ قاموا بدور المنقذ للبلاد والسلطان وقد أشار إلى هذا ابن الصغير بقوله : « فلما رأت العجم ما نزل بين الفريقين من السباب والقتل قالوا قد أمكننا فى العرب والجند ومواليهم وأتباعهم ما نريد فقوموا بنا مع اشتغالهم بأنفسهم حتى نثب على طرف المدينة فنقتل مقاتلتهم ونخرب ديارهم ونميل على سائرهم فنهلكهم فيصفو لنا البلد والسلطان

---

(٢٥) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(٢٦) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(٢٧) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٣٧ ، ٣٨ .

وقد وقع بينهم وبين سلطان البلد (أبو بكر بن أفلح) من الفتق ما لا يرتق أبدا له » (٢٨) .

ثالثاً : كانت الضغائن التى بذر بذورها أفلح بن عبد الوهاب بين القبائل قد عملت عملها ، وظهرت سافرة فى عهد أبى بكر بن أفلح ، وما لبثت أن طفت إلى السطح مرة أخرى حتى أصبحت الحرب لا تفتر ليلا ولا نهارا وحميت بينهم حمية الجاهلية ، وصارت الحرب بينهم على حد قول ابن الصغير : « سمعة ورياء » (٢٩) .

ولما نجح الجند فى إحراق درب النفوسيين دخلت الحرب الأهلية فى تاهرت مرحلة جديدة ، فقد وحدت نفوسة صفوفها مع العجم والرستمية بقيادة أبى اليقظان بن أفلح ، لإنقاذ الأمور المتدهورة فى تاهرت ، وقد أحرز هذا التحالف انتصارات متتالية على العرب والجند فى وقائع كثيرة منها واقعة (قنطرة سليس) ، وواقعة (الرد المعوج) (٣٠) . ولكن موقف أبى اليقظان وحلفائه بدأ فى الضعف والتراجع أمام قوة العرب والجند المتزايدة ، حتى إنهم تفرقوا خارج تاهرت فنزلت العجم بموضع يقال له (تنا بغيلت) وهى على مرحلتين من مدينة تاهرت ، ولحق الرستميون بأبى اليقظان ، واستقروا عند موضع يقال له (اسكدال) وهو على مسيرة يومٍ بقبلة تاهرت ، أما نفوسة فنزلت بقلعة نفوسة التى بنوها فى عدوتهم المشهورة بعدوة نفوسة(٣١) . أما أبو بكر بن أفلح فقد خرج

---

(٢٨) نفس المصدر السابق ، ص ٣٦ ، ٣٧ ، (راءت هكذا فى الأصل) .

(٢٩) نفس المصدر السابق ، ص ٣٩ .

(٣٠) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٣٨ ، (سميت الواقعة بهذا الاسم لأن نفوسة فى هذه المعركة ربطت رجالها بعضهم إلى بعض بالحبال فكلما دارت الحرب إلى ناحية دار معها المحاربون بوجوههم وظلوا هكذا حتى نهاية القتال فسميت واقعة الرد المعوج) .

(٣١) نفس المصدر السابق ، ص ٣٨ ، ٣٩ ، ويذكر البارونى (اسكيدال) بدلاً من (اسكدال) التى ذكرها ابن الصغير ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٢٣٥ .

مع من خرج من تاهرت لا حيا ولا ميتا كما يقول ابن الصغير (٣٢) . ويدل هذا التعبير من ابن الصغير على مدى ما كان فيه أبو بكر من حالة سيئة ، وإحساس بالألم لما جناه على نفسه وعلى الناس .

وقد انتهز محمد بن مسالة الهوارى الإباضى فرصة خروج الرستميين من تاهرت فاستولى عليها وأصبح لهوارة اليد العليا فى تاهرت « وكانت لواتة إذ ذاك بالمدينة مع أهل المدينة فتسلطتا عليها هوارة بسلطانهم وأعانتها أهل المدينة فلما رأت لواتة ذلك ظعنت عن المدينة وجلت عنها ونزلت بحصنها المعروف بحصن لواتة » (٣٣) .

وكان لخروج لواته من تاهرت تغيير فى ميزان القوى مرة ثانية فى صالح الرستميين ، فقد أرسلت لواتة إلى أبى اليقظان ودعته إلى النزول إلى جوارها بموضع يقال له « تساونت » التى تخرج من عندها عيون نهر مينة الذى يجرى إلى تاهرت . وهناك تمت مبايعة أبى اليقظان بالإمامة بعد أن اعتزلها أخوه أبو بكر بن أفلح سنة ١٤١ هـ (٣٤) ، « فصارت الدعوة والإمامة كلها لأبى اليقظان وأتته الإباضية من كل الأقطار » (٣٥) ومن تاهرت نفسها خرج الكثير ممن يحبون أبا اليقظان ، فأعلنوا إليه وبايعوه بالإمامة (٣٦) .

---

(٣٢) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٣٩ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٩٧ .

(٣٣) المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(٣٤) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٤٠ ، الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٣٧ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٩٧ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٢٣٧ (جاء عزل أبى بكر بن أفلح سنة ٢٤١ هـ بعد أن أمضى فى الإمامة عامين فقد تولى بعد وفاة والده أفلح سنة ٢٤٠ هـ ولما كانت وفاة أخيه أبى اليقظان فى سنة ٢٨١ هـ بعد أن حكم أربعين سنة وفق رواية ابن الصغير المالكى ، لذا فإن عزل أبى بكر بن أفلح يكون سنة ٢٤١ هـ ، انظر ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٤٠ ، ٤٩) .

(٣٥) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٤٠ (ويقول الدرجينى ولم يجد الناس لمحمد محيداً عنها فعدوا له بيعة والتزموا سمعه طاعة « الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٣٧ ») .

(٣٦) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

ظل أبو اليقظان يهاجم تاهرت طيلة سبع سنوات متتالية دون جدوى ، فأرسل فى طلب العون العسكرى من جبل نفوسة فلبت قبائل الجبل نداءه وأرسلت إليه أعدادا وفيرة من الرجال ، تحرك بهم أبو اليقظان حتى نزل فى غرب تاهرت « فلما نزل منزله قالت نفوسة لا نقاتل حتى نرسل إلى إخواننا وننذرهم فإن جاءوا ورجعوا إلى الطاعة كانت أيدينا وأيديهم واحدة وإن أبو من ذلك نزلنا معهم على حكم الله » (٣٧) .

وما أن وصل رسل نفوسة إلى تاهرت حتى وجدوا الناس قد ملوا الحرب فاتفقوا معهم على عقد الصلح مع أبى اليقظان على ألا يأخذ أحدا بما سلف من أعماله ، ثم خرجت طائفة من عسكر أبى اليقظان حتى اجتمعت بطائفة من أهل المدينة فعقدوا ذلك فيما بينهم (٣٨) وأكدت نفوسة أهمية هذا الصلح للمجتمعين حيث قالت « إنما جئنا لإصلاح بيضتنا وتأليف أمرنا وقوام ديننا ولم نأت لطلب علو فى الأرض ولا فساد » (٣٩) .

وفور توقيع الصلح جرت الاستعدادات لدخول تاهرت ، فرحل أبو اليقظان بعساكره حتى وصل إلى الظاهر المشرف على مدينة تاهرت والمعروف بقلعة نفوسة وهناك ضرب الإمام سرادقه الذى قدم به من بغداد . وكان سرادقا عظيما ، وهو أول سرادق يضرب فى دولة الرستميين ، إذ كانوا قبل ذلك يضربون المضارب والقباب (٤٠) . وظل أبو اليقظان مقيما فى سرادقه حتى بنى له أهل المدينة داره التى كانت قد تهدمت فى أثناء الحرب وتحولت إلى مزبلة أو كدية من الكدا فقام الأهالى « فكنسوها فى يومهم ذلك فابتنوها

---

(٣٧) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(٣٨) نفس المصدر السابق ، ص ٤٠ ، ٤١ .

(٣٩) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٤١ .

(٤٠) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

فى أسرع الأيام فلما فرغت نزلها أبو اليقظان ورفع مضاربه ونزل الناس المدينة » (٤١) .

وعلى هذه الصورة انتهت هذه الحرب الأهلية التى أوشكت أن تقضى على الدولة الرستمية نهائيا ، وكانت لجهود أبى اليقظان ونفوسة الأثر الكبير فى عودة الحياة الطبيعية إلى هذه الدولة مرة ثانية .

---

(٤١) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(ب) إمامة أبى اليقظان بن أفلح
(٢٤١ هـ / ٨٥٥ م - ٢٨١ هـ / ٨٩٤ م)

شخصية أبى اليقظان :

لم تذكر المصادر شيئا عن المراحل الأولى من حياة أبى اليقظان ، وإنما اكتفى بعضها بالحديث عن ورعه وتقواه وأنه كان حسن الحال عند جميع الناس ، وقد أفاض ابن الصغير فى الحديث عن تقواه وخوفه من الله وأن ذلك دفعه إلى طلب الذهاب إلى الحج ، وألح على والده أفلح أن يأذن له فى ذلك ، فأذن له رغم الأخطار التى قد يتعرض لها ، وخرج أبو اليقظان مع قافلة حتى إذا ورد مكة قبض عليه رسل بنى العباس ، وحملوه من مكة إلى بغداد ، وهناك زجوا به فى السجن [٤٢] . وقد نقل ابن الصغير فى كتابه حديثا لأبى اليقظان عندما سجن فى بغداد قال : « وافق حبسى حبس (المتوكل) أخى الخليفة (الواثق) كان قد نقم عليه فأنقم قال : فأمر بنا جميعا فحبسنا فى موضع واحد » [٤٣] وأجرى الخليفة على أبى اليقظان كل يوم مائة وعشرين درهما ، وكان المتوكل صديقا حبيبا لأبى اليقظان ، فلا يأكل طعاما ولا يشرب شرابا إلا مع أبى اليقظان ، وظلت الأحوال بهما كذلك حتى حدثت ضجة فى السجن من حولهم ، وإذا بالخليفة (الواثق) قد قتل وقدم صاحبى (الخليفة المتوكل) الذى فى الحبس معى مكانه قال : فما شعرنا أن دخلت له الصقالبة والأجناد علينا فاختطف من بين أيدينا ولم يسم من حدثنا من كان الخليفة المقتول ولا من كان الخليفة القائم قال : (أبو اليقظان) فلما استقل الملك بصاحبى وقعدت قواعده أمر بى فأخرجت » [٤٤] .

---

(٤٢) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٢٨ .

(٤٣) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(٤٤) المصدر السابق ، ص ٢٨ (الخليفة هو الواثق وأخوه السجين هو المتوكل ، محمد بن تاويت : دولة الرستميين أصحاب تاهرت ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، ص ١٢٤) .

ويتحدث أبو اليقظان عن اللحظات التى التقى فيها بالخليفة المتوكل بعد أن خرج من السجن يقول : « فلما مثلت بين يديه أمرنى بالجلوس فجلست قال : (أبو اليقظان) فذكر ما كنت عليه بما يرى منى اجتهادا فى صلاة وغيرها (٤٥) وعرض عليه الخليفة أن يوليه أى بلد من المشرق أو المغرب ، ولكن أبا اليقظان رفض هذا العرض فقد كانت عنده رغبة شديدة فى العودة إلى بلاد المغرب ، فوافق الخليفة على رحيله إلى المغرب ، « ثم أمر الوزير بالنظر فى أمرى وأمر جهازى وأمر لى بسرادق فضرب لى ثم أمر لى بنفقة وكسوة وكتب لى كتابا إلى عماله بالأمصار بالحفظ والرعاية والبر والإكرام » (٤٦) .

وكانت لهذه الفترة التى عاشها أبو اليقظان فى بغداد أثرها فى تكوين شخصيته السياسية سواء تلك الفترة التى قضاها مع المتوكل فى السجن أو تلك التى قضاها فى بلاط العباسيين حتى ارتحل عنهم إلى بلاد المغرب ، فقد رأى فى هذا البلاط نظما أعجبته وكثيرا ما وقف منها موقف المستغرب لها ومن ذلك أن الخليفة عندما أمر بإخراجه من السجن خصص له وزيرا يشرف على شئونه حتى يحين موعد لقائه بالخليفة على غرار ما هو معروف الآن ببعثة الشرف التى تصاحب رؤساء الدول وكبار الزوار يقول أبو اليقظان : « فأخرجت وصيرنى إلى الوزير فأمره بحفظى وكرامتى والنظر فى أمرى إلى أن اجتمع معه فكنت معه مبرورا مكرماً » (٤٧) .

ومما شاهده أبو اليقظان أيضا فى بلاط العباسيين واطلع عليه نظام تعبئة الجيوش عند الحاجة إليها ، فذات يوم عند انصراف أبى اليقظان من قصر الخليفة إلى داره الذى أعد له وجد الوزير واقفا فى صحن ذلك الدار على فرسه « فوقف أبى اليقظان يتحدث إليه فبينما هم كذلك إذ أقبل على الوزير عشرة

(٤٥) نفس المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(٤٦) نفس المصدر السابق ، ص ٣٠ ، (« والبرم » هكذا فى الأصل) .

(٤٧) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٢٨ .

رجال فتزلوا عن دوابهم فقال لهم الوزير : أتدرون لماذا أرسلت فى طلبكم ؟ قالوا : لا علم لنا بشئ فقال الوزير : « إذا كان الغداة فأحضرونى عشرة آلاف فارس فقالوا : نعم أصلح الله الوزير قال : (أبو اليقظان) فعجبت من قوله ومن قولهم وقلت يهزأ بهم أو يهزءون به أو أراد أن يظهر لى شيئا أتحدث به فى المغرب لا أصل له » (٤٨) . وقد لاحظ الوزير على أبى اليقظان علامات الاستغراب ، فقال له « مالك يا مغربى أراك تعاظمك ما سمعت فقلت (أبو اليقظان) أصلح الله الوزير كيف لا يتعاظمنى والله أصلحك لو كان ما سألتم دراهم فى أكمامكم لما استطاعوا إحضارها إليك بالغداة وكيف عشرة آلاف فارس » (٤٩) . وأراد الوزير أن يزيل دهشة أبى اليقظان فقال له : « يا مغربى ترى هؤلاء العشرة قلت : نعم تحت كل واحد منهم عشرة كم هذا معك قلت :ماية قال : وتحت يد كل من المابة عشرة كم هذا معك قلت ألف قال : وتحت كل واحد من الألف عشرة كم هذا معك قلت عشرة ألف . قال : (الوزير) فإنما تخرج هذه العشرة فيدعو كل واحد منهم من تحت يده فيأمره بإحضار عشرة ثم يخرج كل واحد منهم من المأمورين فيأمر من تحت يده فيجتمع ذلك كله فى أقل من لحظة عين » (٥٠) .

كانت بلاد المشرق إذن رافدا من الروافد التى صبت فى شخصية أبى اليقظان الكثير من المؤثرات التى جعلت لهذه الشخصية الكثير من الإمكانات التى ساعدتها على إعادة الهدوء إلى الدولة الرستمية بعد الثورة العاتية المدمرة التى حدثت فى عهد أخيه أبى بكر ، ومكنت أبى اليقظان من القيام بحركة إصلاح واسعة شملت نظم الدولة كلها ، وقد عبر ابن الصغير عن ظهور هذه المؤثرات المشرقية فى شخصية أبى اليقظان عندما عاد من المشرق يقول : « فصرف (أبو بكر بن أفلح) النظر عن المدينة وأحوازها إلى أخيه أبى اليقظان

---

(٤٨) نفس المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(٤٩) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٢٩ .

(٥٠) نفس المصدر السابق . ونفس الصفحة

مع ما ظهر له من الكفاية مع أدب المشرق والأخذ بالحزم فيما رآه من ولاية بنى العباس وسيرهم » (٥١) .

وفضلا عن هذه المؤثرات المشرقية كانت لأبى اليقظان شخصية قوية استمدت عناصر قوتها من مقوماته الجسمية وسلوكه الشخصى ، فقد كان ربع القامة أبيض الرأس واللحية ، زاهدا ورعا ناسكا سكينا (٥٢) ، « وكان إذا جلس الناس وأمرهم بالجلوس لم ينطق أحد بين يديه إلا أن تكون ظلامة ترفع إليه » (٥٣) . وكان إلى جانب ذلك ورعا متقشفا مما جعله موضع الحب والتقدير من الجميع حتى إن حب نفوسة الجبل لأبى اليقظان وصل حد الافتتان بشخصيته وقد كتب ابن الصغير فى ذلك يقول : « وكانت نفوسة الجبل مفتونة بأبى اليقظان حتى إنها أقامته فى دينها وتحليلها وتحريمها مثل ما أقامت النصارى عيسى بن مريم وكان أكثرهم لا يحج إلا باستئذانه ، وكانت المرأة تبعث بابنها أو ابنتها يأخذ لها الإذن منه وكان إذا ضرب سرادقة واتته وفودهم لا ينامون الليل حول فسطاطه شأنهم التهليل والتكبير من أول الليل حتى إلى الفجر فإذا صلوا الفجر معه خرجوا بأنفسهم إلى الأرض فناموا » (٥٤) .

ومما يذكره الدرجينى أيضا فى هذا الصدد قوله : « فكانت نفوسة فيما قيل لا يعدلون أيامه وسيرته إلا بإمامة جده عبد الرحمن وسيرته وذلك أنهم اتخذوا مجلسه حينئذ فى المسجد فطايفة يصلون وطايفة يقرءون القرآن وطايفة يتذاكرون فى فنون العلم » (٥٥) .

---

(٥١) نفس المصدر السابق ، ص ٣٢ .

(٥٢) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٤٤ ، البرادى : الجواهر المنتقاة ، مخطوط ، ورقة ٩١ .

(٥٣) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٤٤ .

(٥٤) نفس المصدر السابق ، ص ٤٦ ، ص ٤٧ .

(٥٥) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٣٧ .

استقرار الأوضاع الداخلية فى عهد أبى اليقظان :

استطاع أبو اليقظان بفضل شخصيته القوية ومكانته بين الجميع أن يظل فى الإمامة أربعين سنة (٥٦) . تمتعت الدولة الرستمية خلالها بكثير من الاصلاحات الداخلية التى ساهمت فى دعم مركز الدولة السياسى والاقتصادى والاجتماعى . فعلى أثر دخول إبى اليقظان إلى تاهرت استصلح الناس قاضيا بعد أن شاورهم فى ذلك ، ووقع الاختيار على أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى الشيخ ثم ولى على بيت المال رجلا من نفوسة ، وقدم على منبره من ارتضاه هو بنفسه لهذه المهمة . وألقى إلى قوم من نفوسة مهمة مراقبة الأسواق والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والمحافظة على المظهر العام للعاصمة تاهرت من حيث نظافتها ، وسيادة الأمن فى ربوعها كما كانت رعاية المساجد والمصلين بتاهرت من المهام الملقاة على عاتق هذه الجماعة (٥٧) .

وواصل أبو اليقظان جهوده فى إصلاح ما أفسدته الحرب الأهلية « حتى عادت الناس إلى خطة سيرها القديم فى سبيل العمارة والتجارة والبنيان واشتغلوا بطلب العلم ... وكاتب الإمام بعد إصلاحه الشئون الداخلية رؤساء سائر أتباع الإمامة فى كل الجهات فأتت طائعة خاضعة وقدمت البيعة برضاء فرتب الولاة والعمال والحكام والقضاة وأصحاب الشرطة فى الولايات كلها » (٥٨) ومن هذه الوفود التى قدمت على أبى اليقظان وفد نفوسة الجبل ، الذين طلبوا من الإمام أن يقدم عليهم عاملا يرتضيه ، فأنزلهم دار الضيافة وطلب أن يكتبوا أسماءهم وأن يرفعوها إليه ، وأمر كاتبه أن يكتب السجل ، وعلى هذا السجل كتب

---

(٥٦) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٣٧ ، البرادى : الجواهر المنتقاة ، مخطوط ، ورقة ٩١ .

(٥٧) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٤١ ، ٤٢ ، البرادى : الجواهر المنتقاة ، مخطوط ، ورقة ٩٠ .

(٥٨) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

أبو اليقظان بخط يده اسم العامل الذى اختاره ، وهو أفلح بن العباس (٥٩) . ولم تقف جهود أبى اليقظان فى مضمار الإصلاح الداخلى عند هذا الحد بل نهض بنفسه يباشر إلقاء الدروس على الطلاب والراغبين فى العلم ، وأرسل الرسائل إلى عماله فى جميع الجهات ، وفى هذه الرسائل يدعو الناس إلى تقوى الله والمسارعة إلى طلب العلم واتباع السلف الصالح ، والبعد عن الأهواء والبدع وما ينشره أعداء الدولة من أباطيل (٦٠) . ونتيجة لهذه الإصلاحات قويت الدولة الرستمية ، واستردت هيبتها فى بلاد المغرب وأصبحت قادرة على ردع أية محاولة للنيل من أراضيها أو استقلالها .

غزو العباس بن أحمد بن طولون للرستميين :

تعرضت حدود الدولة الرستمية الشرقية فى عهد أبى اليقظان بن أفلح إلى الغزو من ناحية مصر سنة (٢٦٥ هـ / ٧٧٨ م) (٦١) ، وقد قام بهذا الغزو العباس بن طولون الذى خرج من مصر ثائرا على والده ، متجها نحو بلاد المغرب ، مدعيا أن الخليفة المعتمد قد قلده إفريقية وأنه أقره عليها (٦٢) ،

---

(٥٩) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٤٧ . (ذكر ابن الصغير أن وفد نفوسة حاول أن يعرف اسم العامل الذى اختاره الإمام لهم فسألوا حمود بن بكر ، وعيسى بن فرناس وغيرهم من المقربين من أبى اليقظان فأنكروا علمهم بشىء حتى إذ سألوا عبد العزيز بن الأوز فأجابهم : إن الإمام قد قدم عليهم أفلح بن عباس : فغضب الوفد من حمود بن بكر وعيسى بن فرناس ، فلما ذهب الاثنان إلى الإمام أحضر الإمام عبد العزيز بن الأوز اقال له : من أعلمك أنى قدمت على نفوسة أفلح بن العباس ، فقال عبد العزيز أنت أعلمتنى ، فقال أبو اليقظان فى اليقظة أم فى النوم ، قال عبد العزيز لا ولكن فى اليقظة ، قال : وكيف ذلك قال : رأيتك إذ يسمى لك رجل من وفد نفوسة انقبض ما بين عينيك وإذا سمى لك أفلح ابن العباس انبسط ما بين عينيك فعلمت أنك أياه تريد ، فقال أبو اليقظان : خليا عن المجنون فقد كشف سرنا) ، ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٤٧ ، ٤٨) .

(٦٠) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ انظر قسم الملاحق وبه نص رسالة من أبى اليقظان إلى جميع رعيته .

(٦١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٧ ، ص ٣٢٤ ، الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ٢٢١ .

(٦٢) ابن خلدون : العبر ، ط . دار الكتاب اللبنانى ، جـ ٤ ، ص ٦٤٥ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٧ ، ص ٣٢٤ .

وما أن وصل العباس بن أحمد إلى برقة حتى أرسل إلى إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب يأمره بالدعاء له بإفريقية ويخبره بأنه سائر إليه (٦٣) ، وفى نفس الوقت أرسل إلى إلياس أبى منصور النفوسى عامل الرستميين على نفوسة يتوعده وينذره ويدعوه إلى الطاعة ويقول له : « أقبل بسمعك وطاعتك وإلا وطيت بلدك بخيلى ورجلى وأبحت رحمك » (٦٤) .

ولم يكتف العباس بن أحمد بن طولون بذلك ، فما أن وصل إلى لبدة فى جمادى الأولى سنة ٢٦٦ هـ حتى أمر جنده ، باستباحة المدينة ونهبها يقول الكندى : « فأمر العباس بنهبها فنهبت على غرة فقتلت رجالهم وفضحت نساؤهم » (٦٥) ، وبالقرب من لبدة انهزمت قوات الأغالبة بقيادة أحمد بن قرهب عاملهم على طرابلس ، وتبعه العباس أحمد بن طولون حتى طرابلس فحاصرها ونصب عليها المجانيق ودام الحصار ثلاثة وأربعين يوما (٦٦) . قام فيها جنود العباس بن أحمد بن طولون بكثير من أعمال العنف ضد رعايا الدولة الرستمية بالقرب من طرابلس « فتعدى بعض سودانه على بعض حرم البوادى وهتكوا الستر فاستغاث أهل طرابلس بأبى منصور صاحب نفوسة فقام محتسبا وناصرا جيرانه من المسلمين » (٦٧) .

خرج إلياس أبو منصور النفوسى إلى ابن طولون فى اثنى عشر ألفا ، وتمكن من إلحاق الهزيمة به وإخراجه إلى برقة (٦٨) « وانتهب أهل طرابلس

---

(٦٣) الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ٢٢٢ .

(٦٤) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ابن سعيد المغربى فى حلى المغرب ، ط . كلية الآداب ١٩٥٣ ، ت . د. زكى محمد حسن وآخرين ، جـ ١ ، ص ١٢١ .

(٦٥) الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ٢٢٢ .

(٦٦) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١١٩ .

(٦٧) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(٦٨) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٧ ، ص ٣٢٤ .

الكثير من أموال الطولونيين بينما تورع النفوسيون كعادتهم عن أخذ شئ من هذه الأسباب وفقا لمبادئهم » (٦٩) . وكانت هذه فرصة عظيمة لإبراهيم بن أحمد بن الأغلب ، فأخذ فى البحث عن أموال ابن طولون « وأخذها ممن وجدت عنده فكان الرجل من أهل العسكر يبيع مثاقيل ابن طولون سرا بما أمكنه خوفا أن تؤخذ منه » (٧٠) .

وظلت أحوال الدولة هادئة إلى نهاية حكم أبى اليقظان ، حتى إذا جاءت سنة (٢٨١ هـ / ٨٩٤ م) توفى أبو اليقظان (٧١) ، بعد أن عاش من العمر أكثر من مائة سنة قضى منها فى الإمامة أربعين عاما ، وكان كل ما وجد فى تركته بعد وفاته من أموال سبعة عشر دينارا (٧٢) وبوفاته اعترت الدولة الرستمية عوامل الضعف والتفكك وبدأ نجمها يأفل من سماء المغرب .

---

(٦٩) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٩٩ ، ابن خلدون : العبر ، دار الكتاب اللبنانى ، جـ ٤ ، ص ٦٤٦ .

(٧٠) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١١٩ .

(٧١) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٤٩ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٩٧ ، البرادى : الجواهر المنتقاة ، مخطوط ، ورقة ٩٣ .

(٧٢) أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ٣١ ب ، ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٤٤ .

(جـ) إمامة أبي حاتم يوسف بن محمد
(٢٨١ هـ / ٨٩٤ م - ٢٩٤ هـ / ٩٠٦ م)

مبايعته بالإمامة :

لم يكن أحد من أبناء أبي اليقظان فى تاهرت عند وفاته ، فابنه يقظان كان فى الحج ، وابنه أبو حاتم كان قد خرج على رأس جيش لحماية بعض القوافل التجارية من اعتداء قبائل زناتة عليها ، وكانت هذه القوافل قادمة من المشرق وفيها أموال كثيرة لا تحصى . ولما كانت المسافة بين تاهرت وبين أبي حاتم بعيدة فهو على مسيرة يومين من المدينة اجتمع العوام والفرسان دون القبائل وأعلنوا مبايعتهم لأبي حاتم ، وأرسلوا له على الفور من يخبره بوفاة أبيه وعقد الإمامة له (٧٣) .

وعلى عجل عاد أبو حاتم إلى تاهرت ، واستقبلته جماهير المبايعين عند باب المدينة حتى « ازدحم الناس بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن يساره فبايعوا فما وصل المسجد الجامع إلا وقت الظهر فأصعدوه المنبر وبايعوه وكبروا حوله وأحملوه على الأيدى والأعناق حتى وصلوه إلى داره ثم أرسلوا إلى القبائل فبايعته » (٧٤) . ولم يجد مجلس الشورى أمام هذا الاجماع العام الحاشد بدا من مبايعة أبي حاتم ، ووافقوا على البيعة بالإجماع (٧٥) . ولم يرض يعقوب بن أفلح عن مبايعة ابن أخيه أبي حاتم على هذا النحو . لذا آثر أن يرحل

---

(٧٣) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٥٠ .

(٧٤) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(٧٥) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٦٣ ، دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، جـ ٣ ، ص ٦٠٢ ، أبو ربيع سليمان البارونى : مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٤٢ .

عن تاهرت حيث أقام فى مدينة زواغة (٧٦) . فى الجنوب الغربى لمدينة صبرة فى غرب طرابلس (٧٧) .

تجدد الحرب الأهلية :

كان أبو حاتم فتى شابا يجمع الفتيان إلى نفسه فيطعم ويكسو وقد منحه ذلك الكثير من حب الناس ورضاهم عنه مما جعلهم يتحمسون إلى مبايعته على هذه الصورة التى رأيناها ، لكن ما كادت البيعة تتم له حتى انفردت به عشيرته وأخوته وأعمامه وبنو أعمامه ومواليه ، واستهدفوا من ذلك أن يحجبوا الإمام عن جماهير الشعب ، ويحيطونه بأبهة الملك والسلطان . ولكن الشعب رفض ذلك ، وطالبوا أن يسمح لهم بالاتصال المباشر بالإمام فى كل الأوقات كما كان ذلك متاحا لهم قبل إمامته (٧٨) . ولم يكن احتجاب أبى حاتم عن العامة بتأثير من أقاربه ومواليه فحسب وإنما شارك فى ذلك عدد من شيوخ تاهرت من غير الإباضية كما يقول ابن الصغير : « منهم رجلا يعرف بأبى مسعود وكان كوفيا فقيها بمذاهب الكوفيين ومنهم شيخ يعرف بأبى دنون وكان على مثل صاحبه من الفقه الكوفى ومنهم رجل يعرف بعلوان بن علوان لم يكن من أهل الفقه ولاكن كانت له رياسة فى البلد ومحبة عند العوام وكان هؤلاء قد طمعوا أن يبيتوا خبر الإباضية » (٧٩) .

كانت هذه العناصر تحجب الإمام عن العامة لتثير عليه الرعية ، بل لقد وصل بهم الأمر إلى حد التآمر مع اثنين من خاصة أبى حاتم وهما محمد بن

---

(٧٦) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٥٣ ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٢٦٦ .

(٧٧) دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، جـ ٣ ، ص ٦٠٣ ، أبو ربيع سليمان البارونى ، مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٤٢ .

(٧٨) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٧٩) المصدر السابق ، ص ٥٠ ، ٥١ (« لاكن » هكذا فى الأصل) .

رباح ومحمد بن حماد للتخلص من أبى حاتم ولم يشك أبو حاتم لحظة فيما سمعه عن هذه المؤامرة ، لأن محمد بن رباح ومحمد بن حماد سبق لهما أن عرضا على أبى حاتم أن يقتلا والده أبا اليقظان عندما كان على خلاف مع أبى حاتم وقالا له : « لا عليك اثبت كما أنت وخل بيننا وبين هذه الخوخاء (أبو اليقظان) نحن ندخل إليه فنقتله ويصير الأمر إليك » (٨٠) . وبادر أبو حاتم إلى الحيلولة دون إتمام هذه المؤامرة فأصدر أوامره بتحديد إقامة محمد بن رباح ومحمد بن حماد خارج تاهرت ، وسمح لهما بالإقامة معا فى قصر لمحمد بن رباح يقال له (الثلث) ، ولكنهما لم يهدءا عن تحريك ثورة ضد أبى حاتم « فلم يزالا يرسلان رسولا بعد الرسول إلى من فى المدينة من إخوانهما ويقولان : لهم أترضون أن يكون مثلنا ينفى من البلد بلا جناية كانت منا فيجتمع إخوانهم ويقولون والله لقد صدقا ثم اتفق من بالمدينة من إخوانهم على أن يرسلوا إليهما فيدخلوهما على رضا الراضى وسخط الساخط فما شعر أبو حاتم إلا والتكبير عليهما فى المدينة (٨١) .

ويبدو أن عودة محمد بن حماد ومحمد بن رباح إلى تاهرت تمت بطريقة أفزعت أبا حاتم وروعته إلى درجة جعلته يقرر الخروج من تاهرت سنة (٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) هو ومن يناصره من أهلها إلى حصن لواتة ، بعد سنة واحدة من مبايعته بالإمامة (٨٢) . وخرج معه نحو من مائة رجل من وجوه تاهرت ، كما خرجت العجم ونفوسة أيضا ولم يبق بتاهرت غير العامة ومشايخ البلد الذين أيقنوا أن أبا حاتم إنما خرج ليستجمع قواه خارج تاهرت وأن عليهم أن يستعلوا للحرب (٨٣) .

---

(٨٠) نفس المصدر السابق ، ص ٥١ .

(٨١) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٥١ .

(٨٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٩٧

(٨٣) بن الصغير سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٥٢ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٩٧ .

نجح أبو حاتم فى استقطاب قوى كثيرة للوقوف إلى جانبه فانضمت إليه لواتة كلها كما اجتمعت إليه قبائل الصحراء ، فأعطى الأموال وحمل على الخيل وزحف إلى تاهرت « من ثلاثة مواضع من القبلة والمشرق والمغرب فتولى بنفسه القبلة مع لواتة والرستمية وما شايعها وتولى المشرق العجم وصنهاجة ومن شايعها وتولى المغرب طوائل من الناس مع نفوسة » (٨٤) ، واستطاع أبو حاتم أن يضغط بهذه القوات على أهل تاهرت الأمر الذى جعلهم يفكرون فى استدعاء يعقوب بن أفلح عم أبى حاتم ليتولى منصب الإمامة فى تاهرت . واعتقد أهل تاهرت أنهم بهذا العمل يستطيعون إضعاف معسكر أبى حاتم بجذب كثير من أنصاره إلى يعقوب بن أفلح وما أن دخل يعقوب تاهرت حتى ضعفت شوكة أبى حاتم إذ انضم إلى يعقوب جماعة من لواتة وغيرهم من أصحاب أبى حاتم ورغم هذا فقد استمر حصار أبى حاتم لتاهرت التى أغلق يعقوب أبوابها إلا بابا واحدا صار يحارب منه أبا حاتم ، واستمرت الأحوال على هذه الصورة حتى تدخل أبو يعقوب المزاتى رئيس مزاتة بين الطرفين لعقد الهدنة بينهما (٨٥) .

وجرت مراسم الهدنة ، فقدم يعقوب بن أفلح عبد الله اللمطى لينوب عنه فى توقيع الهدنة ، وقدم أبو حاتم اثنين هما منكود وابن أبى عياض اللواتيين . وعقدت الهدنة على شرط أن يعزل الاثنان من الإمامة لمدة أربعة أشهر يختار الناس بعدها من يحبون إماما لهم وتم العقد على هذا الأساس (٨٦) . وقد انتهز أبو حاتم فرصة هذه الشهور الأربعة وقام بدعاية واسعة لنفسه فكان « إذا لقى أحدا من وجوه أهل تاهرت وشبابهم استماله فإن كان على القرب استمال به إلى نفسه وإن كان على البعد زوده وأعطاه فمالت الناس إليه » (٨٧) .

---

(٨٤) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٥٢ ، (« وما شايعها » هكذا فى الأصل)

(٨٥) المصدر السابق ، ص ٥٤ .

(٨٦) نفس المصدر السابق ، ص ٥٥ .

(٨٧) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

استعاد أبو حاتم بهذه الدعاية ثقة الناس فيه . فخرجت جماعات من أهل تاهرت إلى قصر أبى حاتم الذى يقيم فيه عند نهر مينة ، وكان على رأس هذه الجماعات رجلان من وجوه المدينة هما محمد وأحمد المعروفان بابن دبوس يقول ابن الصغير : « فبينما أبو حاتم فى منزله وقصره بنهر مينة إذ دخل عليه محمد وأحمد وجماعة الناس فقالوا قم فاركب الساعة فخرج معهما وليس معه أحد من عشيرته ولا من رجاله فلم يصبح إلا على باب المدينة وبادر إليه الناس أجمع » (٨٨) . وما كادت هذه الأنباء تصل إلى يعقوب بن أفلح حتى خرج وشيعته وركبوا خيولهم وعادوا من حيث أتوا إلى زواغة مرة ثانية (٨٩) . بعد أن قضى يعقوب فى الإمامة أربع سنوات (٩٠)

وبعد عودة أبى حاتم إلى الإمامة مرة ثانية حاول بكل الوسائل أن يستعيد سلطة الإمامة وهيبتها ، بعد أن تدهورت أوضاع الدولة الاقتصادية حتى وصلت إلى الحضيض ، وظهرت كثير من الامراض الاجتماعية يقول ابن الصغير : « وكان البلد (تاهرت) قد فسدت وفسد أهلها فى تلك الحروب واتخذوا المسكر أسواقا والغلمان أخدانا »(٩١). لذا بادر أبو حاتم بإحكام قبضته على الأمور ، فعين عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبى الشيخ قاضيا ، وجعل عبد الرحمن بن صواب النفوسى على بيت المال ، وولى أمر الشرطة إلى جماعتين من الناس هم قوم زكار ، وقوم إبراهيم بن مسكين ، واستكمل أبو حاتم بذلك سلطاته التنفيذية وقد نجح هؤلاء جميعا فى ضبط الأمور فى الدولة ، وواجهوا المنحرفين بالضرب والسجن والقيد ، وحطموا الخوابى فى كل دار عظم شأنها أو صغر وشردوا الغلمان وأخدانهم إلى رؤوس الجبال والأودية ، وأمنت الطرق

(٨٨) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت ، ص ٥٦ .

(٨٩) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(٩٠) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٩٧ .

(٩١) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين ، فى تاهرت ، ص ٥٦ .

بعد أن قضى على اللصوص وقطاع الطرق ، فانتشر الأمن فى ربوع البلاد (٩٢) .

وفى عهد أبى حاتم خرج عليه الطيب بن خلف فى حيز طرابلس وجبل نفوسة ، فأصدر الإمام أوامره إلى عامله أبى منصور إلياس بالقبض عليه قبل استفحال أمره . فهرب الطيب إلى قبيلة زواغة التى كانت على رأى أبيه خلف ، ورفضت زواغة أن تسلم الطيب إلى أبى منصور وكان فى بنى بهراسن من زواغة شيخ كبير أدرك أنه لا طاقة لزواغة بالوقوف فى وجه أبى منصور وحربه ، فاقترح على زواغة ثلاثة أمور وقال لهم : « يا معشر زواغة اقترح عليكم ثلاثة أمور إن اخترتم منها واحدا أصبتم وإلا فمصيركم إلى الذل إما أن تتركوا حوزة طرابلس وتدخلوا إلى جزيرة جربة لتتحصنوا فيها وتمنعوا صاحبكم . وإما أن ترسلوا إلى تيهرت رسلا بكتاب من عندكم تطلبون فيه الإمام أن يخصصكم بعامل مستقل عن جبل نفوسة حتى لا تدخلوا تحت أحكامهم وسيطرتهم . وإما أن تسلموا إلى صاحبكم (ابن خلف) لأسلمه لنفوسة بالأمان وأنا أضمن لكم سلامتكم وأنهم لا يتجاوزون فيه الحق » (٩٣) . ورفضت زواغة الانصياع لنصائح الشيخ ، فلما وصلهم أبو منصور طالبهم بتسليم الطيب فرفضوا فناجزهم الحرب فكان بين الفريقين قتال شديد هزمت على إثره زواغة ولجأت إلى جزيرة جربة ، وهناك اختفى الطيب بن خلف عند رجل من وجوه زواغة فى جربة ، فبذل أبو منصور مائة دينار إلى الزواغى ، فدعا الزواغى إلى جربة كى يسلمه الطيب بن خلف ، وما هى إلا أن دهم أبو منصور جربة فدخلها بلا حرب ، وعلى الفور توجه الزواغى إلى ابن خلف وهو فى قصره وقال له « انزل أيها الأمير فقد أرملت كثيراً من نساء زواغة » (٩٤) . ونزل الطيب بن خلف فقبض عليه أبو منصور وقيده ومضى به إلى الجبل فحبسه ، وكانوا يلقبونه بالطيب ابن

---

(٩٢) ابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

(٩٣) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

(٩٤) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

الخبيث ابن الطيب ، وظل فى سجنه حتى أعلن توبته فأفرج عنه (٩٥) .

وإذا كان أبو منصور إلياس النفوسى عامل الرستميين على إقليم طرابلس وجبل نفوسة قد نجح فى صد الهجوم الطولونى على شرق الدولة الرستمية فى عهد أبى اليقظان ، واحتفظ بهذه الجهات هادئة فى عهد أبى حاتم ، فإن أفلح بن العباس الذى خلف أبو منصور على إقليم طرابلس وجبل نفوسة لم تكن له مهارة أبى المنصور فى قيادة الحروب وتوجيه الأمور فقد منى بهزيمة فادحة على أيدى الأغالبة حين عزم إبراهيم بن أحمد بن الأغلب على غزو الطولونيين فى مصر ، فخرج سنة (٢٨٣ هـ / ٨٩٦ م) على رأس جيش يقوده أبو بحر بن أدهم (٩٦) . فاعترضت نفوسة الجيش الأغلبى بين قابس وطرابلس وكانت فى عشرين ألف جندى ، ولكن الأغالبة تمكنوا من إلحاق الهزيمة بالنفوسيين وقتلوا أكثرهم (٩٧) . ويذكر الدرجينى أن القتلى من هذه المعركة كانوا اثنى عشر ألفاً من الإباضية كان من بينهم أربعمائة من العلماء (٩٨) . ولم يكتف ابن الأغلب بذلك بل زحف إلى قنطرارة فقتل منها من قتل وأسر منها ثمانين عالماً . ولم تنج نفزاوة هى الأخرى من ضربات ابن الأغلب (٩٩) ، وفى غمرة هذه الأحداث لم يستطع أبو حاتم أن يحرك ساكناً فقد كان محاصراً لعمه يعقوب بن أفلح فى تاهرت فى تلك الأثناء ، وقد دفع ذلك الأغالبة إلى معاودة الكرة فى الهجوم على نفوسة ، ففى العام التالى سنة (٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) سير إبراهيم بن أحمد ابنه أبا العباس إلى نفوسة ، فقتل

---

(٩٥) نفس المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٧٩ ، أبو الربيع سليمان البارونى : مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٤٣ .

(٩٦) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٢٩ .

(٩٧) نفس المصدر السابق : ونفس الصفحة ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٢٨٠ .

(٩٨) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٤٠ ، أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ٣٣ب ، ٣٤ أ .

(٩٩) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٢٨٢

منهم عدداً كبيراً ، وأسر منهم ثلاثمائة ذبحوا عن آخرهم وأخرجت قلوبهم ، ونظمت فى حبال نصبت على باب تونس (١٠٠) .

وأمام هذه الضربات المتلاحقة ، انهارت نفوسة التى كانت تشكل عصب الدولة الرستمية الحساس ودرعها الواقية ، ولم تعد لها تلك القدرة الغنية على مواصلة إمداد تاهرت اقتصادياً وعسكرياً (١٠١) .

ومن ناحية أخرى فقد كانت هذه الهزائم كفيلة بإسقاط هيبة الإمام فى تاهرت ، رغم المحاولات التى قام بها للسيطرة على الأمور ولكن الوقت كان قد فات ، فطمع فى الإمامة بعض أقاربه وهم بنو أخيه فلم يجدوا مشقة كبيرة فى التآمر عليه وقتله سنة (٢٩٤ هـ / ٩٠٦ م) (١٠٢) .

---

(١٠٠) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٣٠ .

(١٠١) أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ٣٣ أ ، د . محمود إسماعيل : الأغالبة سياستهم الخارجية ، ص ١٣٤ .

(١٠٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٩٧ .

(د) يقظان بن أبى اليقظان
(٢٩٤ هـ / ٩٠٦ م - ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م)

بعد نجاح المؤامرة على أبى حاتم وقتله ارتقى اليقظان بن أبى اليقظان إلى الإمامة ، ورغم أن فترة إمامته امتدت إلى سنتين إلا أن هذه الفترة سادتها عوامل الانقسام والاضطراب ، أما الانقسام فلأن الأكثرين من شيوخ الإباضية كانوا ساخطين على اليقظان (١٠٣) . ومن هؤلاء الساخطين ، شيوخ نفوسة الجبل لأنهم كانوا يعتقدون أن يقظان بن أبى اليقظان مشترك فى مؤامرة قتل أبى حاتم (١٠٤) . ومن عوامل الانقسام أيضاً تلك المناقشات الحادة التى سادت مجتمعات العلماء وحلقات الإباضية وكان لها أثرها فى تفتيت وحدة الفكر فى الدولة الرستمية (١٠٥) . أما عوامل الاضطراب فلأن خطر الشيعة ببلاد المغرب بدأ يلوح فى الأفق ويقترب من حدود الدولة الرستمية ، فأبو عبد الله الشيعى تمكن من الاستيلاء على الزاب ودخل رقادة سنة (٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م) بعد أن هرب منها زيادة الله بن الأغلب (١٠٦) .

---

(١٠٣) د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٥٦٥ ، (العصر الإسلامى) .

(١٠٤) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٢٩٢ .

(١٠٥) نفس المصدر السابق ، ص ٢٨٧ .

(١٠٦) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ ، ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ ١ ، ص ١٩١ (لم تنجح محاولات الشيعة فى سائر النواحى من العالم الإسلامى لإقامة دولة إلا حين أرسلوا أبا عبد الله الشيعى داعياً لهم بالمغرب ، وبمجرد اختياره لهذه المهمة قرر أن يذهب إلى موسم الحج ليجتمع هناك بمن يحج من أهل المغرب فيتعرف على مذاهبهم وأخلاقهم فلما وصل تعرف على عشرة رجال من قبيلة كتامة وكان شيخهم على مذهب الإباضية النكارة واستطاع أبو عبد الله الشيعى أن يسيطر على هذه المجموعة بما أوتى من علم وفصاحة واصطحبوه معهم إلى المغرب واستقر به الحال فى قبيلة كتامة وبمرور الوقت كشف أبو عبد الله لشيخ كتامة عن مهمته فى الدعوة لأهل البيت فالتزمت كتامة بطاعته وانضمت إليها فى تأييده قبائل أخرى كثيرة فأنشأ لهم ديوانا وألزمهم العسكرية وقال لهم : « أنا لا أدعوكم لنفسى وإنما أدعوكم لطاعة الإمام المعصوم من أهل البيت الذى صفته كذا وكذا ... هو صاحب هذا الأمر وأنا متصرف بين يديه إذا ظهر - يقصد عبيد الله المهدى ولم يكن قد رآه قط وإنما يسمع أخباره من شيوخ الشيعة - » (ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٢٤ - ١٢٨) .

وأمام مظاهر الاضطراب والانقسام هذه لم يستطع يقظان بن أبي اليقظان أن يفعل شيئا لمواجهة الخطر الشيعى القادم عليه وفى منتصف رمضان سنة (٢٩٦ هـ / ٩٠٧ م) كان أبو عبد الله الشيعى (داعى الفاطميين فى بلاد المغرب) قد أتم استعداداته العسكرية لبدء جولته الثانية التى كانت هذه المرة مع الرستميين أصحاب المغرب الأوسط ، ذلك أن ظهور حركة الشيعة كان من أهم العوامل التى أودت بالدولة الرستمية إذ نمت هذه الحركة نموا مضطردا وأصبح لها من القوة العسكرية ما استطاعت به أن تكيل الضربات لدول المغرب وتسقطها الواحدة تلو الأخرى ، وكان من بينها الدولة الرستمية .

ولا يخفى وجود مؤثرات شيعية بدأت تتسرب إلى الدولة الرستمية فظهرت خطب الإمام على منابر الدولة وهى الخطب التى يستخدمها الخطباء يوم الجمعة إلى جانب خطبهم العادية(١٠٧) . وقد تجلت هذه المؤثرات فى اعتناق أحد الإباضية من النكار – وهو شيخ من شيوخ قبيلة كتامة دعوة أبى عبد الله الشيعى وقد استغل داعية الشيعة هذه الميول عند الشيخ أحسن الاستغلال يقول ابن عذارى : « فوجد (داعية الشيعة) الشيخ يميل فى مذهبه إلى مذهب الإباضية النكارة فدخل عليه من هذه الثلمة ولم يزل يستدرجهم ويخلبهم بما أوتى من فضل اللسان والعلم بالجدل إلى أن سلبهم عقولهم بسحر بيانه » (١٠٨) . ويتحدث ابن عذارى أيضاً عن الاستعدادات الضخمة التى جهزها أبو عبد الله الشيعى لضرب الدولة الرستمية فيقول : « فلما كمل له ما أراد من جيوشه وجهازه وعدده وآلات سفره استخلف على إفريقية أخاه أبا العباس وأبا زاكى تمام بن معارك الأجانى ثم خرج من رقادة يوم الخميس للنصف من رمضان فى جموع كالدبى المنتشر ومعه وجوه رجاله وأهل دعوته ... فسار أبو عبد الله

---

(١٠٧) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٢٨٧ (لفت قيام دولة الأدارسة نظر الشيعة إلى بلاد المغرب فأصبحت هذه البلاد ملاذاً آمنا وأرضاً خصبة للدعوة الشيعية التى أسفرت عن قيام الدولة الفاطمية فى نهاية القرن الثالث الهجرى ، د . محمد حلمى محمد أحمد : الخلافة والدولة فى العصر العباسى ص ٥١) .

(١٠٨) بن عذارى . البيان المغرب . جـ ١ . ص ١٢٤

حتى حل بمدينة تيهرت فدخلها بالأمان وقتل بها من الرستمية يقظان بن أبى اليقظان ، وجماعة أهل بيته وبعث برءوسهم إلى أخيه أبى العباس وأبى زاكى خليفته برقادة وطوفت بالقيروان ونصبت على باب مدينة رقادة وانقضت دولة بنى رستم بتيهرت » (١٠٩) .

ويذكر بعض كتاب الإباضية أنه كانت لأبى حاتم يوسف بن محمد ابنة اسمها (دوسرا) لما قتل والدها توجهت مع أخ لها إلى أبى عبد الله (الداعى) ودعته إلى الأخذ بثأر أبيها من قاتليه ووعدته بالزواج منها لقاء ذلك ولكن (الداعى) لم يجبها بشئ (١١٠) . فلما استنجد عبيد الله الشيعى (المهدى) بأبى عبد الله الداعى لتخليصه من سجنه ، وكان المدراريون قد سجنوه لما تحققوا من شخصيته ، فوضع هو وابنه أبو القاسم فى غرفة عند مريم بنت مدرار (١١١) . فلما توجه أبو عبد الله (الداعى) إلى سجلماسة « مر بالقرب من تيهرت فخرج إليه من فيها من وجوه فرق الشيعة والواصلية والصفرية والمالكية وقدموا له الشكاية فى اليقظان ووعدوه بالإعانة بالمال والرجال ورغبوه فى استيصال هذه العائلة كلها وانتزاع الأمر من أيديهم (لأنه) لا رجال ولا عسكر لليقظان ولا قوة له لإدبار الناس عنه بما وقع من قتل الإمام (١١٢) ، وهذه الحقيقة توضح أن سبب انهيار الرستميين أمام ضربات الفاطميين هو عدم وجود جيوش رستمية نظامية (١١٣) .

---

(١٠٩) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

(١١٠) أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ٣٦ ب ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٢٩٢ .

(١١١) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٥٣ .

(١١٢) أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ٣٦ ب ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

(١١٣) JULIEN, op. cit. p. 39.

أرسل أبو عبد الله الداعى إلى اليقظان يطلب الاجتماع به فخرج إليه اليقظان ومعه بنوه وإخوته وأتباعه ، وعلى بعد أميال من تاهرت ، التقى اليقظان ومن معه بأبى عبد الله الداعى فقال لليقظان متجاهلا : « ما اسمك فقال له اسمى اليقظان فقال الحجانى بل أنت الحيران ما بالكم قتلتم أميركم وسلبتم من أنفسكم ملككم وأطفيتم نور الإسلام ألقيتم إلينا بأيديكم بغير قتال ولا حصار ثم أمر بقتلهم فقتلوا عن آخرهم وذلك فى شوال سنة ٢٩٦ هـ » (١١٤) .

ولما سمعت دوسبرا ما حدث هربت خوفا من أبى عبد الله الشيعى ، وقد بحث عنها كثيرا فلم يعثر عليها (١١٥) .

ودخل أبو عبد الله (الداعى) تاهرت (٢٩٦ هـ / ٩٠٧ م) فاستباحها ، ونهبها ، وقصد إلى المكتبة المعروفة (بالمعصومة) ليقضى على الفكر الإباضى المكتوب (١١٦) ، فقد كانت المعصومة مكتبة عظيمة ضخمة تحوى أكثر من ثلاثمائة ألف مجلد ، أغلبها فى الشريعة الإسلامية وفلسفتها وفى شرح المذهب الإباضى والاحتجاج له ، وفى تاريخ الدولة الرستمية (١١٧) ، وبقدر ما كان أبو عبد الله الداعى يريد القضاء على كل مظاهر الفكر الإباضى وإفنائه بقدر ما كان حريصا على كل ما من شأنه تدعيم الدولة العبيدية التى يقيمها ، فأخذ ما فى المكتبة المعصومة من كتب الرياضة والصنائع وغيرها من كتب الفنون ، وأحرق كل ما تبقى من الكتب وخصوصا تلك التى تتعلق بالمذهب الإباضى (١١٨) .

---

(١١٤) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٢٩٣ (وذكر ابن عذارى الرواية مع اختلاف فى اللفظ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٩٧) .

(١١٥) أبو زكرياء : السيرة وأخبار الأئمة ، مخطوط ، ورقة ٣٦ ب ، البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٢٩٣ .

(١١٦) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

(١١٧) دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، جـ ٣ ، ص ٦١٧ .

(١١٨) البارونى : الأزهار الرياضية ، جـ ٢ ، ص ٢٩٣ ، أبو ربيع سليمان البارونى : مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٤٤ .

وقام داعية الشيعة بانهاء الدولة الرستمية رسميا وذلك بتنصيب أبا حميد دواس بن صولات اللهيصى ، وإبراهيم بن محمد اليمانى المعروف بالهوارى على تاهرت (١١٩) . أما الرستميون فقد انتشرت فلولهم فى البلاد فهرب أغلبهم إلى جبال أوراس وإلى جبال بني راشد ، وبعضهم انطلق إلى جبل نفوسة وجربة (١٢٠) . ويذكر الدرجينى أن يعقوب بن الأفلح خرج فارا إلى ورجلان ومعه عدد كبير من العائلات الرستمية ، فلما كان فى بعض الطريق نظر نظرة فى النجوم وكان ممن درسوا علم الفلك والنجوم فقال لأصحابه « إنكم لا يجتمع منكم ثلاثة نفر إلا كان عليهم الطلب افترقوا فقد انقطعت أيامكم وزال ملككم » (١٢١) . فلما نزل وأصحابه ورجلان رغب أهلها فى مبايعة يعقوب بن الأفلح وتوليته عليهم ، ولكن يعقوب رفض طلبهم وقال لهم قولته المشهورة : « لا يستتر الجمل بالغنم » (١٢٢) ، وبهذه العبارة طوى يعقوب بن الأفلح آخر من بقى من الرستميين آخر صفحة من صفحات الدولة الرستمية المشرقة .

---

(١١٩) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٥٣ .

(١٢٠) دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، جـ ٣ ، ص ٦١٨ .

(١٢١) الدرجينى : طبقات الإباضية ، مخطوط ، ورقة ٤٦ .

(١٢٢) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

الفصل الخامس
العلاقات الخارجية للرستميين

كانت الدولة الرستمية من أسبق الدول المستقلة عن الخلافة العباسية قياماً فى بلاد المغرب ، وأصبح لها منذ إعلان قيامها سنة (١٦٠ هـ / ٧٧٦ - ٧٧٧ م) شخصيتها كدولة ذات سيادة على مواطنيها وأراضيها ، وأصبح من حقها أن تساهم بدورها فى العلاقات الدولية ، تلك العلاقات التى استفاد منها الرستميون ، مكاسب كثيرة كانت لها آثار بعيدة المدى فى دعم أركان دولتهم حيث أتاحت لهم هذه العلاقات مزيدا من الاحتكاك سياسيا وعسكريا وحضاريا ، وقد تنوعت هذه العلاقات قوة وضعفا ، صداقة وعداء بحسب مواقف الدول من الدولة الرستمية .

علاقة الرستميين بالعباسيين :

ارتبطت علاقات الرستميين الخارجية بالعباسيين بعاملين كانا ذا أثر كبير فى طابع العداء الذى اتسمت به تلك العلاقة :

أولهما : أن العباسيين - منذ آلت الخلافة إليهم - يعتبرون بلاد المغرب كلها ميراثا شرعيا تركه الأمويون لهم ، وعلى هذا نظروا إلى الرستميين نظرة عداء ، وأصبحت هذه النظرة تحكم سير العلاقات بينهما ، فقامت على أسس عدائية بين الطرفين باعتبار أن الرستميين اقتطعوا جزءا من ممتلكات العباسيين .

ثانيهما : كان بين العباسيين والرستميين ذلك العداء التقليدى الذى كان بين الخلافة العباسية السنية ، وبين الإباضية باعتبار أنهم فرقة من الخوارج .

وقد وضعت هذه الأسس العدائية موضع التنفيذ أيام مطاردة ولاة